ميثاق الغد ..

د. نبيل فاروق



ويأتي الغد

D. Nabil Farouk



الكويت 2007

تصميم الغلاف

محمد العنزي

إخراج و تنفيذ

م . شريف محمد

إشراف عام

م.سند راشد

د.تامر أبراهيم

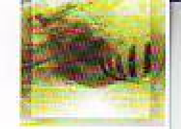
بقلم

د . نبيل فاروق



فلسفة الخيال





مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، غرقت الإمبراطورية الصينية في حروب طاحنة، للحفاظ على أمنها، وضمان وحدتها، والدفاع عن أرضها، ضد غزاة جذبتهم حضارتها، من كل أركان الأرض..

وفي عام 1232م، بلغت تلك الحروب ذروتها، وحاصر الأعداء الإمبراطورية الصفراء، وهموا بإقتحامها، وإحتلالها، و....

ولكن التاريخ يحمل لنا مفاجأة مدهشة، في ذلك العام بالتحديد..

فلأول مرة، إستخدم الصينيون ما وصفته كتب التاريخ بأسهم النار الطائرة..

ولكن بعض العلماء يؤكدون، أن تلك الأسهم، لم تكن سوى أول صواريخ عرفها البشر..

فأكثر ما إمتاز به الصينيون، في تلك الفترة، بعد براعتهم الكيميائية، كانت قدرتهم على الخيال والإبتكار..

وخيالهم، مع كيميائهم، صنعا أول الصواريخ..

وفي عام 1812م، وأثناء حرب البريطانيين مع الأمريكيين، طوَّر البريطاني (ويليام كونجرين) صواريخ تحمل مواد متفجرة..

وكانت مفاجأة للأمريكيين..

ونقطة تفوق للبريطانيين..

ولكن صواريخ (كونجرين) لم تكن بالقوة الكافية، لتربح (بريطانيا) الحرب، لذا فقد طواها الزمن، ونساها الأمريكيون، مع فرحتهم بالإستقلال، فإختفت في خيال العلماء، حتى عام 1903م، عندما خرج مدرس الثانوي الروسي (كونستانتين تسيبو لكوفيسكي) بأول نظرية علمية صحيحة، لإطلاق الصواريخ..



الأديب الفرنسي الشهير (جول فيرن) صاحب رواية (رحلة إلى القمر) تنبأ بوصول الإنسان إلى سطح القمر بصاروخ ينطلق من الأرض !

وكانت هذه هي البداية العلمية الحقيقية..

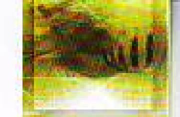
ولكن القاعدة الأساسية، في التاريخ كله، تؤكِّد أن الخيال يسبق العلم دوماً..

ويلهمه..

ويدعمه..
ففي عام 1870م، وقبل نظرية (تسيبو لكوفيسكي) بربع قرن تقريباً، نشر أبو الخيال العلمي (جول فيرن) (1828 – 1905م) روايته الخالدة، (حول القمر)..
وفي روايته، وقبل أن ينشأ علم الفضاء، تخيَّل (فيرن) الصواريخ، وإطلاقها، ومناطق إنعدام الوزن، والمسارات الكونية..
كل هذا توصَّل إليه خياله، وصاغه قلمه المبدع في روائع، ما زالت متداولة، حتى يومنا هذا..
وروائعه هذه، هي التي ألهمت قرينة البريطاني (هربرت جورج ويلز)، (1866 – 1946م)، ليضع بدوره رائعتيه، (حرب الكواكب)، و(أوصل من وصل القمر) (1898م)...

الأمريكي (روبرت جودارد)، الذي صنع أول صاروخ بطاقة دفع، في عام 6291م، وليصبح بهذا أبا الصواريخ..

الإثنان سبق خيالهما عصرهما بعدة سنوات..
وبعدة مراحل..
فبخيالهما صعدا إلى القمر، قبل أن يأتي الأمريكي (روبرت جودارد)، ليصنع أول صاروخ بطاقة دفع، في عام 1926م، ويصبح بهذا أبا الصواريخ..
ولكن التطوير الفعلي والحقيقي للصواريخ، التي نعرفها الآن، وُلِدَ على يد الألماني (فون براون)، في الحرب العالمية الثانية، ليمنح النازية صاروخيها المدمرين (ف – 1)، و(ف – 2)، اللذين دمرا نصف (لندن)، وكاد يمنحها تحفته (ف – 3)، القادرة على عبور المحيط، وضرب الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، لولا أن سقط الرايخ الثالث، وخسرت النازية الحرب، فإنتقل (فون براون)، مع ألفي رجل من علماء الصواريخ إلى (أمريكا)؛ ليبدأ هناك عصر الفضاء..
الأمر كله بدأ بخيال إذن..
وهنا تكمن الفلسفة..



فلسفة الخيال..
فالحضارات العظيمة، والمخترعات الرائعة والمذهلة، لم تكن في بدايتها سوى فكرة..
إلهام..
خيال..
ومن الخيال، تنبت دوماً بذرة واقع..
وتنمو..
وتكبر..
وتمتد فروعها في كل مكان..
والعلم يتأثر دوماً بالخيال، ويسعى خلفه، ويؤمن بأنه ما من لمحة وثبت إلى عقل ما، إلا وهناك وسيلة لتحويلها إلى حقيقة..
حقيقة علمية..
ومادية..
وموجودة..
الغوَّاصة أيضاً بدأت بكرة معدنية مصمطة، إبتكرها عقل الهولندي (كورينليوس فان دربيل)، عام 1775م، ثم حوَّلها الأمريكي (روبرت فولتن) إلى حقيقة بسيطة، عام 1800م، ألهمت عقل (فيرن)، وجعلته يسعى لتطويرها، ويصنع منها سلاحاً رهيباً، يقوده قبطان نصف مجنون، مهووس بالسلطة والعلم، وهو الكابتن (نيمو)..
وفي رائعته، (عشرون ألف فرسخ تحت الماء)، التي نشرها فيرن عام 1870م، منح غوَّاصة سمات بدت خيالية، مغرقة في الخيال في حينها، ومنحها إسم (نونتليوس)..
وجاءت الحروب العالمية، وأصبحت الغوَّاصة سلاحاً خطيراً وفعالاً، إلا أنها لم تبلغ قط ما تخيله (فيرن) في روايته..
لم تبلغه، إلا عندما أصبحت غوَّاصة نووية، عام 1954م..
والمدهش أن الغوَّاصة النووية وحدها، أمكنها أن تحقِّق ما تخيله فيرن في غوَّاصته، قبل ثمانية عقود من الزمان..
المدهش أكثر أن الأمريكيين منحوها أيضاً نفس الإسم..
(نوتيليوس)...
حتى الصاروخ، عندما بنوه، إستلهموا هيئته من الرسم على غلاف رواية (فيرن)..
وكل هذا مجرد أمثلة بسيطة، لما بدأه الخيال..
ولما أنجزه العلم..
ولما ألفناه في عالمنا..
ولكن فلسفة الخيال لا تنتهي أبداً..

فالعلماء تساءلوا: ما داموا قد حوَّلوا الغوَّاصة والصاروخ إلى حقائق، وما دامت مبتكرات ليوناردو دافنشي (1452 - 1519م)، قد سبقت عصرها بمئات السنين، عندما تخيَّل الطائرة، والهليوكوبتر، والمدفع الرشاش، وزي الغوص، وغيرها..

فلماذا لا يسعون خلف صور الخيال الأخرى أيضاً؟!..

وهكذا، إتخذ العلماء من الخيال ركيزة، إنطلقوا منها إلى محيط هائل من الإبتكارات والإختراعات..

ودون تردُّد، يمحوا وجوههم شطر آلة الزمن..

والرجل الخفي..

والرجل الذئب..

وكل خيال جامح آخر..

ومع مُضي الزمن، أدرك العلماء قاعدة مدهشة جديدة..

كل خيال، يمكن أن يتحوَّل إلى واقع..

كل خيال..

بلا إستثناء..

وخلال العقد الأخير من القرن العشرين، أثبتت منجزات العلم أن هذا لم يكن خيالاً مبالغاً منهم..

بل كان مجرد طموح..

طموح قادهم إلى ما يفوق حتى قدرتنا على الخيال..

أما الغد، والذي أعلن عن بدايته، مع مطلع القرن الحادي والعشرين، فقد بشرهم بالمزيد..

والمزيد..

والمزيد..

فخيالات الأمس واليوم، أصبحت حقائق..

أو توشك أن تصبح كذلك..

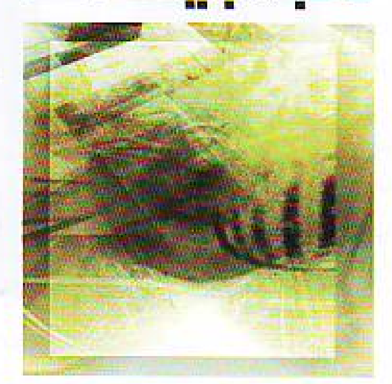
وكل ما بهر عقولنا يوماً، سيصبح بين أصابعنا..

وفي بيوتنا..

وملك أبنائنا..

عندما يأتي الغد

لعبة جينـــات





في العام الأخير من القرن العشرين، وفي نهاية ولايته، خرج الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون)، ليعلن للعالم كله، ما أطلق عليه أسم (أعظم كشوف القرن)...

وكان بهذا يعني خريطة الجينوم البشري..

الخريطة التفصيلية للجينات والمورثات البشرية، التي تمنح الإنسان (أى إنسان)، كل ما يتمتع به من صفات وسمات..

هيئته..

لون عينيه..

درجة ذكائه..

حالته الصحية..

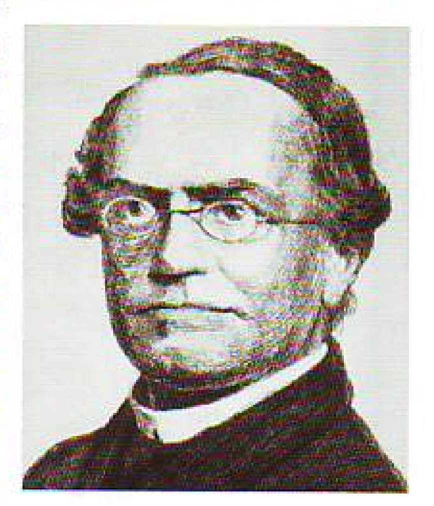
وحتى عيوبه الوراثية..

ولقد كان (كلينتون) على حق تماماً، فيما وصف به هذا الكشف المدهش، القادر على تغيير الخريطة البشرية نفسها، مع مرور الوقت..

والواقع أنما أعلنه الرئيس الأمريكي، لم يكن البداية..

بل كان مجرد مرحلة..

جولة، في لعبة طويلة، بدأها الراهب النمساوى (جريجور جوهان مندل) (1822 - 1884م)، في حديقة دير القديس (توماس) في (برون) في (النمسا)، والتي أصبحت (برنو) الآن، في (تشيكيا)، عندما راح يزرع زهور البازلاء، ويراقبها، ويسعى لتهجينها، ومتابعة نتائجها، ليضع أول قواعد (بسيطة) لعلم الوراثة..



الراهب النمساوى (جريجور جوهان مندل) (1822 - 1884م)

وعلى الرغم من كل الأبحاث، التي أفنى فيها (مندل) عمره، والتي نشرها عام 1866م، إلا أن أحداً لم ينتبه إلى علم الوراثة في حينه..

ربما لأنهم ظنوا أنه مجرد راهب..

ولكن الواقع أن (مندل) كان أكثر من هذا بكثير..

فالدير لم يكن مركزاً دينياً فحسب، وإنما كان مركزاً علمياً، التقى فيه (مندل) بالعديدين، من علماء الرياضيات والفيزياء..

وفي عام 1851م، أرسل الدير (مندل) في بعثة؛ لدراسة العلوم والرياضيات، في جامعة (فيينا)،



الرئيس الأمريكي السابق (بيل كلينتون) الذي اعتبر أن الانتهاء من خريطة الجينوم البشري انجاز علمي لا مثيل له ، على الرغم من معارضته المعلنة لاستنساخ البشر .

وعاد إلى الدير عام 1853م، ليدرس علم الأحياء والفيزياء، في مدرسة عليا محلية، طوال أربعة عشر عاماً..

وفي عام 1900م، عثر العلماء على البحث، الذي نشره (مندل).. وقرأوه..

ودرسوه..

وإنبهروا به..

ومعه، ولد أخطر علم، في عالمنا المعاصر..

علم الوراثة..

فما توصَّل غليه (مندل)، من كون الجينات الوراثية والكروسومات، هي المسئولة عن نقل السمات الوراثية، من جيل إلى جيل، كان مجرد بداية..

وكعادة العلم، إنطلق من تلك البداية..

بلا حدود..

في النصف الأوَّل من القرن العشرين كله، كانت الدراسات منصبة على فهم طبيعة الجينات الوراثية، والعوامل التي يمكن أن تؤثِّر على إنتقالها..

أو حجبها..

أو تشوّهها..

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد بعد نتائج انفجار قنبلتي (هيروشيما) و(ناجازاكي) عام 1945م، بدأ التفكير في الإستفادة من هذا العلم، فى إصلاح التشوهات، وبلوغ حد جديد من التطوّر والعلاج..

ولم يكن هذا بالأمر اليسير..

فالعلم، على الرغم مما لحق به من تطوّر، في نصف القرن التالي، ظلّ عاجزاً عن التوصُّل إلى جواب العدد من الأسئلة..

وحل العشرات من الألغاز..

ولأنه من غير المنطقي إجراء تلك التجارب على البشر، دون التكهن بالنتائج، ولأن البشر يحتاجون إلى زمن طويل، للحمل والولادة والنمو، كان من الطبيعي أن يتجه العلماء إلى إجراء تجاربهم على النباتات..

وفئران التجارب..

وكما بدأ (مندل) بالنبات، واصل العلماء اللعبة في المضمار نفسه، ولكن على نحو مختلف..

وبتكنولوجيا أكثر تطوّراً..

حاولوا في البداية، البحث عن الجينات المسئولة عن غذاء النبات، وبالتحديد عن إحتياجه للماء العذب في نموه..

كان هدفهم هو إنتاج سلالة جديدة من النبات، يمكنها أن تنمو وتزدهر، في أراض شديدة الملوحة..

أو حتى قليلة الملوحة..

ولكن لأنهم يعملون بأسوأ طريقة يمكن أن يتقدَّم بها العلم، ألا وهي التجربة

والخطأ، كان من الطبيعي أن يستغرق هذا سنوات..
وسنوات..
وسنوات..
وفي عام 1980م، توصّل العلماء إلى أول نبات من سلالة جديدة..
ورسموا أول خطوط خريطة الجينوم البشري..
بل وبدأوا علماً جديداً..
ومبهراً..
علم هندسة الوراثة..
لم يعد الهدف هو كشف وظيفة الجينات، أو إنتاج نبات محسّن فحسب..
بل الإستفادة من الجينات..
إلى أقصى حد ممكن..
وإلى أقصى حد مدهش...
فملابسنا مثلاً، كلها ألوان.. ألوان زاهية، أو هادئة، متألقة، أو خافتة، متداخلة أو منفردة...
ولكن المشكلة أن كل هذه الألوان عبارة عن أصباغ، تختلف في تركيباتها، وأنواعها، ودرجات وضوحها، وثباتها، ولكنها كلها مواد كيماوية، تلامس أجسادنا طوال الوقت، شئنا أم أبينا وتتعامل مع جلودنا على نحو مباشر، أو عبر حواجز رقيقة... وقديماً في العصور البدائية، كان البشر يرتدون ثياباً من جلود الحيوانات.. ثيابا طبيعية...
من مواد طبيعية..
ولهذا لم يكن الإنسان الأول يصاب بالتهاب الجلد..
أو أمراضه..
أو حساسياته..
لم يكن يعاني من التهاب الجيوب الأنفية، التي تشم ما لا ندركه من روائح الأصباغ والكيماويات..
ولم يكن يعالج من حساسيات الصدر التي إنتشرت في العصور الحديثة، على نحو لم يسبق له مثير..
بل ولم يصب بها قط..
وهذا ما أدركه العلماء..
وما إنتبهوا إليه مؤخراً..
وما أصبح بالنسبة لهم ولنا مشكلة صحية كبرى..
ففي كل شئ في حياتنا تقريباً إنتشرت الألوان الصناعية..
في ملابسنا..
وطعامنا..
وشرابنا..

وحتى في حلوى أطفالنا..
الخطورة تتضاعف وتتزايد، حتى أن العلماء قد بدءوا منذ مطلع ثمانينيات القرن العشرين حرباً طاحنة على الألوان..
كل الألوان الصناعية..
في البداية، كانت حربهم ضد الألوان الصناعية، في الحلوى والمشروبات..
وعبر حملة دعائية كبرى، نجحت الجهات الصحية في تحجيم إستخدام الألوان الصناعية في الأطعمة، وتم إستبدالها كلها بمجموعة من الألوان الطبيعية، المستخلصة من مصادر حيوية، مثل الفواكه، والخضراوات، والأشجار، والألياف
وكان هذا انتصاراً صحياً..
ولكن بقيت ألوان وأصباغ الملابس..
فالألوان الطبيعية، التي تمنح الحلوى والمشروبات زهاءها، لا تصلح لصباغة الملابس، ولا للحفاظ على ثباتها، إذ أن معظمها إما يذوب في الماء، أو يفسد بسرعة، مع الإستخدام المتكرر..
لذا فقد راح العلماء يبحثون عن وسيلة أخرى لصباغة الملابس..
حاولوا أولا إستنباط مواد صبغية ثابتة، من مستخلصات طبيعية..
وربما حققوا نجاحات محدودة، في هذا الشأن..
ولكنها لم تكن كافية..
أبداً..
ثم فجأة، ومع تطور هندسة الوراثة، توصل أحد العلماء إلى نتيجة مدهشة، لم تخطر ببال أحد منذ البداية..
لقد بدأ سلسلة من الأبحاث والتجارب، منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين، حول زراعة القطن، وبذرة القطن..
في البداية، كان عمله كله يختصر في تزويد القطن بصفات وراثية جديدة، تتيح له مقاومة الدودة، ودفعها إلى الانصراف عنه، إلى نبات آخر..
ثم ظهرت في القطن بعض بقع ملونة..
وتحول مسار الأبحاث كلها..
وبعد عشر سنوات في العمل الشاق، ومئات التجارب والإختبارات والنتائج، بدأ الأمر يؤتي ثماره..
بدأ القطن ينمو في الحقوق ملوناً..
نعم.. لم تعد هناك حاجة إلى أصباغ كيميائية، أو ألوان صناعية..
فالقطن سينمو بالألوان التي نريدها..
ووفقاً لمتغيرات الموضة..
ففي هذا العام سيزرع الفلاحون قطناً أزرق..
وفي العام التالي برتقالي..
وفيما يليه بنفسجي..



وستصبح حقول القطن نفسها متعة للناظرين، مع إختلاف الألوان من حقل إلى آخر..
وكل هذا بالعلم..
وبالعلم وحده..

وفي عام 1982م، سجلت هيئة الدواء الأمريكية أول عقار طبي، إعتمد على هندسة الوراثة.
وكانت البداية..
فخلال الأعوام العشرين التالية، ظهرت عقاقير أخرى، تعتمد على هندسة الوراثة..
وكان المفترض أن يؤدي هذا إلى إنخفاض سعر الدواء..
إلا أن هذا لم يحدث..
فالتطوير وأبحاثه، كانا يحتاجان إلى تكنولوجيا..
ومعدات..
وإعتمادات..
وأموال سائلة لا حصر لها..
فالعلماء وضعوا نصب أعينهم الإنطلاق إلى مرحلة جديدة..
مرحلة إنتاج كائنات جديدة..
أو بمعنى أدق، مرحلة العبث بالهندسة..
هندسة الوراثة.

× × ×

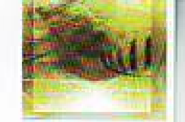
في الأساطير القديمة، تطالعنا كائنات مدهشة، تجعلنا ننبهر بهذا القدر من الخيال، الذي تمتع به الأقدمون..
ففي أساطيرهم نجد (البيجاسوس)، وهو ذلك الجواد الجميل المدهش، ذي الجناحين الكبيرين، والذي خرج من دماء (الميدوزا)، وهي إمرأة بشعة الخلقة، شعرها أفاع قاتلة سامة، ونظرتها تحوّل البشر إلى حجر..
وفي الأسطورة، إستخدم الشاب (برسيوس) درعاً لامعاً مصقولاً، ليعكس وجه (الميدوزا)، فتتحول هي نفسها إلى حجر، وبعدها قطع عنقها، فخرجت دمائها، ليبرز منها ذلك الجواد..
وفي أسطورة أخرى نشاهد كائناً، نصفه بشر، ونصفه جواد..

وفي ثالثة، نجد عرائس بحر قاتلة، تجمع بين البشر والأسماك.. وحتى في أساطيرنا، نجد أبي الهول..
كائن له رأس إنسان، وجسم أسد..
وكلها خيال..
في خيال..
في خيال..
أو كنا نتصوَّر أنها كذلك..
فعلم الوراثة الحديث،
يقول: إن هذا الخيال يمكن أن يتحوَّل إلى حقيقة، في غضون عقدين من الزمان فحسب..
ويا له من عبث!!..
ففي عالم هندسة الوراثة، بدأ العلماء تجاربهم على النباتات، تماماً مثلما فعل (مندل)، ونجحوا في إستنباط أنواع وسلالات جديدة، ونباتات مزدوجة، لم يكن لها وجود في الطبيعة..



الحصان الأسطوري (بيجاسوس) كما وصفته الأساطير الإغريقية بلونه الأبيض و جناحيه اللذان يساعدانه على الطيران .

وفي عام 1986م، تم تسجيل حقوق الإبتكار، لأوَّل نبات مستحدث، أنتجته هندسة الوراثة، وتم ضمه إلى المراجع وموسوعات النبات العلمية..
وبعدها، بدأ العملاء يكشفون سر الجينات..
والعبث بها..
في البداية، أضافوا الجين المسئول عن الحجم الكبير، إلى النباتات الصغيرة، وصفقوا جذلاً، عندما نجحت تجاربهم..
فالفراولة أصبحت في حجم البرتقال..
والطماطم في حجم الرمان..
والخيار تجاوز كل خيال..
ولكنهم أدركوا فيما بعد أن خداع الطبيعة أمر غير وارد..
والنجاح فيه مستحيل..
فالطبيعة تصرّ دوماً على إحداث التوازن..
مهما حاول البشر..
ومهما تفوَّقوا..



أو تصوَّروا هذا..
فبالنسبة للطبيعة، لابد وأن تحصل منك على مقابل، لكل ما تأخذه منها..
فالفراولة أصبحت في حجم البرتقال..
ولكنها فقدت الطعم الشهي..
والرائحة الجذَّابة..
والطماطم فقدت حلاوتها..
والخيار فقد طراوته..
باختصار، لم يعد أي شيء كما كان..
وعلى الرغم من هذا، فالعلماء لم يتعلموا الدرس..
ولم يتوقفوا عن المحاولة..
وهذا عيب العلم..
وميزاته..
لقد واصلوا محاولاتهم، لإنتاج خضروات وفواكه كبيرة الحجم، ولذيذة الطعم، في آن واحد..
وما زالوا يحاولون..
وفي خلال مشوارهم هذا، أنتجوا، عبر هندسة الوراثة، عشرات النباتات الجديدة..
والمحسَّنة..
وبينما نكتب هذه السطور، يسعون هم لإنتاج سلالة نباتية جديدة، تنمو كنبات الطماطم فوق التربة، في حين تمتد جذورها لتنبت ثمرة بطاطس، في النبات نفسه..
وليس من العسير أن نجحوا في هذا..
وفيما يفوقه أيضاً..
عندما يأتى الغد..
وهذا التطوّر، في عالم النبات، يواكبه تطوّر أكثر إثارة، في عالم الحشرات والحيوان..
ففي البداية، وأثناء مرحلة التجارب العشوائية، وتحديد ماهية جينات بعينها، بدأ العلماء تجاربهم على الحشرات..
وعلى الصراصير المنزلية بالتحديد..
ومن خلال عملية قص ولصق الجينات، نجحوا في إستنباط سلالة جديدة منها..
وبكل شغف العلماء، راحوا يدرسون سمات السلالة الجديدة..
كانت أكبر حجماً، وأكثر قدرة على إحتمال التقلبات المناخية..
هذا ما بدا ظاهرياً..
حتى حدثت مصادفة مخيفة..

مصادفة أشبه بأفلام الرعب..
فذات ليلة، قاد سوء الطالع فأراً إلى الصندوق الزجاجي، الذي يضم سلالة الصراصير المنزلية الجديدة..
ولأنه إعتاد تفوّقه، فقد تجاهل تلك الحشرات، التي بدت له مألوفة، عديمة الضرر..
ولكن السلالة الجديدة كانت تختلف...
لقد إنقضت عليه..
وحاصرته..
والتهمته..
نعم.. المصادفة أثبت أن السلالة الجديدة آكلة لحوم..
مفترسة..
ومع حالة الهلع، التي أصابت العلماء، أدركوا مدى خطورة ما أنتجوه، خاصة لو نجح زوج من الصراصير المفترسة في الفرار من المعمل، عبر بالوعة ما..
ستصبح حتماً كارثة..
لذا، تم إتخاذ قرار بإعدام السلالة الجديدة كلها..
بلا رحمة..
أو بمنتهى الحرمة.. بالبشر..
التجربة كانت رهيبة..
ومخيفة..
ومحبطة..
ولكنها لم توقف العلماء..
وواصلوا تجاربهم..
وأخطاءهم..
ويتعلمون منها كل جديد..
وفي المرة التالية، أنتجوا فئران عملاقة..
ثم زواحف مائية..
وأدركوا أنهم قد كسروا الحاجز، وأصبحوا على الطريق الصحيح أخيراً..
ومع نجاحهم، تفجَّرت أحلامهم إلى أقصى حدودها..
حلموا بإنتاج كائنات جديدة..
ومثيرة..
وأسطورية..
ولكن واجهتهم عقبة رئيسية كبرى..
صعوبة المزج بين جينات مختلفة، من كائنات غير متماثلة..
وكانت هذه العقبة تحد من أحلامهم..
وخيالاتهم..



وطموحاتهم..
ولكن العلماء أبداً لا ييئسون..
لذا فقد واصلوا المحاولة بكل الإصرار، حتى تجاوزوا الحاجز، في منتصف تسعينات القرن العشرين..
وهنا بدأت مرحلة جديدة، من لعبة الجينات..
مرحلة أكثر أهمية وخطورة..
بكثير.

× × ×

في عام 1940م، وعندما إشتعلت أوروبا كلها بالحرب العالمية الثانية، وعشق الشعب الألماني (أدولف هتلر)، ورفعه إلى مصاف الآلهة، وضع عالم ألماني مغمور نظرية علمية طبية جديدة، أطلق عليها إسم (الإستنساخ)..
كان هدفه الأوّل، من نظريته تلك، هو البحث عن وسيلة لتخليد الزعيم، أو الفوهلر العظيم، كما كانوا يطلقون على (هتلر) آنذاك، عن طريق صنع عشرات، أو حتى مئات النسخ، من شخصيته المسيطرة..
ولقد بدت تلك النظرية منطقية أيامها..
ولكنها غير قابلة للتنفيذ..
مما سيفعله ذلك العالم، وفقاً لنظريته، هو أن يأخذ خلية منوية، من الفوهلر، ويقوم بزرعها في بويضة بشرية، ثم قتل صفاتها الوراثية، بتعريضها إلى الأشعة فوق البنفسجية..
وداخل البويضة، سيسعى الحيوان المنوي للإنقسام، بعد أن يفشل في إيجاد سمات جينية يتزاوج معها..
وهكذا سينمو جنين جديد، بصفات وراثية منفردة..
صفات الأب وحده..
والأب هنا هو الفوهلر..
(أدولف هتلر)..
وكان من الطبيعي أن تروق الفكرة للزعم النازي..
فكرة إنتاج جيش كامل، يدين له بولاء لا ينفصم..
ولاء المثل..
ومن المؤكد أنه قد حلم بألمانيا كلها هتلر..
نفس الشكل..
والهيئة..
والسمات الجسدية..
والعقلية..
بل ونفس الطموح..



وضع عالم ألماني مغمور نظرية علمية طبية جديدة، أطلق عليها أسم (الإستنساخ) كان هدفه الأوّل، من نظريته تلك، هو البحث عن وسيلة لتخليد الزعيم (هتلر) عن طريق صنع عشرات النسخ منه !

ومع نرجسيته، التي تخلفها الزعامة في المعتاد، أصدر (هتلر) أوامره بتحويل النظرية إلى حقيقة..

وإنطلق الكل لتنفيذ أوامر (هتلر)..

العلماء درسوا الفكرة..

وحسبوها..

وحللوها..

وأثبتوا أنها ممكنة جداً..

ليس عبر خلية منوية، وإنما من خلال أية خلية من خلايا الجسم البشرى، بإستثناء كرات الدم الحمراء..

وسعد (هتلر) جداً بنتائج دراساتهم..

ثم كانت الصدمة..

فالنظرية صحيحة تماماً، وممكنة نظرياً..

وليس علمياً..

التكنولوجيا المتوفرة، لا تكفي لصنع هذا..

ولا حتى لبلوغ بداياته..

وغضب الفوهلر..

وإنعكس غضبه على كل من حوله..

وحتى على قراراته العسكرية..

لذا، كان من الضروري إرضائه، بأي ثمن كان..

وراح العلماء يعيدون دراسة الموقف مرة ثانية..

وثالثة..

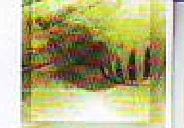
ورابعة..

وعلى الرغم من أن إستحالة تنفيذ الفكرة لم تتغيَّر، إلا أن العلماء أخبروا الفوهلر أنهم قد وجدوا الحل..

وعادت السعادة إلى الفوهلر، وأصدر أوامره مرة أخرى بالتنفيذ..

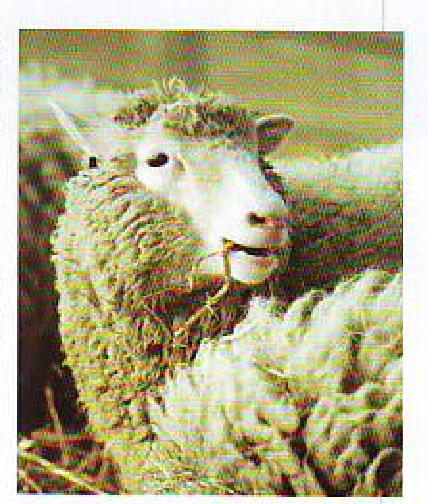
بل ومنح المشروع رعايته، ومبلغاً ضخماً كتمويل مستمر..

ولعام كامل، تابع (هتلر) الأبحاث،والعلماء يخدعونه..



ويخدعونه..
ويخدعونه..
ولكن تمويله، وأبحاثهم، وضعا معاً اللبنة الأولى لأخطر علم، في العصر الحديث..
علم الإستنساخ..
وإحتدم وطيس المعركة..
ونسى (هتلر) أمر الإستنساخ..
وسقط الرايخ الثالث..
وإنهارت (ألمانيا)..
وإنتحر (هتلر) وقادته..
وبقى الإستنساخ كقنبلة موقوتة، غفل عنها العالم لعقود طويلة، قبل أن تتفجَّر فجأة، في تسعينات القرن العشرين...
وبعنف..

× × ×



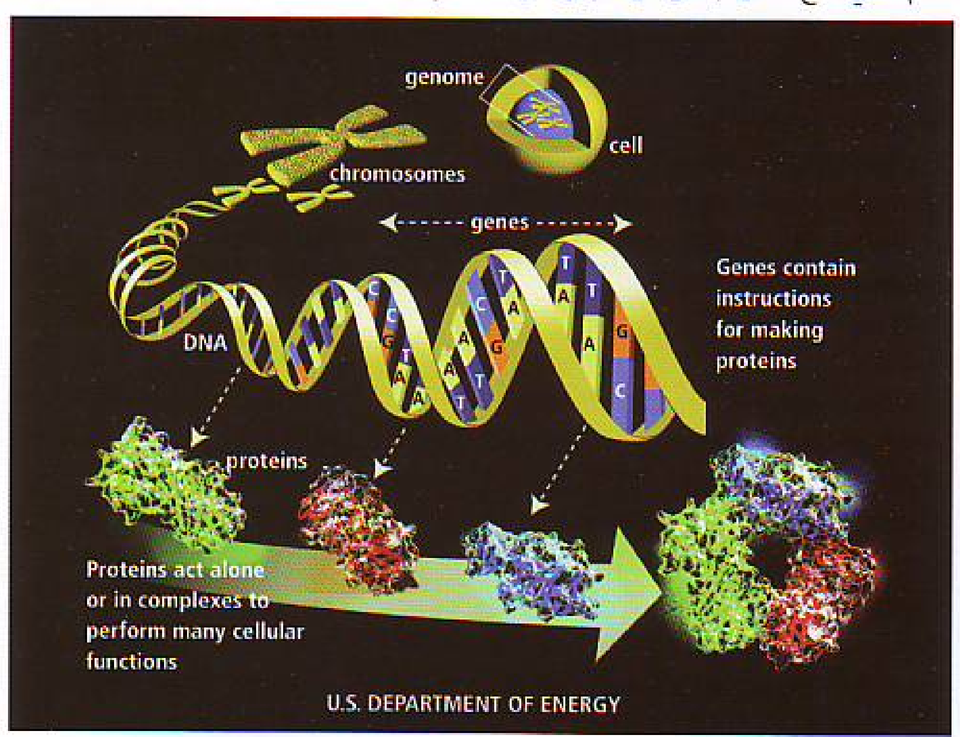
صورة النعجة المثيرة للجدل (دوللي) أول نعجة يتم استنساخها لتسجل نصرًا في عالم الإستنساخ و جدلا لم يتوقف حتى اليوم عن شرعيته .

فجأة، أعلن العلماء أنهم قد توصلوا إلى إستنساخ حيوان ثديي...
وإتسعت عيون العالم كله في إنبهار...
ففي تلك التجربة، تم تخصيب بويضة أنثى حيوان، بخلية منتزعة منها شخصياً، مما أسفر عن إنجاب نسخة طبق الأصل من الأم...
وبدون أب...
وهنا بلغ العبث بالكائنات الحية مبلغه..
وولد علم جديد ..
مثير..
وخطير..
إلى أقصى حد..
والخطورة هنا تكمن في أنه، ولأول مرة في التاريخ، ينشأ كائن حي من أنثى فقط..
وبدون ذكر..
ولقد إحتفت الجمعيات النسائية بهذا الخبر، على نحو مدهش، ومثير للعجب أيضاً، وكأنما ماحدث إنتصار للإناث على الذكور، وإثبات أنهن أصل الحياة، على الرغم من أن الأصل هو آدم وليس حواء!!..

وبغض النظر عن أيهما المنتصر وأيهما المهزوم، فهي هزيمة للجنس البشري كله، وليست إنتصاراً...

إلا للعلم...

العلم الذي منح الأمل لبعض من حرموا من نعمة الإنجاب...



شرح مبسط لنواة الخلية و منها يخرج شريط ال DNA الذي يحمل الجينات الوراثية .

بعض الأمل...

فعمليات الإستنساخ لا تنجح دوماً بنسبة مائة في المائة، بل أن أكثر النتائج تفاؤلاً، تشير إلى أن نسبة نجاحها واحد لكل ثلاثين...

هذا لو نجحت..

ففي كثير من الأحيان، ترف البويضة الإنقسام، بعد تخصيبها بالخلية الحية، ولأسباب غير معروفة..

على الأقل لهم..

ولقد أثبت الإستنساخ أنه من الممكن علميا الاستغناء عن الرجل، إذا ماحتمت الظروف، لإستمرار الجنس البشري...

ولكن العالم سيصبح عندئذ بلا ذكور..

على الإطلاق...

وربما يرضى هذا الجمعيات النسائية...
ربما..
ولكنه يثير هنا عدداً من القضايا الشائكة..
وشديدة التعقيد...
وأول قضية مطروحة، هي علاقة الجنين بالأم التي ستنجبه؟!..
أهو تؤم لها..
أم إبن..
أم ماذا؟!..
كيف يرثها؟!...
وما الإسم الذي سيحمله؟!..
قضية مربكة، تحتاج إلى آراء علمية، وفقهية، وإجتماعية، عجز الكل عن إجابتها، مما دعا كل الدول إلى إصدار دساتير وقوانين طبية خاصة، تمنع استنساخ البشر...
مهما كانت هويتهم..
ومهما كان الثمن..
ولكنها قوانين محكوم عليها بالفشل..
أو هكذا نتصوّر..

× × ×

تصوّر معي طاغية، يحكم دولة ديكتاتورية، بالحديد والنار، وكل من حوله يؤلهه، ويغوّس في نفسه أنه الملهم والمعلم، وأنه لا حياة لبلاده من دونه...
وتصوّر معي أنه يمتلك سلطة مطلقة...
وإمكانيات بلا حدود...
وتكنولوجيا تستنزف كل دخل دولته...
فهل تعتقد أنه سيلتزم بقوانين حظر إستنساخ البشر؟!..
الواقع أن الجواب هو حتماً كلا...
وألف كلا...
إنه سيفعل نفس مافعله هتلر، وسينشئ أكبر وحدة إستنساخ في التاريخ، ليصنع من خلاياه جيشاً كاملاً، يدين له بالولاء...
السؤال الآن هو: هل يمكن أن ينجح في هذا؟!..
من ناحية العلم البيولوجي والتكنولوجيا، لا يوجد مايمكن أن يمنعه من هذا..
ولكن هناك عقبتان كبيرتان أمامه..
الأولى إجتماعية بحتة...

فالإنسان ليس نتاج جيناته وحدها..
إنه نتاج بيئته أيضاً....
وبمعنى أوضح، قد تفلح عملية إستنساخ الجيش بيولوجياً...
ولكن تفشل إجتماعياً...
فالنسائخ التي ستنشأ، ستنمو في بيئة مختلفة تماماً، عن البيئة التي نشأ الأصل فيها...
وهذا يعني أنها ستتعرض لمؤثرات مختلفة...
ومتغيرة...
ومتعددة...
ومن المحتمل جداً، أن تنشأ بسمات وصفات مغايرة للأصل...
أو حتى متعارضة معه..
ثم أن الإنسان، وفقاً للدراسات الإجتماعية، ليس وليد الوراثة والبيئة فقط، وإنما هناك مايعرف أيضاً بالتفاعل مع البيئة...
وكل شخص، حتى ولو تشابهت وتطابق جيناته مع الآخرين، يمر حتما بتجارب وخبرات شخصية، تغير نظام تفاعله مع البيئة المحيطة....
إذن فالجيش، الذي سيستنسخه الديكتاتور، لن يصبح نسخة طبق الأصل منه...
ولن يدين له بالولاء التام كما يتصوّر..
بل قد ينقلب عليه...
وبمنتهى العنف...
وقد يصبح السبب في سقوطه....
وإنهياره...
ومصرعه أيضاً...
وهذا جزاء عادل للعبث بالطبيعة..
وهذه ليست العقبة الوحيدة، بل هناك عقبة أكثر خطورة ..
عقبة بيولوجية،...
ولهذا حديث مستمر.

× × ×

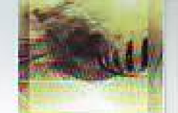
مشكلة المشاكل، في لعبة الإستنساخ هذه، هي أننا نتعامل مع خلايا حية...
خلايا لها طبيعتها...
ونظامها...
وذاكرتها أيضاً..
فالخلية البشرية، تمتلك في مكان ما منها، ذاكرة قوية للغاية...
ليست الخلايا البشرية وحدها، بل كل الخلايا الحية...

فنحن ننتزع الخلية من كائن ما، ونزرعها في بويضة، ويتم تخصيبها..
وتنمو..
وتنمو...
وتصبح كائناً جديداً...
ويولد ذلك الكائن، أياً كانت ماهيته، وخلاياه تحمل ما إكتسبته من خلية الأصل
...
وذاكرتها...
والمشكلة هنا ليست في أن الكائن الجديد سيتذكر كل أو بعض ماكان يعرفه القديم، وإن أثبتت التجارب على الفئران المستنسخة هذا، ولكن المشكلة الأكبر، في أن الخلايا الجديدة ستحمل ذاكرة الخلايا القديمة...
ذاكرتها العمرية..
وبمعنى أكثر وضوحا، فالكائن المستنسخ الجديد سيولد على نحو طبيعي...
ويبدأ في النمو كذلك على نحو طبيعي...
ثم فجأة تتذكر الخلايا عمرها الأصلي...
وهنا يشيخ الكائن الجديد...
ويشيخ...
ويشيخ...
ولو أنه كائن بشري، فربما يعاني من أمراض الشيخوخة في العشرينات؛ لمجرد أن خلية الأصل قد أخذت من رجل في الخمسين!!..
وهذا التدهور يحدث فجأة، ودون مقدمات...
الكائن يبدو في ريعان شبابه اليوم...
ثم يبدأ شيخوخته غداً ...
وعادة ما تتدهور الحالة بسرعة، حتى أن الوفاة قد تحدث في أوائل الثلاثينات...
وبالشيخوخة...
ولقد فوجيء علماء الإستنساخ بهذه الحقيقة المرة، بعدما تصوروا أنهم قد سيطروا على الخلية البشرية، وأمكنهم تطويعها لأمرهم...
وكانوا يستحقون هذا ...
ولكن عيب ومزية العلماء، هي أنهم لا ستسلمون أبداً ...
ولا يعرفون لليأس سبيلاً..
لذا فهم يقاومون...
ويدرسون...
ويطورون...
ويدركون الآن أن العبث بالطبيعة ليس أمراً سهلاً، مهما أوتوا من العلم...
وحتى يتوصلون إلى علاج لذاكرة الخلية، مما قد يعني فتحاً في علم مقاومة

الشيخوخة بشكل عام، فقد بدأوا دراسات جديدة، حول موضوع الإستنساخ نفسه، من منطلق آخر...
فلماذا يسعون لإستنساخ كائن كامل؟!...
لم لا يحاولون إستنساخ مايريدونه منه فقط؟!..
وخاصة في عالم يعاني من نقص الأعضاء، وتطور علم ذراعتها..
لذا، فمع تساؤلهم، بدأوا مشروعاً جديداً، يحتاج إلى حدث آخر ...

× × ×

بعد كل المصاعب، التي واجهها العلماء، في سبيل تطوير علم الإستنساخ، ومع القوانين الصارمة، التي أقرتها معظم الدول، بشأن منع إستنساخ البشر، ولأن فضول العلماء يفوق دوماً كل القوانين والمحاذير، فقد فكر العلماء في وسيلة ما؛ للإلتفاف حول المحظورات، وتطوير معارفهم وقدراتهم....
ولأن تجارة الأعضاء رائجة جداً، في هذه الأيام، فقد واتتهم فكرة جديدة... ومدهشة...
لماذا يحاربون القوانين، لإستنساخ بشرى كامل؟!..
لماذا لا يستنسخون مايحتاجون إليه منه فحسب؟!...
خاصة وأن القانونيين كانوا حائرين للغاية، في توصيف الكائن المستنسخ، ومحاولة معرفة وضعه، وقانونية وجوده، وهل سيعتبر تؤأماً لصاحب الخلية الأصلية، أم إبناً له، أم ماذا ؟!..
حتى مشكلات الميراث والتقسيم التركات، أصبحت تمثل مشكلة، مادمنا نعجز عن توصيف الوريث، وتحديد صلته بالمورث...
الحل يكمن إذن، من وجهة نظرهم، في إستنساخ الأعضاء البشرية، وليس البشر الكاملين...
وبدأت التجارب بالفعل...
في البداية، راحوا يسعون لإستنساخ الأكباد؛ نظراً لما تتمتع به خلاياها، من خاصية النمو، فأخذوا خلية كبدية واحدة، وإستخدموا مستحثاتهم، لدفعها إلى التكاثر، والتضخم، والتحول إلى كبد كامل جديد...
ونجح العلماء...
وإستنسخوا الأكباد....
ولأن الأكباد المستنسخة تحمل نفس السمات والجينات الوراثية للكائن الأصلي، فقد نجحت عمليات زرعها في أصحابها نجاحاً ساحقاً...
وصرخ العلماء بهجة وحبورا...
وبسرعة، إنتقلوا إلى الخطوة التالية....
القلوب...



ففي عالم الأعضاء، تعتبر الأكباد والقلوب البديلة، هي السلع الأكثر طلباً، والأكثر ندرة...
والشخص الذي يحتاج إلى عملية زرع قلب، يضطر للإنتظار سنوات، من الألم والمرض، حتى يتوفر قلب بديل...
أما مع الاستنساخ الجزئي، فالإنتظار لن يدوم طويلاً...
خلية واحدة من قلبه، ستكفي لإستنساخ قلب جديد...
وسليم...
قلب سيتعرفه الجسد بيسر وسهولة، وسيتعامل معه دون مضايقات أو عقبات؛ لأنه بالفعل جزء منه...
جزء مستنسخ...
ولكن القلب ليس كالكبد...
إنه عضو شديد التعقيد..
ذاتي الحركة...
كثير الحجرات...
لذا فتجارب إستنساخ القلوب لم تنجح بعد...
ولم تؤت ثمارها...
ولكن العلماء لا ييئسون، ولا يستسلمون أبداً؛ ولا يعنيهم الوقت، ماداموا يسعون خلف نتائج هامة...
السؤال الوحيد الذي يؤرقهم حقاً هو: هل ستتذكر خلايا الأعضاء المستنسخة تاريخها أيضاً؟!...
لو حدث هذا ستكون كارثة...
وستنهار كل الأحلام مرة أخرى...
أحلام التفوق على الطبيعة، وهزيمة الزمن، والإنتصار على العمر والشيخوخة...
أحلام الإستمرار ...
والإستقرار...
والإستنساخ.

× × ×

ثقب في الزمن..



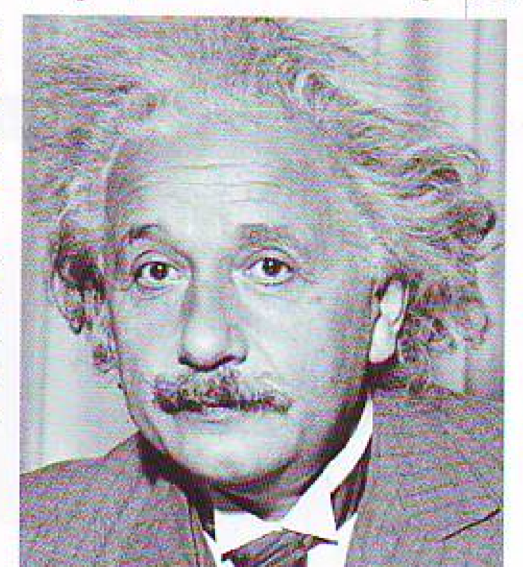


نظرية

قلبت علم الفيزياء رأساً على عقب...

نظرية النسبية...
كانت مجموعة من المعادلات، التي بدأت بنظرة فلسفية، وإنتهت بنظرية مدهشة، حار العلماء أنفسهم في فهمها، وسبر أغوارها، ومناقشتها مع واضعها لعدة أشهر، قبل أن تتسع عيونهم في إعجاب وإنبهار، ويعترفون بأن ذلك الضئيل الصموت، الأشعث الشعر، الذي يبدو وكأنه نسي وجود الحياة نفسها، قد قلب قوانين الكون المعروفة –آنذاك– رأساً على عقب، وأنه قد بدأ عصراً علمياً جديداً، بلا منافس...
وبكل شغف العلماء، راحوا يدرسون نظريته، وينبهرون بها وبمعادلاتها أكثر وأكثر...
وكلما تعمقوا فيها، كان إنبهارهم يتضاعف أكثر..
وأكثر ..
وأكثر..
ومعارفهم تتزايد...
وتتضاعف..
وتتضخم..
وتقوى..
وصفق العلماء لألبرت أينشتاين، وإعتبروه معجزة العصر، وتأكدوا من العديد من معادلاته، ثم توقفوا أمام نقطتين عسيرتين في نظريته...
إنحناء الضوء...
والسفر عبر الزمن...
فالقاعدة الأساسية في علم الفيزياء، في ذلك الحين، كانت تؤكد أن الضوء يسير في خطوط مستقيمة، مهما طال أو إمتد، وأياً كان الوسط الذي يمر به...
ولكن نظرية أينشتاين خالفت هذا...
بل ونسفته نسفاً...
فوفقاً للنظرية، يمكن أن ينحني الضوء، لو مر إلى جوار مصدر إضاءة شديد القوة...
ولتوضيح هذا، أكد أينشتاين أننا لو قمنا برصد مواقع النجوم، أثناء ظهور الشمس، فسنجد إنها ستتغيّر بمقدار حدده في معادلاته، لأن ضوؤها سينحني، مع مروره بالشمس، التي هي أقوى مصدر ضوئي معروف...

العالم الأشهر (ألبرت أينشتين) الذي غير مفاهيم العالم كله بالنظرية النسبية ، تلك النظرية التي أوحتها إليه رواية الأخوة (كرامازوف) للأديب الروسي (ديستوفسكي) .



وكان من العسير التيقن من صحة نظرية أينشتاين ومعادلاته، مع إستحالة رصد مواقع النجوم، في وجود الشمس...
ولكن العلماء وجدوا طريقة لهذا...
ففي أثناء كسوف كلي للشمس، في جنوب أفريقيا، قام فريق من العلماء برصد مواقع النجوم...
وأثناء وجود الشمس...
وكانت أكبر مفاجأة...
لقد أثبت رصدهم أن الضوء ينحني بالفعل، عند مروره بالقرب من الشمس...
وصحت نظرية أينشتاين، وتغيرت مواقع النجوم، وأدركنا كم هو مبهر، أن نقرأ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، قول الله (سبحانه وتعالى)، في سورة (الواقعة)، من كتابه الكريم

فلا أقسم بموقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم

العالم الأمريكي (بول دافيز) الذي حمل الشعلة من الروسي (فاديم شيرنوبروف) ليواصل أبحاث السفر عبر الزمن

وإنبهر العلماء أكثر وأكثر، وأجلّوا أينشتاين، الذي حصل على جائزة نوبل في العلوم، عن نظريته العبقرية...
والتي بقي جزء منها دون تفسير أو تطبيق وإثبات عملي...
السفر عبر الزمن...
فالفكرة مبهرة وجذابة، ومثيرة للخيال إلى أقصى حد، خاصة وأن أينشتاين قد إعتبر الزمن هو البعد الرابع للمادة...
ولأنه بعد، ولأن كل الأبعاد يمكن التحرك فيها أماماً وخلفاً، فوفقاً لنظريته، يمكننا أن نسافر عبر الزمن، إلى المستقبل القريب...
أو البعيد...
أو حتى إلى الماضي السحيق..
ومجرد التفكير في هذا فجّر خيال الأدباء، والعلماء، والفنانين...
وحتى العامة..
وجاء رد الفعل مدهشاً للغاية، عند كل منهم، و...
ولهذا رواية أخرى.

× × ×

أول من طبق فكرة السفر عبر الزمن هم الأدباء كالمعتاد؛ لأن الخيال يبدأ دوماً قبل الواقع، ويمكنه أن ينطلق إلى أبعد الحدود بقفزة واحدة، دون الحاجة إلى سنوات من الدراسة، والتجارب، والجهد، والعذاب...

ولهذا كان (ه.ج.ويلز) أول من سافر عبر الزمن، في روايته الشهيرة (آلة الزمن)، التي تنبأ فيها بما يمكن أن يكون عليه العالم، في المستقبل البعيد...

وفي روايته، إستخدم (ويلز) ما أسماه بآلة الزمن، دون أية تفاصيل علمية دقيقة بالفعل...

وأطلق خيال العلماء بلا حدود...

فمن الناحية العلمية، كانت لديهم نظرية قوية، تؤكد أن السفر عبر الزمن ممكن، وإلى المستقبل أو الماضي، أما من الناحية الفلسفية، فقد كان هذا يزعج العديدين، ويربكهم، ويدفعهم إلى رفض الفكرة بمنتهى العنف، وكأنهم يدافعون عن وجودهم هم، وليس عن مبدأ علمي يتبنونه....

ولكن العلم لا يدحضه إلا العلم...

ولا يوقفه الغضب، أو التعنت، أوحتى الثورة....

لذا، فقد ألقى العلماء كل الإعتراضات خلف ظهورهم، وراحوا يبحثون عن قواعد نظريات السفر عبر الزمن، وعبر ما أطلقوا عليه إسم (الزمكان)، أي عبر الزمان والمكان معاً....

ولم يكن هذا بالأمر السهل أو البسيط..

لقد إستغرق منهم سنوات...

وسنوات...

وسنوات....

وخلال تلك السنوات، تفجّر خيال الأدباء والفنانين، وبلغ مالم يحلم به حتى أعلم العلماء...

لقد سافروا عبر الزمن، إلى الماضي والمستقبل، وعبثوا بالتاريخ، وغيروا وبدلوا الأحداث، ونسبوا إلى البعض فضل ما نحن عليه....

والعلماء يتابعون هذا في صمت...

ودأب...

وإصرار...

وفي بداية التسعينات، حقّقوا أول إنجاز عملي، في هذا المضمار، عندما أطلقوا أليكتروناً واحداً عبر الزمن، ليسجل وصوله إلى الهدف، قبيل إنطلاقه من المصدر، بأجزاء من الثانية...

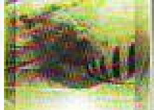
وكانت تلك الأجزاء من الثانية فتحاً ضخماً، في عالم الفيزياء، ليس لأنها مجرد أجزاء من الثانية، ولكن لأنها الدليل العلمي والعملي الأوّل، الذي يثبت أن السفر عبر الزمن ممكن...

وإلى الماضي أيضاً....

وفي العلم، لا يهم كم جزء من الثانية فزت به، بل المهم هو هل يمكنك هذا أم لا....
فمن وجهة نظر العلم، أن الطائرة الأولى قد إرتفعت عن الأرض؛ لتثبت أن الطيران ممكن، وبعدها راحت تتطوّر، وتتطوّر، حتى بلغت سرعتها ثلاثة أضعاف سرعة الصوت، وبلغت إمكاناتها ألف ضعف لما كانت عليه...
المهم إذن هو البداية...
والمبدأ...
ولقد تحققا...
ومع الوقت ستتطوّر أجزاء الثانية هذه إلى ثوان كاملة...
ثم دقائق...
وساعات...
وربما أيام، وأسابيع، وشهور، وسنوات فيما بعد....
ولا تجعل هذا يدهشك، أو يثير إستهجانك أو إستنكارك، فهذا هو العلم....
الإستنساخ بدا لنا يوماً أشبه بخرافة غير قابلة للتصديق، ثم أصبح حقيقة واقعة، تحيط بنا، ونسمع ونقرأ عنها كل يوم...
بل كل لحظة...
ومن يدري؟!... ربما يصبح هذا حال السفر عبر الزمن أيضاً، في يوم قريب...
أو حتى بعيد...
والواقع أن العلم، ومنذ تاريخ إطلاق ذلك الأليكترون اليتيم إلى الماضي، قد تطوّر على نحو مدهش، في مجال السفر عبر الزمن، ووضع عدة نظريات جديدة، ووجد أيضاً عدة سبل جديدة، على الأرض ...
وفي قلب الفضاء..

× × ×

في أفلام الخيال العلم القديمة، كنا نفغر أفواهنا مبهورين، عندما يقرّر قائد سفينة الفضاء الضخمة، نقل أحد أفراد طاقمه إلى مكان آخر، فيوقفه داخل إسطوانة وهمية، ويهبط عليه من أعلاها شعاع ناقل، فيختفي، ليظهر فوراً، في محطة الوصول..
كلنا رأينا هذا..
وكلنا إنبهرنا به..
أما العلماء، فلم يكتفوا بالإنبهار..
لقد درسوا الفكرة، وناقشوها، وطرحوا سؤالهم الشهير، الذي يعتبر دوماً أول الخيط، في طريق التقدم العلمي..
أهذا ممكن؟!..



فما نراه نحن مجرد خيال، يتوقفون هم أمامه طويلاً، ويحاولون ربطه بعدد من النظريات العلمية المعروفة، أو إبتكار نظريات جديدة غير معروفة، يمكن أن تتوافق معه..

ولأنه هناك بعض الدول، التي لا تتردَّد في رصد ميزانيات ضخمة للبحث العلمي، حتى ولو كان حول فكرة ظاهرة الخيال، فقد وجدت مجموعة من العلماء نفسها أمام مشروع بحثي كبير، أطلق عليه إسم (الإنتقال الآني)..

والمصطلح يعني إنتقال الأجسام والأجساد، من مكان إلى آخر، عبر مسافات شاسعة، في التو واللحظة..

أو بمعنى أكثر بساطة، الإنتقال الآن وفوراً، من بقعة إلى أخرى، مهما بلغت المسافة بين البقعتين..

والفكرة تبدو للوهلة الأولى خيالية أكثر من اللازم، لو نظرنا إليها من خلال عالم ثلاثي الأبعاد..

ولكن ماذا عن عالمنا الرباعي الأبعاد؟!

فعلمياً، ووفقاً لنظرية (ألبرت أينشتاين)، التي حصل بسببها على جائزة (نوبل)، عام 1915م، يتكون عالمنا من الأبعاد الثلاثة الأساسية.. الطول، والعرض، والعمق، بالإضافة إلى البعد الرابع، وهو الزمن..

والزمن، كما يقول (أينشتاين)، نسبي تماماً، ويمكننا أن نتحرَّك فيه في كل الإتجاهات، أماماً وخلفاً،

وربما عمقاً أيضاً..

وعبر فكرة الإنتقال الزمكاني العمقي، وجد العلماء أن الإنتقال الآني ليس خيالاً محضاً..

إنه حقيقة علمية..

حقيقة لم يحسمها الزمن بعد..

ومن هنا، بدأ مشروعهم العملاق، في منتصف سبعينات القرن العشرين..

في البداية، حاولوا صنع الجهاز، القادر على تفكيك ذرات أي جسم، ونقلها عبر الهواء، أو عبر وسيط آخر، من نقطة الإنطلاق، إلى نقطة الهبوط..

أياً كانت المسافة بينهما..

وإستغرق هذا سنوات..

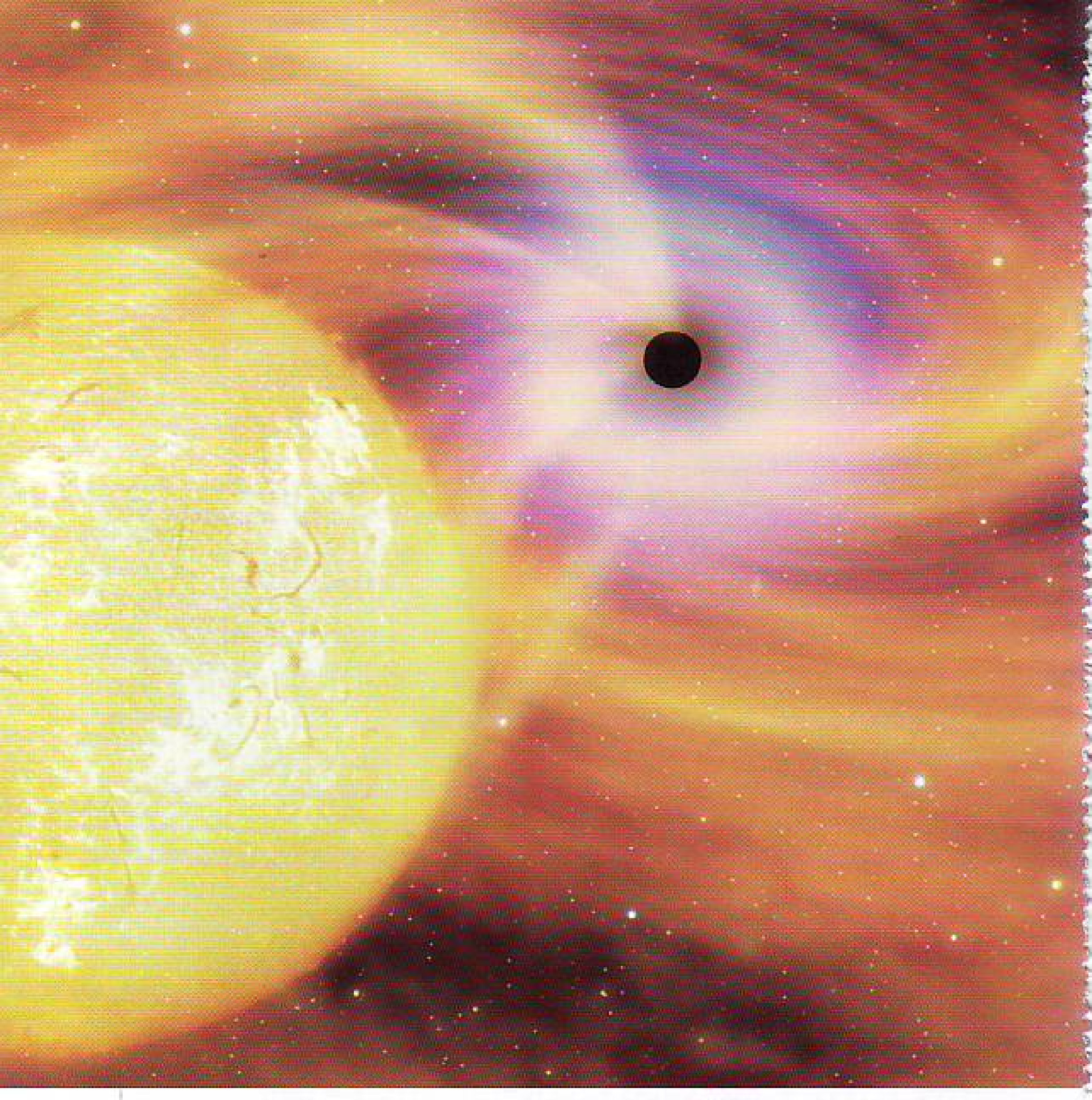
وسنوات..

وسنوات..

وعبر كل تلك السنوات، لم تتوقف تجارب العلماء لحظة واحدة..

وفي النصف الأوَّل من تسعينات القرن العشرين، أي بعد ما يقرب من عشرين عاماً، تمت أول تجربة ناجحة، في مجال الإنتقال الآني..

قطعة صغيرة من النحاس، في حجم عملة بسيطة، نجح العلماء في نقلها، من حجرة إلى أخرى مجاورة، خلال لحظة واحدة، وعبر أنبوب من الألياف



صورة تم تكوينها بالكمبيوتر لثقب أسود مكتمل التكوين ..

الزجاجية، مفرَّغ من الهواء تماماً..
ويومها، تنفس العلماء الصعداء..
فنجاح تلك التجربة البسيطة، كان يعني أن نظرياتهم صحيحة..
وأن الفكرة قابلة للتطبيق..
وكما يحدث دوماً، في تاريخ العلم، ما أن يلتقط العلماء طرف الخيط، حتى تتزايد سرعتهم بحركة تصاعدية ممتدة..
لذا، ففي 1996م، نجحت أول تجربة، في نقل عملة من البرونز، بكل ما عليها من نقوش ورسوم، عبر مبنى كامل، من خلال الأنابيب المجوَّفة، خالية الهواء..



في البداية، كانت العملة تنتقل مشوَّهة، أو معكوسة!!، ولكنها في تلك التجربة، ولأوَّل مرة، إنتقلت سليمة..

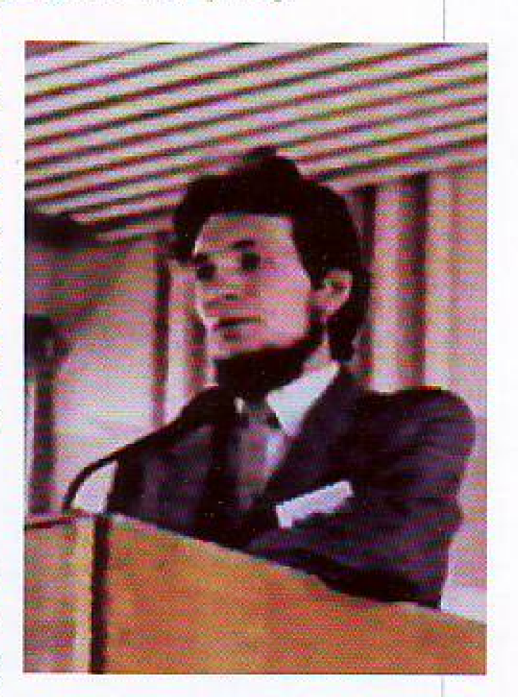
وكان هذا أفضل ما حققه العلماء، في مشروع الإنتقال الآني..

حتى هذه اللحظة..

فكل تطوير لذلك النجاح الأوَّلي، باء بفشل ذريع..

كل محاولات نقل أجسام مركبة، إنتهت بكارثة، إذ أن أجزاء الجسم المنقول تتداخل وتتشابك، أو تتحوَّل إلى كتل معدنية غير متمَيزة..

وهذا أوصل العلماء إلى حقيقة واحدة..



العالم الروسي (فاديم شيرنوبروف)، أول من اخترع آلة زمن حقيقية على أرض الواقع مهتديًا بنظريات (ألبرت أينشتاين)

الإنتقال الآني ناجح فقط، بالنسبة للأجسام البسيطة، المصنوعة من معدن أو خامة واحدة..

نقل الآلات مستحيل!..

ونقل الكائنات الحية غير وارد..

على الأقل في زمننا هذا..

ولكن العلماء لا يتوقفون..

ولا يستسلمون..

فقد كسروا القانون بقانون جديد، ولن يتوقفوا، حتى يضعون قواعد قانونهم الجديد، خاصة وأن أخطاء تجاربهم قد قادتهم إلى كشف أكثر إبهاراً..

أكثر بكثير..

× × ×

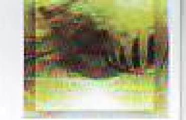
العالم الروسي (شيرنوبروف)، كان أحد أفراد فريق العلماء، الذين بذلوا الكثير من الجهد والعرق، وإستنزفوا عصارة عقولهم؛ للتعامل مع مصطلح (الزمكان)..

و(الزمكان) هذا ليس مصطلحاً جديداً، وإنما يعود عمره إلى مائة سنة، عندما قدم (ألبرت أينشتاين)، ذلك العالم اليهودي الديانة، الألماني المولد، الأمريكي الجنسية، نظريته الشهيرة، المعروفة بإسم النسبية الخاصة..

فلأوَّل مرة أيامها، وعلى عكس كل من سبقوه، أكَّد (أينشتاين) أن الزمن ليس شيئاً مطلقاً، وإنما هو نسبي..

والنسبية هنا، معنى دقيق وعسير ومعقد للغاية، لذا فقد وصفه (أينشتاين) في عبارة إجتماعية أدبية، عندما قال: «إجلس نصف ساعة فقط فوق موقد مشتعل، وإمنحني نفس الفترة مع فتاة حسناء، وانظر كيف سيمر الوقت، على كل منا!!..»..

عبارته كانت طريفة، ومعادلاته صحيحة مركبة، ونظريته صدمة للعالم كله..
ثم بدأت التجارب تثبت صحتها..
وبدأ العلماء ينتبهون إلى الزمن..
وكما يحدث دوماً، بدأ الإبداع اللعبة، براوية (آلة الزمن)، للمبدع (هـ.ج. ويلز)، والتي تحدث فيها عن عالم إخترع آلة، سمحت له بالقفز آلاف السنين في المستقبل، ليشاهد ما تطوَّر إليه العالم، من منظور إجتماعي بحت..
ووفقاً لنظرية النسبية، وعبر معادلاتها المحضة، فهذا شيء يمكن حدوثه (علمياً)، إلا أنه لم يطبق عملياً قط..
بل ولم يحاول مخلوق واحد تطبيقه، خلال عشرات السنين..
حتى جاء ذلك العالم الروسي (شيرنوبروف)..
في البداية، راح (شيرنوبروف) يدرس فكرة الزمن، ويضع ما يعرف بإسم (فلسفة السفر عبر الزمن)، حيث وجد أنه لو نجح مخلوق ما، في التجوّل عبر الزمن، بنفس الصورة التي تحدث في أفلام الخيال العلمي، فسيعني هذا إمتلاكه لقدرات شبه إلهية..
هذا لأن ذلك الشخص (الوهمي)، سيجد نفسه وسط أحداث، تعتبر بالنسبة لزمنه الفعلي مجرد تاريخ..
وستكون لديه القدرة على متابعتها..
والتدخل فيها..
وتغييرها..
وهنا تكمن الخطورة..
بل الكارثة..
ففلسفياً، سينهار التاريخ كله، وتتغيَّر أحداث جسام، ويتوغل أصحاب النفوذ والسطوة عبر الزمن، ليفسدوا كل شيء فيه، وليجندوا تاريخه لحسابهم، ولحساب مصالحهم..
ورغباتهم..
وطموحاتهم..
لذا، فقد توصَّل (شيرنوبروف)، من خلال فلسفته فقط، إلى حقيقة تخالف نظرية النسبية نفسها..
فالسفر إلى زمن مضى.. مستحيل!..
صحيح أن التجارب العملية قد نجحت، منذ عشر سنوات، في إطلاق إليكتروني واحد عبر الزمن، وبسرعة تفوق سرعة الصوت، ثانية واحدة إلى الماضي، حتى أنه قد أصاب هدفه (وفقاً لما سجلته الأجهزة بالغة الدقة)، قبل أن ينطلق فعلاً من مصدره!!..
وبالطبع سيدهشك هذا..
ويزعجك..



وربما يقلقك أيضاً..
ولكنه حدث..
ويحدث..
وسيظل يحدث..
فهكذا الحقائق العلمية، ما أن تجد طريقها، على خريطة الحياة، حتى لا تتراجع مرة ثانية قط..
ربما تتطوَّر..
وتتحسَّن..
وتتجمَّل..
ولكنها تظل حقيقة..
وعلمية..
لذا، فالسفر إلى الماضي، عبر نظرية النسبية، أصبح حقيقة..
ولكن لإليكترون منفرد وحيد..
ولقد درس (شيرنوبروف) هذه التجربة..
وقيَّمها..
وراجعها ألف مرة..
ثم طرحها جانباً..
فوفقاً لفلسفته، ولقوانين (أينشتاين) نفسها، والتي تربط السرعة الفائقة بإنخفاض الحجم وزيادة الكثافة، فالجسم الحي.. أي جسم حي، لا يمكن أن يحتمل السفر عبر الزمن..
أبداً..
لذا فقد بدأ (شيرنوبروف) تجاربه من منظور جديد..
تماماً.

× × ×

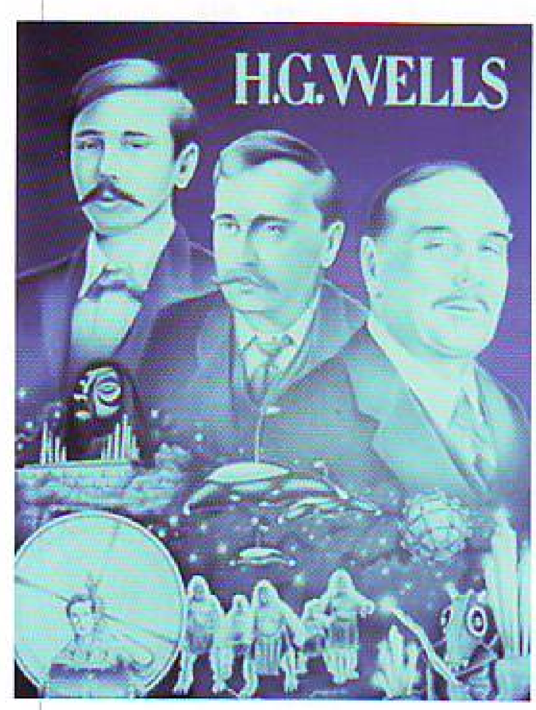
عندما بدأ العالم الروسي (شيرنوبروف) تجاربه حول الزمن، كان يدرك جيداً أنه يعرض مصداقيته كلها للخطر..
صحيح أن العلم قد أثبت قدرة إليكترون منفرد على السفر إلى الماضي..
ولكن هذا لا يكفي..
ولا حتى لبداية نظرية جديدة..
وفي تكتم تام، بدأ (شيرنوبروف) تجاربه، من منظور جديد تماماً..
فقد راح يصنع آلة..
آلة الزمن..
وآلته تلك، كانت تختلف تماماً، عن كل ما رأيناه على شاشات السينما، وما قرأنا

عنه في روايات الخيال العلمي المثيرة..
كانت آلة تتعامل مع الكثافات المختلفة للمادة..
وفي معمل صغير، أنتج (شيرنوبروف) أول آلة، تختلف كثافة مادتها من الداخل، عن كثافتها من الخارج، وتتعامل مع مجالات كهرومغناطيسية قوية مركزة..
وداخل آلته، وضع عدداً من الساعات الذرية..
ثم أدارها..
وإنتظر..
وبعد ساعة واحدة بالضبط، أوقف (شيرنوبروف) آلته، وأخرج تلك الساعات الذرية منها..
ثم صرخ بكل فرحة وسعادة الدنيا..
فقد كان على حق..
الساعات داخل الآلة، تأخَّرت أربعين ثانية، عن الساعات خارجها..
أي أنها قد ربحت أربعين ثانية..
وسافرت عبر الزمن..
إلى المستقبل..
وعلى الرغم من كل ما يمكن أن تثيره أربعون ثانية في نفسك من سخرية، إلا أنها كانت أعظم فارق زمن، في تاريخ العلم كله..
فارق أثبت أن السفر عبر الزمن ممكن..
أو أن التحكُّم في الزمن نفسه ليس مستحيلاً..
وبالنسبة للعلم، كان هذا طرف الخيط فحسب..
فما دام السفر عبر الزمن ممكناً، من الناحية العلمية، فكل المطلوب هو الفارق الزمني..
وتحسينه..
وتطويره..
ونقله إلى مرحلة جديدة..
مرحلة سفر أجسام مركبة، مثل آلات التصوير..
أو أجهزة الرصد..
أو الميكروكمبيوتر..
وبعدها، ربما بربع قرن فقط، ستأتي مرحلة نقل الكائنات الحية إلى المستقبل القريب..
ربما لعام كامل..
أو حتى بضعة أشهر..
المهم أن الحاجز بيننا وبين الزمن قد إنكسر..
وفي مؤتمره العلمي، عام 1997م، أعلن (شيرنوبروف) عن إختراعه لأوَّل آلة زمن..



وقوبل إعلانه هذا بمشاعر متضاربة للغاية..
بالدهشة..
والإنبهار..
والإستنكار..
والتكذيب..
والإتهام أيضاً..
ولكنه عرض نظريته..
ومعادلاته..
وآلته..
وصفق الحاضرون بقوة، وهم يدركون أن العلم يبدأ مرحلة جديدة، وعهداً قد يغيِّر مفاهيم الكون كله..
ولكن الآلة بدت لهم ضخمة للغاية..
والفكرة مثيرة أكثر مما ينبغي..
لذا فقد تدخلت السلطات العسكرية، وقرَّرت الإستيلاء على الفكرة (كالمعتاد)؛ بحجة حماية الأمن القومي..
ولكن (شيرنوبروف) نشر فكرته، ونظرياته، عبر شبكة الإنترنت، في نفس الوقت الذي راح فيه فريق من العلماء يسعى لتطوير آلته الزمنية، عبر تكنولوجيا جديدة للغاية.
و(شيرنوبروف) ليس الوحيد المرتبط بتجارب السفر عبر الزمن، وإنما هناك أيضاً العالم الأمريكي (بول دافيز) (Paul Davis)، الذي توصل إلى وسيلة علمية جديدة، ومختلفة تماماً عن وسيلة (شيرنوبروف)، للسفر عبر الزمن ...
ففي جزء هام من نظريته النسبية، تحدَّث (ألبرت أينشتاين) عن نظرية السفر في الفضاء، بسرعات تقارب سرعة الضوء، لمسافات طويلة، وذكر في معادلاته أنه لو كان لدينا توأم متماثل، وأمكننا أن نرسل أحد التوأمين في رحلة فضائية طويلة، بسرعة تقارب سرعة الضوء، لسنة ضوئية واحدة، فسيعود من رحلته، ليجد أن عمره قد زاد سنة واحدة، في حين أن عمر توأمه قد زاد ثمانية عشر عاماً دفعة واحدة!!..
ونظرية (أينشتاين) هذه سليمة تماماً رياضياً، ويوافق عليها كل علماء الفيزياء، في وقتنا الحالي؛ لأنها تربط عمر الإنسان بالسرعة التي ينطلق بها جسده، بإعتبار أن الزمن داخل مركبة الفضاء، التي سيستخدمها؛ لقطع هذه المسافات الرهيبة، سيظل بالنسبة إليه عادياً، ولا شأن له بالزمن على الأرض، التي تدور حول محورها، وتدور حول شمسها فحسب، في إيقاع هادئ منتظم، منذ ملايين السنين..
نظرية معقَّدة، وعسيرة الفهم والإستيعاب، ولكنها سليمة علمياً تماماً..
وهي نفس النظرية، التي إعتمد عليها (بول دافيز)، في موقعه على شبكة

الإنترنت، والذي يفاجأنا فيه بأن بناء آلة الزمن ممكن..
والواقع أن ما يقوله (دافيز) هو خدعة علمية، إذ أن آلته الزمنية لن يمكن تفعيلها، إلا عندما ينجح العلم في إطلاق سفن الفضاء، بسرعات تقارب سرعة الضوء!!..



مؤسس أدب الخيال العملي الأديب البريطاني (هربرت جورج ويلز) الذي فتحت رواياته (آلة الزمن) و (حرب العوالم) و (الرجل الخفي) آفاقا جديدة في الأدب و في الدراسات العلمية على حد سواء.

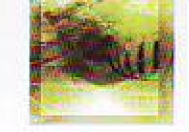
وهذا ما زال مستحيلاً، من الناحية التقنية..
بل والعلمية أيضاً..
إذن فالعالم الوحيد، الذي يستحق التوقف عنده علمياً، هو ذلك الروسي (شيرنوبروف) وحده..
وهو الأمل العلمي الوحيد، في تحقيق السفر عبر الزمن، الذي تنبأ به (هربرت جورج ويلز)، منذ قرن وبضع سنوات..
ولكن العلماء لم يتوقفوا عند فكرة الزمن عند حدود الأرض فقط....
بل إنطلقوا بها أيضاً إلى الفضاء، و...
ولهذا حديث آخر..

× × ×

الفضاء..
مصطلح، يطلق في العقول والأذهان ألف خيال وخيال..
وألف ألف فكرة...
ومنذ الأزل، شغف الإنسان بالفضاء، من قبل حتى أن يعرف ماهيته، إذ بدت له السماء، بنجومها الزاهرة في الليل، تحفة للأبصار والأفئدة، تطلّع إليها، وكتب فيها الأشعار، وتصوّر، بمفهوم وثني، أنها موطن الآلهة، ومستقر الأرباب...
وعبر النجوم، رأى الأقدمون طالعهم، وتابع الأحدثون أبراجهم، في أعمدة الصحف والمجلات...
وسمعنا وقرأنا عن المنجمين...
وتساءلنا مالذي تخفيه لنا النجوم...
ومازلنا نتساءل...
ولكن بمفهوم جديد تماماً...
فمنذ عهد كوبرنيكس، تغيرت نظرة الإنسان للنجوم وللفضاء، وصار أكثر إهتماماً بالبحث عن ماهيتها، وطبيعتها، وأسرارها...
ومع منظار جاليليو، كانت هناك فرصة للتقريب، والتدقيق.....

والملاحظة...
ولأول مرة، أدرك الإنسان أن القمر ليس مضيئاً وفضياً، كما كان يتصوّر، وإنما هو تابع جامد، مليء بالحفر والفوهات، وينعكس عليه ضوء الشمس، فيضفي ذلك الجمال، الذي طالما تغزل فيه الشعراء...
ثم بدأ الإنسان يتطلّع إلى ماهو أبعد من القمر، فرصد الكواكب....
الزهرة...
والمريخ...
والمشتري...
وانبهر بماعلمه أكثر... وأكثر... وأكثر...
وكان من الطبيعي أن يولد علم جديد؛ للتفرقة بين الكوكب والتابع، ورصد النجوم، والكواكب، وحصر التوابع،
وبدأ عصر الفضاء...
وأدرك العلماء أية عظمة تلك، التي كانوا يتطلعون إليها يوماً، لمجرد التأمل ومغازلة الحبيب....
ومع تطوّر علم الفضاء، ومحاولات سبر أغواره، جاء ألبرت أينشتاين فجأة، ليقلب المنضدة على الرؤوس، ويفجّر عبقرية جديدة، وأفكاراً لم تخطر لبشر من قبل...
ولأول مرة، ظهر مصطلح الزمكان، وربط العلم ليس بين الفضاء والمسافة فقط ....
بل والزمن أيضاً...
فوفقاً لنظرية أينشتاين، ينكمش الزمن، كلما زادت السرعة، إقتراباً من سرعة الضوء، التي إعتبرها في نظريته السرعة القصوى، التي لايمكن تجاوزها (وهو ماثبت عدم صحته فيما بعد، مع رصد سرعات تفوق سرعة الصوت، لجسيمات كونية مختلفة) ....
إذن فالسفر بسرعات فائقة في الفضاء، هو سفر عبر الزمن أيضاً !!...
ويالها من حقيقة بسيطة مدهشة...
ولكنها ليست الحقيقة العلمية الوحيدة، في هذا الفضاء الشاسع، المتعلقة بالسفر عبر الزمن....
فهناك، في غياب الفضاء والمجهول، تكمن حقيقة فضائية أخرى، مازالت تمثل تحدياً فائقاً للعلماء، ولغزاً حيّرهم سنوات عديدة...
وطويلة...
ومجهدة...
حقيقة أن الفضاء السرمدي، اللامتناهي، ممتلىء في واقعه وأعماقه بثقوب...
ثقوب سوداء، رهيبة، مخيفة، و....
ولهذا حديث.... قادم.

النجوم لا تبقى إلى الأبد....
فككل شيء في الوجود، تكبر، وتشيخ، و...
وتموت..
ولكن موت النجم ليس كأي موت آخر...
إنه ينكمش...
ويصغر...
ويتضاءل....
وتتضاعف كثافته وجاذبيته، إلى حد رهيب...
حد يصبح معه نقطة جذب هائلة، تفوق كل تصوّر، لكل ما يقع في مجاله، من نجوم وكواكب، ونيازك وكويكبات، وشظايا...
وحتى الضوء نفسه...
ولأن شعاعاً واحداً من الضوء لا يمكنه الإفلات منه، ليصل إلى عيوننا ومراصدنا، فهو يبدو لنا أشبه بثقب أسود شديد السواد، على نحو لا يدانيه، أو حتى يقاربه، أي جسم آخر، في الكون كله...
ومنذ تم رصد أول ثقب كوني أسود، طرح العلماء على أنفسهم سؤالاً محيراً للغاية...
أين يذهب كل مايجذبه ذلك الثقب؟!..
أين تذهب كل تلك المواد، التي يواصل إلتهامها طوال الوقت، في شراهة ونهم ليس لهما من مثيل، دون أن يتوقف، ولو لفمتو ثانية؟!...
وفقاً للنظرية الأساسية، لا شيء يفنى، أو يستحدث من عدم....
إذن فكل مايلتهمه الثقف لا يفنى، وإنما يتحوّل بدوره إلى طاقة...
ولكن الطاقة تنطبق عليها النظرية نفسها، والثقب شديد الجذب، حتى أنه لن يسمح لها بالإفلات، أياً كانت صورتها....
المفترض إذن، مع إختزان الثقب لكل تلك الطاقة، أن يكبر ويتعملق...
ولكنه على العكس، ينكمش..
وينكمش...
وينكمش...
هناك لغز عجيب وراء هذا إذن... لغز تعجز القوانين الفيزيائية العادية عن تفسيره، مما يعني أنه يستلزم البحث عن نظرية جديدة...
وطوال سنوات، طرح العلماء عدداً من النظريات، التي حاولت تفسير لغز الثقوب السوداء...
ومن بينها كانت نظرية الزمكان...
ففي تلك النظرية، إفترض العلماء أن الثقب الأسود هو ثقب بالفعل، عبر الزمان والمكان، أي أننا لو نجحنا في عبوره، بمركبة فضائية مجهزة، على نحو خاص جداً، فسنجد أنفسنا في نقطة أخرى، ربما تبعد آلاف السنوات الضوئية، عن

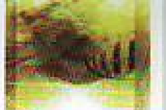


نقطة البداية...
وبقفزة واحدة...
باختصار أبسط، إفترضت النظرية أن الكون أشبه بكرة، بدلاً من أن تقطع مسافة طويلة عبر سطحها، يمكنك عبور ثقب أسود فيها، لتمر عبر مادتها، إلى نقطة وصول بعيدة، مخترقاً الزمان والمكان...
أصحاب هذه النظرية يؤمنون بها بشدة، بل ويرون أنها قد تفسر التساؤل، حول كيفية وصول كائنات عاقلة أخرى إلينا، من مناطق بعيدة جداً في الكون، إذ يرون أنها فقط قد سبقتنا في رسم الخريطة الزمكانية للثقوب السوداء..
ولقد قدم هؤلاء معادلات رياضية مقنعة جداً، تؤيد نظرياتهم، إلا أن الآخرين، وبالذات من يرفضون حتى الآن، إمكانية السفر عبر الزمن عملياً، يعارضون الفكرة كلها، ويؤكدون أنه لا توجد حتى أدلة قاطعة، على وصول أية مخلوقات عاقلة إلينا...
وكل فريق يتشبث برأيه، ويقاتل لإثباته،
ووسط كل هذا، ظهر فريق ثالث، تجاوز حالة الثقوب السوداء، وراح يرصد ظواهر أخرى عجيبة ومدهشة في الكون...
ظواهر قد تشير إلى أن السفر عبر الزمكان أمر ممكن، ليس إلى المستقبل فحسب، ولكن إلى الماضي أيضاً، و...
ولهذا حديث آخر.

× × ×

ظواهر عديدة كشفتها الأبحاث، في أعماق الفضاء...ظواهر قد تبدو أشبه بفيلم مغرق في الخيال، إلى أقصى حد، يمكن أن يقبله عقل...
ولكنها حقائق...
وحقائق علمية.. جداً..
ومن أشهر تلك الظواهر، مايعرف بإسم الأنفاق الدودية...
وتلك ليست أنفاقاً بالمعنى الحرفي، ولكنها مناطق تخلخل فضائي، ذات مسارات متعرجة، أشبه بدودة تسير على سطح غير منتظم، ومن هنا جاء الإسم...
ومنذ رصد العلماء تلك الأنفاق الدودية، إستعادوا شغفهم الشديد، بفكرة السفر عبر الزمن...
هذا لأن معادلاتهم أخبرتهم أن هذا ممكن...
عبر الأنفاق الدودية...
وليس إلى المستقبل فحسب...
ولكن إلى الماضي...
والماضي السحيق.. جداً..

فالأنفاق الدودية تحوي ما يسمى بالطاقة السلبية...
ولتبسيط الأمر أكثر، دعنا نفترض أن نقطة إنعدام الطاقة هي س وأن أي دفق من الطاقة يحتاج إلى إضافة علامة + خلف تلك ل س وبعدها رقم، من 1 إلى مليار مثلاً ....
وكل رقم من هذا، يمثل مقداراً من الطاقة الإيجابية..
أما في حالة الطاقة السلبية، فنحن نستبدل علامة + ، بعلامة - ....
وهنا ستصبح الطاقة التي لدينا سلبية، وليست إيجابية....
وهذا أمر عسير على الفهم والإستيعاب، بالنسبة للشخص العادي، إلا أنه أمر واضح ومفهوم وعلمي تماما، بالنسبة لأي دارس لعلم الفيزياء....
والطاقة السلبية هذه هائلة، ويحتاج توليدها إلى جهد يفوق، بآلاف المرات، مايحتاجه توليد طاقة إيجابية، مما يمنحها هذه السمة المميزة، لنقلنا عبر الزمن إلى الماضي...
ولكن الأمر ليس بالبساطة، التي حملتها هذه الأسطر القليلة...
فكل الأجسام المعروفة، في عالمنا هذا، لا يمكنها إحتمال الطاقة السلبية...
لا البشر، ولا الآلات، ولا حتى أقوى المعادن...
فكل شيء هنا، يحوي طاقة إيجابية...
ولكي يستمر وجوده، لابد وأن يحتفظ بتلك الطاقة الإيجابية...
والمرور عبر نفق من الطاقة السلبية، سيمتص حتماً كل الطاقة الإيجابية في أي جسم...
وهذا يعني فناءه...
وربما تلاشيه...
إلى الأبد...
وللوهلة الأولي، سيبدو هذا وكأننا نؤكد إستحالة عبور الأنفاق الدودية إلى الماضي...
ولكن العلماء يقولون، ويؤكدون أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق...
فمنذ قرن واحد، كان أمام العلم التحدي نفسه، بالنسبة لعبور الغلاف الجوي، والخروج إلى الفضاء....
ولكن العلم تصدى للمشكلة...
وواجهها...
وبحثها...
ثم إنتصر عليها...
والعلماء الآن يدرسون كيفية التغلب على إمتصاص الطاقة، وعبور الأنفاق الدودية...
ويوماً ما سينتصرون...
وسيعبرون...



وربما يسافرون إلى الماضي أيضاً...
وهنا ستنشأ مشكلة جديدة...
مشكلة فلسفة السفر عبر الزمن، و...
ولهذا حديث آخر.

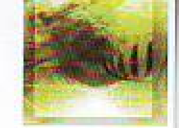
× × ×

دعونا نفترض أن السفر عبر الزمن صار حقيقة، وأمراً معتاداً، مثل السفر عبر الفضاء....
وأننا نستطيع السفر إلى المستقبل...
أو إلى الماضي...
فهل سيبقى عالمنا على ماهو عليه؟!..
من المؤكد أن الإجابة هي لا..
وألف ألف لا....
فلو إمتلكت جهة ما القدرة على السفر عبر الزمن، فسيعني هذا أنها ستمتلك قدرات وصلاحيات، لا حدود لها، ولا حل لمواجهتها...
أبسط مافي الأمر، هو أنها تستطيع السفر إلى المستقبل، لتستورد تكنولوجيته، التي ستفوق تكنولوجية الحاضر بكثير، مما يجعلها مؤهلة للسيطرة على العالم كله، بأسلحة قد لا تخطر، حتى لأبشع كوابيسنا...
ولكن الأخطر من هذا أن يمكنها السفر إلى الماضي...
فلو حدث هذا وتحقّق، ستصبح تلك الجهة قادرة على أن تحكم الكون...
أسلحتنا الحالية، تكفي حتماً لسحق كل الإمبراطوريات القديمة، مهما بلغت قوتها في زمنها...
بل إن ربع قرن فحسب إلى الماضي، تعني الحرب بسلاح الحاضر، ليهزم أعتى الجيوش...
ثم أنه هناك ماهو أخطر...
القدرة على تغيير التاريخ نفسه...
فماذا لو نجح أمريكي واحد، في السفر عبر الزمن، إلى لحظة مولد أدولف هتلر، وقتله في مهده...
من المؤكد أن هذا سوف يغيّر مسار التاريخ كله...
لن تنشب الحرب العالمية الثانية...
ولن يخترع الأمريكيون القنبلة النووية...
ولن...
ولن...
ولن....

إحتمالات لا حصر لها، ولا يمكن حتى أن نحصيها أو متخيلها...
ولكن من المؤكد أن هذا التغيير البسيط، في أوائل القرن العشرين، سينتج عالماً يختلف تماماً عما نعرفه الآن، في القرن الحادي والعشرين...
والعكس أيضاً صحيح...
فلو أن هتلر هو الذي توصّل إلى آلة الزمن أوّلاً، لكنا كلنا، من أقصى العالم إلى أقصاه، نرتدي اليوم شعار النازية، ذي الصليب المعقوف...
ولكان اليهود قد فنوا عن آخرهم...
ولما ولدت إسرائيل...
أرأيت كم إحتمال يمكن أن ينشأ، من العبث بالتاريخ، فقط لأن فرداً واحداً، أمكنه السفر عبر الزمن!!..
ثم أنه هناك أمور عديدة، تحتاج إلى التوقف والتفكير...
ماذا لو سافر شخص ما إلى الماضي، في زمن يعقب لحظة مولده؟!...
هل ستوجد منه عندئذ نسختان؟!...
نسخة قديمة، وأخرى حديثة؟!...
أم أن جسده سيتلاشي، ليفسح المجال للجسد الأساسي؟!...
ثم ماذا لو سافر عبر الزمن، إلى عصر يسبق مولده، ثم مات هناك؟!...
هل ستحمل شهادة وفاته تاريخاً يسبق تاريخ شهادة ميلاده؟!..
يالها من أسئلة محيرة، ومربكة، وتبدو مغرقة في خيال خصب بلا حدود!!...
المشكلة أن العلم لم يعتبر كل هذه التساؤلات مجرد إفراط في الخيال؛ فمادام السفر عبر الزمن ممكناً، فلابد من دراسة كل الإحتمالات المتعلقة به...
تماماً مثل السفر عبر الفضاء..
ومن هنا نشأ ذلك العلم الجديد المثير..
فلسفة السفر عبر الزمن، و...
ولهذا حديث... طويل.

× × ×

دعونا نبدأ حديثنا هذه المرة، بإفتراض أننا قد صنعنا آلة زمن بالفعل، وسنبدأ أولى رحلاتنا إلى الماضي...
ولنبدأ بدراسة كل الإحتمالات، التي يمكن أن تواجهنا....
وأوّل إحتمال، هو أن نصل إلى زمن، يلي مولدنا، ويسبق زمن رحلتنا....
في هذه الحالة، ستصل إلى زمن، نتواجد فيه بالفعل...
فهل يمكن أن نتواجد في هيئتين؟!..
فلسفة السفر عبر الزمن، تقول: إن هذا غير ممكن، وأن المادة الواحدة، لا يمكن أن تتواجد مرتين، في زمن واحد....



إذن، فالسفر إلى زمن ماض، يعقب مولدك، هو أمر مستحيل تماماً....
يمكنك أن تسافر إلى زمن يسبق مولدك فقط....
وحتى هذا، تعترض عليه فلسفة السفر عبر الزمن....
فإمكانية السفر إلى الماضي، تعني القدرة على تغيير الأحداث والتاريخ، مما يعني تغيير كل مادرسناه وعشناه..
وقد يبدو هذا غير ممكن ولكن بعض فلاسفة السفر عبر الزمن، يقولون إننا لا نعرف عن عالمنا وتاريخنا، إلا ماعهدناه، فلو كان أحدهم قد سافر إلى الماضي، وغيّر التاريخ بالفعل، فمن المستحيل أن نعلم هذا، لأننا سنحيا ذلك التغيير لحظة بلحظة، دون أن يكون لدينا مانقارنه به، لنعلم ما إذا كان هناك تغيير أم لا!!...
فكرة معقدة...
وكذلك هي الفلسفة...
فلسفة السفر عبر الزمن....
وفي ذلك العلم، تتركز الفرضيات في معظمها، على فكرة السفر إلى الماضي، إذ أن السفر إلى المستقبل لا يمثل العقبات نفسها، التي يعرفها السفر إلى الماضي....
وحتى في علم الفيزياء نفسه، ،جد أن السفر إلى الماضي، يحتاج إلى طاقة سلبية هائلة، تقل كثيراً عما يحتاج إليه السفر إلى المستقبل....
والعودة من رحلة إلى المستقبل، ستعاني المشكلة نفسها....
وفي أحد إتجاهات فلسفة السفر عبر الزمن، يرى فريق من العلماء، أننا يمكن أن نرسل شخصاً إلى المستقبل، ولكن من العسير، إن لم يكن من المستحيل أن نستعيده....
ومن هنا تأتي ناحية أخرى، من نواحي فلسفة الزمن....
فلأن السفر إلى الماضي يبدو عسيراً ومعقداً، ولكنه مقبول من الناحية العلمية النظرية، في الوقت ذاته، إفترض العلماء حالة خاصة، وجدوا فيها الحل العملي والمنطقي، لهذا لتناقض العلمي....
فالعلم سينجح يوماً ما، في إرسال شخص ما إلى الماضي.....
ولكن كمشاهد، وليس كمشارك....
سيمكنه إذن أن يرصد ماحدث في الماضي....
ودراسته....
وربما تصويره أيضاً....
ولكن ليس المشاركة فيه.....
سيكون في الماضي شخصاً غير منظور...
أو ملموس....
أو محسوس....

أو ربما يبدو أشبه بالشبح، بالنسبة لمن يحيا وينتمي إلى زمن محطة الوصول.....

وربما كان هذا تفسيراً لمشاهدات الأشباح، في المناطق المهجورة، والتي ستعتبر بالطبع أفضل محطة هبوط، لمسافر عبر الزمن؛ نظراً لما تمثله من خصوصية وإنعزال...

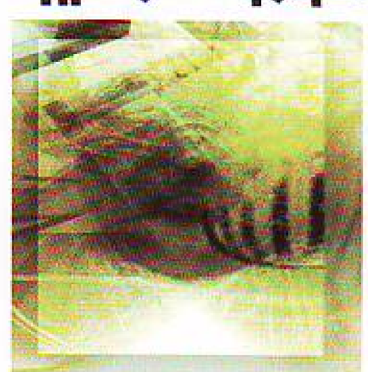
ربما، وربما، وربما....

ألف إحتمال وإحتمال، وكلها فلسفية، وعلمية، وتمثل ثقباً محيّراً في العلم...

والعقل...

والزمن.

التجربة الرهيبة..





كل شئ كان يبدو هادئاً، في ذلك الصباح المشرق، في صيف عام 1954م، عندما أوقف (جون كاربنتر)، الصحفي في جريدة محلية صغيرة في (بوسطن) سيارته، أمام مقهى شعبي بسيط، على مشارف ولاية (نيو جيرسي) الأمريكية؛ ليتناول قدحاً من القهوة، قبل أن يكمل رحلته الطويلة؛ لحضور حفل زفاف شقيقه الوحيد (ألبرت) في مدينة (دوفر)..

وداخل المقهى، كان هناك ثلاثة من كبار السن، يتناولون إفطارهم في هدوء، ويتبادلون أحاديثاً هامسة، وكأنهم يخشون أن يرتفع صوتهم، فيُحطِّم ذلك الصمت الساكن، الذي يلف المكان كله..

وبصوت خافت، صنعه إحساسه بالمكان، طلب (جون) قدح قهوة بدون سكر، و.. وفجأة، إقتحم ذلك الرجل المكان..

رجل تجاوز الأربعين من عمره بعام أو عامين على الأكثر، ويوحي بنيانه بأنه كان يمارس يوماً عملاً شاقاً منتظماً، يحتاج إلى قوة بدنية عالية، في حين يمنحه شعره، الذي إمتزج سواده ببياضه، مظهراً أقرب إلى الوسامة المعتدلة، التي كان من الممكن أن يتمتع بها وجهه كله، لولا نظراته الزائغة، ولهجته الجادة إلى حد ما، وهو يهتف بصوت مرتفع، بدا وكأنه قد شقَّ السكون والصمت في قسوة:

- من صاحب تلك السيارة الصغيرة في الخارج؟!

كان من الواضح أن كل الحاضرين يعرفونه جيِّداً، فقد أداروا أبصارهم إليه لحظة في إشفاق، ثم لم يلبث كل منهم أن عاد إلى ما يشغله، وكأنهم لم يسمعوا حتى ما هتف به ذلك القادم..

أما (جون)، فقد إنتفض جسده مع الهتاف المباغت، الذي أفسد ما شعر به من إسترخاء في المكان، فاستدار إلى صاحبه، وهمَّ بإبلاغه أنه صاحب السيارة الصغيرة في الخارج، وأن المكان متسع، بحيث لا يمكن أن يتصوَّر أن سيارته هذه، يمكن أن تسبب لأي مخلوق أية مشكلة، من أي نوع.. ولكنه لم يكن قد نطق بحرف واحد بعد، عندما إتجه الرجل نحوه مباشرة، ولوَّح بسبَّابته في وجهه، هاتفاً:

- أنت صحفي.. أليس كذلك؟!

إزدرد (جون) لعباه، وهو يجيبه:

- بلى.. هل من خدمة يمكنني أنه...

قاطعه الرجل، قبل أن يتم سؤاله:

- إنك تعتقد أنني مجنون.. أليس كذلك؟!

لم يدر (جون) بم يمكن أن يجيب سؤالاً كهذا، وشعر بحرج شديد في أعماقه، وهو يتطلَّع إلى الرجل، مغمغماً:

- الواقع أن..

مرة أخرى، قاطعه الرجل، وهو يميل نحوه، قائلاً في توتر بالغ:

- هذا ما يريدونه بالضبط.. أن نبدو كالمجانين.. أن يظن الكل أننا فاقدو

العقول.. أتعلم لماذا؟!
لم يفهم (جون) من هؤلاء، ولا ما الذي يريدونه، إلا أنه تمتم في خفوت، وهو يتطلّع إلى الرجل مباشرة:
- لماذا؟!
أشار الرجل إلى رأسه، وهو يميل نحوه أكثر، قائلاً بلهجة عجيبة:
- حتى لا يصدقنا أحد.
تضاعفت حيرة (جون)، وهو يتطلّع إلى وجه الرجل، الذي إعتدل بحركة واحدة، وهزّ رأسه، مستطرداً في أسى شديد:
- ولقد نجحوا في هذا.. لم يصدقنا أحد.. لقد عشت التجربة بنفسي، ورأيت ما يمكن أن يصيب أكثر الناس عقلاً بالجنون، ولا أحد يصدقني.
بدا الضير والتبرُّم، على وجه صاحب المقهى، وهو يقول في شيء من الخشونة والغلظة:
- عد إلى منزلك يا (فيليب).. الوقت ما زال مبكراً على ما تفعله.
لوّح (فيليب) هذا بذراعه كلها، صائحاً:
- الوقت ما زال مبكراً؟!.. أي قول هذا يا رجل.. أتظنني مخموراً؟!.. إنني لم أتناول قطرة واحدة من الخمر هذا الصباح، ولكن الصحافة ينبغي أن تعرف الحقيقة.. كل الحقيقة.
جذبت العبارة إنتباه (جون) بشدة، وخاصة عندما حملت الكلمتين، اللتين تعنيان عنده كل شيء..
الصحافة.. والحقيقة..
وفي حدة واضحة، كرّر صاحب المقهى:
- عد إلى منزلك يا (فيليب).
ولكن (جون) أشار إليه بالهدوء، وهو يسأل الرجل في اهتمام:
- أية حقيقة يا سيّد (فيليب)؟!
أجابه الرجل في سرعة:
- (دوران).. إسمي (فيليب دوران) خاطبني بإسم السيّد (دوران)..
سأله (جون) مرة أخرى، في إهتمام أكثر:
- فليكن.. ما الحقيقة التي تعنيها يا سيّد (دوران)؟!
التقط (فيليب) نفساً عميقاً، قبل أن يميل نحوه، قائلاً بلهجة خاصة، توحي بأهمية وخطورة الأمر:
- حقيقة السفينة (DE-173)..
وبح صوته مع إنفعاله الجارف، وهو يميل أكثر، مكملاً:
- لقد رأيتها تختفي أمام عيني.. بكل ما عليها، ومن عليها.
لم يفهم (جون) ما يعنيه هذا بالضبط، ولكنه تمتم:
- تختفي؟!.. أتقصد تغرق؟!

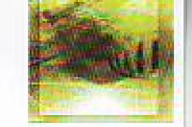


هزَّ (فيليب) رأسه في قوة، وهو يلوِّح بذراته، هاتفاً:
- لا.. لم تغرق.. إختفت.. تلاشت.. أحاط بها بخار رمادي خفيف، ثم إختفت..
وارتفع صوته بغتة، كما لو أن نوبة من الجنون قد أصابته، وهو يتابع:
- تماماً مثل فيلم (الرجل الخفي).. هل تذكره؟!
إتسعت عينا (جون) عن آخرهما، وهو يحدِّق في وجه (فيليب)، في حين صاح صاحب المقهى في غضب:
- (فيليب).. لقد حذَّرتك من القدوم إلى هنا، وترديد تلك الخزعبلات.. هيا.. إنصرف.. عد إلى منزلك، وإلا..
صاح (فيليب) في ثورة:
- ليست خزعبلات.. لقد رأيتها بنفسي.
إختطف صاحب المقهى بندقيته، وصوَّب فوهتها إلى (فيليب)، صائحاً في خشونة شديدة قاسية:
- عد إلى منزلك.
مطَّ (فيليب) شفتيه في يأس، وهزَّ رأسه مستسلماً، ثم أدار وجهه إلى (جون)، وكرَّر في إصرار:
- لقد رأيتها تختفي.
ثم إستدار، وغادر المكان بخطوات متثاقلة مرهقة، جعلته يبدو وكأنه يفوق عمره الحقيقي بثلاثين عاماً على الأقل، في حين أعاد صاحب المقهى بندقيته إلى موضعها، وهو يقول في غلظة:
- لا تلقي بالاً لحديثه هذا.. إنه مجنون بالفعل.. كان مجنداً في مشاة البحرية، خلال الحرب العالمية الثانية، وخرج منها عام 1944م، بسبب جنون صنعه الخوف، وقضى ما يقرب من ثماني سنوات، في مصحة للأمراض النفسية والعصبية، ومنذ سمحوا له بالخروج منها، وهو يردِّد هذه السخافات.
تألَّقت عينا (جون)، على نحو أدهش صاحب المقهى نفسه، وهو يسأله في لهفة شديدة:
- كان أحد جنود مشاة البحرية؟!.. قل لي يا رجل: هل تعلم أين كانت وحدته بالضبط؟!
رمقه صاحب المقهى بنظرة حذرة، وهو يُجيب:
- في (فيلادلفيا)، حسبما أذكر.
وهنا، تضاعف تألُّق عيني (جون)، وهو يهتف:
- (فيلادلفيا).. آه.. كنت أتوقَّع هذا.
ثم إندفع خارج المقهى، في محاولة للحاق بالرجل، وهو يهتف:
- سيِّد (دوران).. إنتظرني.. أريد أن أتحدَّث إليك.. صحفياً.
وإتسعت عيون الجميع في دهشة مستنكرة، وقد بدا لهم لحظتها أن (جون) هو المجنون الحقيقي في هذا الأمر..

ولم يخطر ببال أحدهم لحظة واحدة، أن (جون كاربنتر) قد وضع يده، في تلك اللحظة التاريخية، على طرف الخيط، الذي سيقوده إلى كشف أخطر تجربة بحرية عسكرية، أجرتها الولايات المتحدة الأمريكية، في تاريخها كله..
تجربة (فيلادلفيا)..
الرهيبة.

× × ×

منذ وضع نظريته النسبية، عام 1905م، سجَّل (ألبرت أينشتاين) إسمه، في تاريخ العلم الحديث، كواحد من أكثر العلماء عبقرية وجرأة، خاصة وأن نظريته المدهشة قد صنعت منعطفاً هائلاً في مسار العلم الفيزيائي كله..
ولأن طبيعة العلماء تدفعهم دوماً للبحث والدراسة، مهما حققوا من نتائج، ومن نجاحات، فقد إنشغل العالم الفذ، منذ أوائل عام 1916م، في دراسة ما أطلق عليه إسم (نظرية الحقل الموحَّد)..
ففي ذلك الحين، راودت (أينشتاين) فكرة ألا تكون الجاذبية الأرضية قوة على الإطلاق، بل مجرَّد خاصية من خواص ما أسماه (الزمكان)، أو إرتباط طاقة الزمن بالمكان..
وتمادى (أينشتاين) في بحثه هذا، إلى درجة قوله: بأن ما نطلق عليه إسم المادة، ليس أكثر من منطقة، حدث فيها تركيز بالغ القوة، لطاقة ذلك الحقل الموحَّد، بحيث صارت ملموسة ومحسوسة..
بإختصار، أراد صاحب النظرية النسبية أن يثبت، أن المادة هي صورة من صور الطاقة، وليس العكس..
وعلى الرغم مما يتمتَّع به (ألبرت أينشتاين)، من مصداقية وإحترام، في الأوساط العلمية والفيزيائية، إلا أن نظريته الجديدة هذه قوبلت بشيء من التحفُّظ والحذر، بإعتبار أن كل قواعد العلم تؤكد أن المادة والطاقة يتواجدان جنباً إلى جنب في الحياة، وأن المادة يمكن أن تتحوَّل إلى طاقة، بالإحتراق أو التبخُّر مثلاً، في حين تقول نظرية (أينشتاين) الجديدة أن كل ما يحدث هو أن الطاقة تعود إلى حالتها الأولى فحسب، عندما تتحلَّل في صورتها المادية..
وعلى الرغم من الإعتراضات العديدة، واصل (أينشتاين) العمل في نظريته هذه، وفي محاولاته لإثبات أن الجاذبية ليست قوة في حد ذاتها، وإنما هي تأثير من تأثيرات الإندماج، أو التناغم، بين عدة قوى أخرى، على رأسها المجالات الكهرومغناطيسية الأرضية..
وفي عام 1927م، بدأ (أينشتاين) يمزج نظريته هذه، مع نظرية تبادل الطاقة، التي تقول: إن كل نوع من الطاقة يمكن أن ينشأ من نوع آخر منها، تماماً كما يمكن توليد الكهرباء بواسطة مغناطيس، في المولدات الكهربية العادية، في نفس



الوقت الذي يمكن فيه توليد المغناطيسية من الكهرباء، كما نجد في المغناطيس الكهربي..
وهنا، وضع العالم الفيزيائي العبقري يده، على حقائق (نظرية الحق الموحَّد).. وهذا الحقل هو ما ينشأ من مزج الطاقة الكهربية بالمجال المغناطيسي للأرض، والجاذبية الأرضية، والأشعة الكونية والنووية معاً..
وطوال عمره، الذي تجاوز السادسة والسبعين، ظلَّ (أينشتاين) وحده في هذا الملعب، يسعى لإثبات (نظرية الحقل الموحَّد)، في حين يصرّ باقي العلماء على أنه يلاحق هدفاً وهمياً، في محاولة عابثة، لإيجاد قواعد لنظام الفوضى (على حد قولهم)..
ولكن هناك بعض الأدلة، التي تشير إلى أن (أينشتاين) قد أجرى بالفعل تجربة عملية، على تأثير الحق الموحَّد هذا..
وأنها كانت تجربة رهيبة..
إلى أقصى حد..
ففي (نيوجيرسي)، عام 1954م، وعندما لحق الصحفي (جون كاربنتر) بذلك الرجل (فيليب دوران)، الذي يتصوَّره سكان بلدته مجنوناً، وجمعتهما جلسة واحدة هادئة، قال (فيليب):
– كان هذا في أكتوبر 1943م، عندما أخبرونا أنهم سيجرون تجربة خاصة جداً، على سلاح جديد، لو نجح، فسيؤدّي إلى سحق الأسطولين، الألماني والياباني معاً، بأقل خسائر ممكنة.. وفي ذلك اليوم، إجتمع كبار القادة في (فيلادلفيا).. في القاعدة البحرية هناك، وجاء بعض المدنيين، أحدهم كان طويل الشعر أشيبه، صاحب شارب كث، أثار سخرية البحارة، وكان من الواضح أنهم يولونه جميعاً إهتماماً بالغاً، وهو يشرف على تركيب بعض الأجهزة، التي لم أر مثلها قط، ثم جاءت السفينة (DE-117).
راح (فيليب) يلهث على نحو عجيب، من فرط الإنفعال، عندما بلغ هذه النقطة، فناوله (جون) قدحاً من الماء، وهو يسأله في إهتمام:
– هل تعرف إسم ذلك المدني طويل الشعر؟!
هزَّ (فيليب) رأسه نفياً، وهو يجرع قدح الماء، ثم أجاب:
– أظنني رأيته في مكان ما، ولكنني لست أذكر أين بالضبط؟!
أومأ (جون) برأسه متفهماً، وسأله:
– ماذا حدث، بعد قدوم السفينة (DE-117)؟!
تنهَّد (فيليب) في عمق، قائلاً، وقد عاوده ذلك اللهاث الإنفعالي:
– كانت هناك سفينتان أخريان، على جانبي (DE-117)، وعلى متنهما تلك الأجهزة العجيبة، ولقد راحتا تبثان طاقة ما، نحو السفينة.. في البداية، بدا الأمر أشبه بأزيز ينتشر في الهواء، ثم تحوَّل إلى طنين قوي، وبعدها أصبح إرتجاجاً عنيفاً، جعلني أغلق عيني في قوة، ورأسي يكاد ينفجر، وعندما

فتحتهما ثانية، كان هناك ضباب رمادي خفيف، يحيط بالسفينة (DE-117)، ثم لم يلبث ذلك الضباب أن أصبح شفافاً، وإختفت داخله السفينة تماماً، حتى لم يعد يظهر سوى أثرها على سطح الماء.

إتسعت عيناه، وكأنما يستعيد ذكرى تلك اللحظات الرهيبة، وهو يلوِّح بكفيه في الهواء، متابعاً في إنفعال:

- كنت أسمع صراخاً رهيباً، ينبعث من الفراغ، الذي تركته السفينة خلفها، وكأنما يعاني بحارتها عذاباً يفوق إحتمال البشر، ولكن الكل أكَّدوا أنهم لا يسمعون شيئاً، وأنني أتوهم فحسب، حتى عادت السفينة للظهور، وتلاشت تلك السحابة الرمادية، وعرفنا ما حدث.

كان الهلع محفوراً على ملامحه، وهو ينطق الجملة الأخيرة، مما دعى (جون) إلى أن يسأله في لهفة:

- وماذا حدث؟!

إتسعت عينا الرجل أكثر، وهو يلوِّح بذراعيه كلها، مجيباً:

- أمور رهيبة.. رهيبة إلى حد لا يمكن وصفه.

ثم مال نحوه، مضيفاً في إرتياع:

- الرجال أصيبوا بصدمة هائلة.. بعضهم شعر بآلام مفزعة، في كل خلية من جسده، والبعض الآخر شاهد أشباحاً، والبعض الثالث فوجيء بمخلوقات عجيبة تهاجم.. المهم أنهم عانوا جميعاً من عذاب لا مثيل له، خلال الدقائق القليلة، التي إختفوا فيها، مع (DE-117)..

إتسعت عينا (جون) عن آخرهما، وهو يُحدِّق في وجه (فيليب)، الذي شحب حتى نافس وجوه الموتى، من هول ما تستعيده ذاكرته..

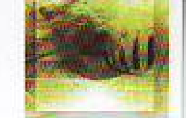
ولم تكن هذه أوَّل مرة، يسمع فيها الصحف (جون كاربنتر) بأمر تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة هذه..

ففي عام 1953م، التقى بضابط سابق من البحرية، همس في أذنه بأنه قد سمع، من بعض القادة القدامى، أن تجربة علمية مدهشة قد أجريت، في منطقة أمنية خاصة، في ساحة البحرية في (فيلادلفيا)، لإخفاء مدمرة كاملة، كوسيلة لإبتكار سلاح سري خفي، قادر على مباغتة الأسطول الياباني، في عرض المحيط الهادئ..

ومنذ ذلك الحين، ترامى إلى مسامعه الكثير من الأحاديث، حول التجربة الرهيبة، ولكنها كلها لم تحمل لمحة تأكيد واحدة، مما جعله يتجاهل الأمر برمته، ولا يوليه الاهتمام الكافي، بإعتبار أن كل ما يسمعه مجرَّد شائعات، أو أمور أسيء فهم مدلولاتها، كما يحدث في كثير من الأحيان..

حتى التقى بذلك الرجل (فيليب دوران)..

فعلى الرغم من أن الكل يعتبر (فيليب) هذا مجنوناً، إلا أن كونه أحد مشاة البحرية، خلال الحرب العالمية الثانية، في منطقة (فيلادلفيا) بالذات، كان يمنح



حديثه شيئاً من المنطقية..

ثم أنه كان أوَّل شاهد عيان على ما حدث..

وبحركة مفاجئة، هبَّ (جون) من مقعده، وإندفع نحو كومة مهملة من الصحف، والتقط من بينها صحيفة قديمة، وضعها أمام (فيليب)، وهو يشير إلى صورة في واجهتها، متسائلاً:

- هل يمكنك أن تجد ذلك الأشيب طويل الشعر، كث الشارب هنا؟!

ألقى (فيليب) نظرة ممعنة على الصورة، قبل أن يشير إلى أحد الأفراد فيها، وهو يُجيب في ثقة وحزم:

- إنه هذا الرجل.

وتألَّقت عينا (جون كاربنتر) في شدة..

فالرجل الذي تعرَّفه (فيليب) في الصورة، بإعتباره ذلك الذي كان يشرف على الأجهزة، في تجربة (فيلادلفيا)، لم يكن سوى (أينشتاين)..

(ألبرت أينشتاين).. شخصياً.

× × ×

على الرغم من أن الصحفي (جون كاربنتر) قد حصل على قصة مدهشة، حول تلك التجربة الرهيبة، التي قامت بها البحرية الأمريكية في (فيلادلفيا)، في أكتوبر 1943م، لإخفاء السفينة الحربية (DE-173)، والتي تسبَّبت في كارثة بشعة، لكل من كان على ظهر السفينة، إلا أنه كان يدرك جيِّداً إستحالة نشر القصة، خاصة وأن الشاهد الوحيد، الذي روى ما حدث، يعتبر -من الناحية القانونية- مجنوناً..

ولقد حار (جون) طويلاً، في إيجاد حل لهذه المشكلة، قبل أن يتفتَّق ذهنه عن حل جيِّد..

ففي الصفحة الثالثة، من جريدته المحلية، وأسفل أخبار الحوادث المحدودة، روى (جون) كل ما حدث، أثناء رحلته إلى (دوفر)؛ لحضور حفل زفاف شقيقه (ألبرت)..

وبأدق التفاصيل..

ثم انتظر..

كان كل ما يأمله، هو أن تُجري البحرية الأمريكية إتصالاً به، لتنفي القصة تماماً..

ولكن هذا لم يحدث أبداً..

لقد تجاهلت البحرية الأمريكية الموقف تماماً، وكأنه لم يكن، ولم تحاول النفي أو التكذيب، أو حتى الإستنكار، بل تصرَّفت كما ينبغي أن تفعل، لو أن هذه مجرَّد ترهات مخبول..

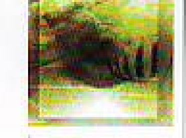
ومن المؤكَّد أن هذا التجاهل كان مدروساً بمنتهى الدقة، من قبل البحرية الأمريكية، إذ أن التجاهل التام كفيل بإنهاء الموقف كله، في حين أن أي رد فعل إيجابي آخر، مهما كان هدفه، سيمنح (جون) فرصة الرد، والتعليق، وربما التمادي أيضاً، وصنع قضية ترغب القيادة كلها في إغلاق كل أبوابها إلى الأبد..
والواقع أن هذا قد أغضب (جون) بشدة..
أغضبه؛ لأنه يفسد خطته كلها، وينسفها من أساسها؛ فمن غير المنطقي أن يواصل نشر أية مقالات، حول الأمر نفسه، دون ردود أفعال واضحة من جهة ما، خاصة وأن معظم من قرأ القصة لم يولها الكثير من الإهتمام، بإعتبار أن راويها مجنون، وأن القصة نفسها عسيرة التصديق..
وبدأ (جون) يشعر باليأس، وفكَّر في تجاهل الأمر كله، ونسيان ما سمعه من (فيليب دوران)، و...
وفجأة، وصل ذلك الخطاب..
خطاب يحمل توقيع (باتريك ماسي)، المتخصِّص، والباحث في مجال الكهرباء، والذي قال فيه، بالحرف الواحد:
- «مررت بتجربة غير عادية، أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كنت أخدم في صفوف البحرية، في أواخر 1945م، عندئذ كنت في موقع ما، أثناء خدمتي في (واشنطن)، وأتيح لى أن أشاهد جزءاً من فيلم خاص جداً، كان يشاهده بعض ضباط البحرية، من كبار الرتب، وكان يدور حول تجربة ما، تجرى في البحر، ولأن مهامي الأمنية لم تكن تسمح لي بالجلوس ومشاهدة الفيلم، إلا أنني إستطعت أن ألمح جزءاً منه، حيث كانت هناك سفينتان تبثان نوعاً من الطاقة، نحو السفينة الوسطى، وأظنها كانت موجهات صوتية، إلا أنني لست واثقاً في هذا.. المهم أن السفينة الوسطى قد إختفت، داخل ضباب شفاف، على نحو بطيء، بحيث لم يعد لها من أثر، سوى ما تركته على سطح الماء، قبل أن تعود إلى الظهور في بطء، وبعد الفيلم، سمعت القادة وهم يناقشون ما رأوه، وكان أحدهم يقول: إن سبب المشكلة، التي أصابت أفراد طاقم السفينة، هو إستمرار الحقل الموحَّد لفترة طويلة..».
إلى هنا، إنتهت رسالة (باتريك)، التي يمكن إعتبارها نسخ لشهادة (فيليب)، بإستثناء أمر واحد فحسب..
أنها أوَّل مرة، يُذكر فيها إسم (الحقل الموحَّد)..
ولأن (جون) كان دارساً جيِّداً للعلوم، فقد جذب المصطلح إنتباهه وإهتمامه، فراح يبحث عنه، في كل الموسوعات العلمية المعروفة، وكل المجلات العلمية المتخصِّصة، حتى عثر أخيراً على مقال، يهاجم فيه أحد العلماء تلك النظرية، التي حاول (أينشتاين) إثباتها، منذ ما يقرب من أربعة عقود من الزمن..
نظرية الحقل الموحَّد..
وهنا، أيقن (جون) من أن حديث (فيليب) لم يكن مجنوناً، بل كان حقيقياً إلى

أقصى حد..
ونشر (جون) خطاب (باتريك)، إلى جوار رأيه الشخصي حول الأمر، كما ربط كل هذا بنظرية (أينشتاين)، حول الحقل الموحَّد للطاقة..
وهنا، تفجَّر الموقف إلى أقصاه..
وإنهالت الخطابات والتعليقات على الجريدة..
وتحوَّل الأمر فجأة إلى قضية كبرى، حتى أن ثلاث من الصحف الكبرى، في الولايات المتحدة الأمريكية، أعادت نشر مقالتي (جون)، لتقرأ (أمريكا) كلها قصة تجربة (فيلادلفيا)..
وهنا أصبح السكوت مستحيلاً..
وعلى الرغم من أن البحرية الأمريكية لم تُصدر بياناً رسمياً حول الأمر، إلا أن أحد قادتها صرَّح، في مؤتمر صحفي غير رسمي، أن ما نشر مجرَّد خزعبلات، وأنه من المضحك أن يقال أن إخفاء سفينة حربية كاملة، يمكن أن يكون حقيقة واقعية..
وبدلاً من أن يُهدئ هذا التصريح الموقف، فإنه أشعله بشدة..
وبدأ (جون) يجري تحرياته على نطاق واسع، بتمويل من إحدى الصحف الكبرى في (واشنطن)، كما إضطر للاستعانة بثلاثة من المعاونين، لفرز كل ما يصله من خطابات ورسائل وبرقيات، لإختيار ما تلوح الجدية من بين سطوره، وإستبعاد محاولات الشهرة والجدل العقيم..
ولقد تأكَّد (جون) من أن (فيليب دوران) كان يعمل في قطاع الأمن، في مشاة البحرية الأمريكية، في (فيلادلفيا)، في أكتوبر 1943م، كما حصل على وثائق تثبت عمل (باتريك ماسي)، كخبير في الكهرباء، وإنتدابه في البحرية إلى القيادة في (واشنطن)، خلال عام 1945م، مما يمنح شهادة الرجلين مصداقية لا بأس بها..
ثم توصَّل إلى حقيقة أخرى مدهشة..
فما يقرب من 66% من أفراد طاقم السفينة الحربية (DE-173)، تم إيداعهم مصحات نفسية وعصبية، خلال الفترة من نوفمبر 1943م، وحتى ديسمبر 1945م، وبعضهم ظلَّ هناك حتى منتصف الخمسينات..
وتساءل (جون كاربنتر)، في مقاله التالي:
- أمن المنطقي أو المعقول، أن يصاب كل هذا العدد من رجال البحرية، من سفينة واحدة، بإضطراب عقلي مشترك، دون سبب واضح؟!
وجاء السؤال كطعنة في الصميم لقيادات البحرية الأمريكية، التي واصلت عدم التعليق رسمياً، ولكنها أخفت -في الوقت ذاته- كل الأوراق والوثائق، الخاصة بالسفينة المنكوبة..
وعلى الرغم من توال الشهادات من كل صوب، على مكتب (جون كاربنتر)، ومن أن العشرات من بحارة طاقم (DE-117) قد قصوا القصة نفسها، وأيَّدوا ما

قاله (فيليب) و(باتريك)، إلا أن جميعهم كانوا يحملون شهادة طبية رسمية، تؤكّد أنهم ليسوا في حالتهم الطبيعية، مما جعل شهاداتهم بلا سند قانوني مؤكّد..
وربما كان هذا هو السبب الرئيسي، الذي دفع قيادات البحرية إلى إيداعهم هذه المصحّات، خلال فترة الحرب، وما بعدها..
وفى رسالة يأحد البحارة، وهو (مايكل جريج)، المسئول الثان عن الدفة، قال الرجل:
- كنا على ظهر السفينة، نعلم جيّداً أنهم سيقومون بتجربة سلاح ما، وكان معظمنا مفعماً بالحماس، ثم بدأت تلك المولدات الضخمة في العمل، وشعرنا وكأن رءوسنا ستنفجر، وكادت قلوبنا تثب من صدورنا، مع عنف خفقاتها، وبعدها أحاط بنا ضباب أخضر كثيف، وأظلمت الدنيا من حولنا، وكأننا قد فقدنا أبصارنا، فاستولى الرعب على معظمنا، وراح الكل يعدو بلا هدف، ف كل مكان وكل اتجاه، وتصوّرت أننا قد غرقنا فى عالم آخر، أو أن عقولنا قد أصابها الجنون، مع تلك الهلاوس التى تراءت لنا، فصديقى (ميجور) أقسم أنه يرى زوجته الراحلة، والضابط (براد) راح يضحك في جنون، والقبطان (رود) أخذ يدير الدفة في حركات هستيرية، وهو يصرخ أنه من الضروري أن نخرج من بحر الظلمات هذا، أما أنا، فلقد التقيت بمخلوقات من عالم آخر، أو هي وحوش، أو لعلها مجرّد هلاوس مجنونة.. المهم أن ما عانيناه هناك لم يكن عادياً أبداً، بل كان يستحق أن نصاب بجنون حقيقي.
كان أوّل خطاب من أحد بحارة السفينة المنكوبة، وإن كان إثبات هذا أمراً مستحيلاً، بعد أن أخفت البحرية كل الوثائق الرسمية، وواصلت إصرارها على رفض التحدُّث عن الأمر، على الرغم من سيل الخطابات، وإهتمام الرأى العام..
ثم وصل إلى (جون) فجأة خطاب خطير..
خطير إلى أقصى حد..
هذا لأنه كان كافياً؛ ليقلب الأمور كلها رأساً على عقب..
وبعنف.

× × ×

إستمر صراع (جون كاربنتر) طويلاً، في محاولته لإثبات قيام البحرية الأمريكية بتلك التجربة الرهيبة، التي حاولت فيها إخفاء سفينة حربية كاملة، لولا أن أصيب طاقمها بأضرار فادحة، حتمت إيقاف التجربة وعدم تكرارها..
وعلى الرغم من سيل الخطابات والرسائل، ومن شهود العيان، الذين وصفوا ما حدث على سطح السفينة، ظلّ الأمر كله أشبه بلعبة عبثية، مع غياب الدليل المادي الحاسم، على حدوث تلك التجربة، خاصة وأن كل الشهود كانوا من نزلاء المصحات النفسية السابقين، ومن بحارة السفينة أيضاً..



ومع مواصلة البحرية صمتها العنيد، بدأ الموقف ينحسر، وراح إهتمام العامة يقل تدريجياً، و...

وفجأة، وصلت رسالة بالغة الخطورة..

رسالة تحمل توقيع العالم الفيزيائي المعروف (ألند)..

وفي رسالته، قال (ألند):

- «لن يمكنكم أن تتصوَّروا عظمة تجربة (أينشتاين)، التي لم يعترف بها أحد.. لقد دفعت يدي حتى المرفق، داخل حقل الطاقة الفريد هذا، بمجرَّد أن بدأ في التدفُّق، في عكس إتجاه عقارب الساعة، حول السفينة البحرية (DE-173)، ولقد شعرت به يعبر يدي المحدودة داخله.. أما الهواء حول السفينة، فقد تحوَّل في بطء إلى لون قاتم، قبل أن يتكوَّن سديم رمادي ضبابي أشبه بالسحاب الخفيف، أظنه الجسيمات الذرية، أو الهواء المتأيِّن، حول السفينة، التي راحت تختفي تدريجياً، عن الأعين البشرية... هذا الحقل يوحي بأنه هناك كهربية صافية تحيط به بمجرَّد تدفُّقه، ولقد كان من القوة، بحيث كاد يبتلع جسدي كله، عندما بلغت كثافته أقصاها، إذ راح يتحرَّك بغتة في إتجاه عقارب الساعة، وأظن أن هذا الإنعكاس في الحقل، هو سبب فشل التجربة...»..

رسالة كهذه، من عالم له مكانته مثل (ألند)، كانت تكفي لكسر حاجز صمت البحرية بعنف، مما أجبر قيادتها على الإدلاء ببيان رسمي، قالت فيه بإختصار، أقل ما يوصف به هو أنه فحل، وغير مُشبع:

- لا يوجد في ملفات البحرية كلها، ما يحمل إسم (تجربة فيلادلفيا).

ولقد فجَّر هذا البيان المختصر، موجة من السخط والغضب في كل الأوساط.. بل وموجة من السخرية أيضاً، فقد كتب (جون) في مقاله التالي، إنه لم يسمع أو يقرأ، في حياته كلها، بياناً أكثر سخافة وسذاجة، من بيان قيادة البحرية هذا، إذ أنه ليس بالضرورة أن تحمل البحرية، في ملفات البحرية، إسم (تجربة فيلادلفيا)، الذي أطلقه هو على الأمر، وأنه من المحتَّم أن يكون لها كوداً سرياً خاصاً، مثل (الرجل الخفي)، أو (الفراغ)، أو أي إسم آخر..

ثم عاد ينشر شهادة العالم البروفيسير (ألند)، وكأنه يتحدَّى بها كل قيادات البحرية..

وإنتقلت العدوى إلى عشرات الصحفيين الآخرين، الذين راحوا يتساءلون بدورهم عن صحة التجربة من عدمها، في نفس الوقت الذي سعوا فيه للقاء البروفيسير (ألند)، والتأكد من حقيقة ما ذكره في رسالته..

وقبل حتى أن يُعلن (ألند) صحة ما ورد في رسالته، وصلت رسالة أخرى من عالم آخر، إلى مكتب (جون كاربنتر)..

من البروفيسور (فالنتين)، أحد أشهر علماء الطاقة، في الولايات المتحدة الأمريكية كلها..

وعلى عكس رسالة (ألند)، لم يكن (فالنتين) شاهداً على ما حدث، وإنما كان

ينقل حديثاً، دار بينه وبين عالم آخر شهير، وهو الدكتور (جيسوب)..
وفي رسالته، قال (فالنتين):
- (جيسوب) أخبرني أن التجربة قد أجريت، بوساطة مولدات مغناطيسية، من النوع المستخدم في البحرية، والمعروفة بإسم (معادل المغناطيسية)، ولقد أصدرت تلك المولدات ذبذبات عالية للغاية، ورنيناً مرتفعاً، لخلق حقل مغناطيسي هائل، حول السفينة..
كان من الواضح أن (فالنتين) على علم بالتجربة في حينها، وأن (جيسوب) أحد المشاركين فيها، مما أثار مشاعر الكل، ودفع سيلاً من الصحفيين ورجال الإعلام نحو (فالنتين)، الذي فوجئ بهذا الجيش حوله، وبآلاف الأسئلة التي تخترق أذنيه، وعقله، وكيانه كله، فارتبك وإضطرب، وحاول نفي معرفته بالأمر، على الرغم من إعترافه بإرسال تلك الرسالة إلى (جون)، وكل ما قاله أمام الصحفيين هو:
- كل ما أعلمه هو أن الأمر يحتاج إلى ثلاثة من حقول الطاقة المختلفة، لتتناسب مع مستويات الفراغ الثلاثة، وأن الأمر يرتبط بالرنين المغناطيسي الفائق، على نحو ما..
وعلى الرغم مما قاله (فالنتين)، فإن (جيسوب) أصرَّ على الصمت التام، ولم ينف أو يؤيِّد ما قاله زميله، ورفض تماماً الإدلاء بأية أحاديث صحفية، أو حتى إجابة سؤال واحد..
وهكذا فقد (جون) دليلاً قوياً، كان يمكن أن يحسم الأمر تماماً..
ولكن حملته نجحت في تفجير القضية، وفي دفع العقول إلى التفكير في صحة ما حدث..
بل، ودفعت فريقاً من العلماء أيضاً إلى دراسة إحتمالات حدوث تلك التجربة عملياً..
وجاءت النتائج مدهشة..
معظم العلماء أكَّدوا أن الأمر قابل للحدوث، من الناحية العلمية، إذا ما أمكن توليد حقل كهرومغناطيسي فائق، حول جسم ما، مع الإستعانة بقوة الجاذبية الأرضية، والرنين البالغ، ولكن هذا لا يمكن أن يصلح، من الناحية العلمية، بالنسبة للبشر والكائنات الحية..
فالهدف من التجربة، هو كسر الإنعكاسات الضوئية، والوصول بمعامل الإنكسار إلى الصفر، بحيث تعبر الأشعة من خلال الجسم مباشرة، على نحو يجعله غير مرئي..
ولو حدث هذا مع البشر، فيسعني أن الضوء لن يسقط أو يستقر عن شبكية العين..
وهذا يعني أن يصاب الإنسان بالعمى التام، فلا يرى من حوله سوى ظلام دامس..



بل، وكتب أحد العلماء مقالاً، يؤكِّد فيه أن النظرية نفسها، تجعل قصة (الرجل الخفي)، للكاتب الشهير (هربرت جورج ويلز) مجرَّد عبث غير علمي، بإعتبار أن ذلك الرجل سيصبح أعمى، يحتاج إلى من يمد له يد المساعدة، خلال فترة إختفائه..

وخلال تلك الفترة، إنتبه (جون كاربنتر) إلى حقيقة مدهشة، لم يحاول إستغلالها قط، وهو يشن حملته هذه؛ لإثبات حدوث تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة..

(ألبرت أينشتاين)..

فشهادة (فيليب دوران)، في بداية الأحداث، كانت تشير إلى أن (أينشتاين) بنفسه كان يشرف على تلك المولدات المغناطيسية، في ساحة البحرية في (فيلادلفيا)، أثناء إجراء التجربة، وإسم شهير مثله، كفيل بإثارة الموقف كله، على نحو مختلف تماماً..

وهنا، وحتى لا يتورَّط (جون) فيما يمكن أن يدينه قانوناً، راح يجرى بعض الأبحاث، حول حياة وعمل (ألبرت أينشتاين)..

وكانت النتائج رائعة..

ففي عام 1940م، نشر (أينشتاين) نظرية (الحقل الموحَّد) لأوَّل مرة، ثم تم تعيينه في البحرية الأمريكية، كعالم له شأنه، في 31 مايو 1943م، وحتى 30 يونيو 1944م، وكأنما كانت البحرية تحتاج إلى وجوده الرسمي، في هذه الفترة بالتحديد..

والأهم أن (أينشتاين) قد نقل مكتبه في البحرية إلى (فيلادلفيا)، كما تقول الوثائق الرسمية، من 18 سبتمبر 1943م، وحتى 30 أكتوبر من العام نفسه..

ولكن الأكثر خطورة هو أن (أينشتاين) قد أعلن، منذ عامين فحسب، رداً على بعض معارضي نظريته، أن لديه نتائج تجريبية مقنعة للغاية، عن العلاقة بين القوى الكهرومغناطيسية والجاذبية الأرضية، وإن لم يجد بعد دليلاً رياضياً على هذا، مما يوحي بأنه قد شاهد تجربة عملية، تؤكِّد هذا..

ووفقاً للتواريخ والملابسات، لابد وأن تكون هذه هي تجربة (فيلادلفيا)..

ومع نشر هذا الأمر، قامت الدنيا ولم تقعد؛ نظراً لوجود إسم (أينشتاين) هذه المرة، مرتبطاً بالتجربة الرهيبة..

وإندفع جيش الصحفيين نحو (ألبرت أينشتاين) هذه المرة، وهو يمني نفسه بالحصول على سيل من المعلومات، من هذا العالم العبقري البسيط..

ولكن كانت في إنتظارهم جميعاً مفاجأة..

مفاجأة مذهلة..

ومؤلمة.. بحق.

× × ×

ما إن ظهر إسم (ألبرت أينشتاين)، في مقالات (جون كاربنتر)، حول تجربة (فيلادلفيا)، حتى إنتعش الأمر مرة أخرى، في العقول والقلوب، وإندفع الصحفيون ورجال الإعلام، يبحثون عن العالم العبقري؛ لسؤاله عن دوره في تلك التجربة، التي حاولت البحرية الأمريكية من خلالها، إخفاء سفينة حربية كاملة، بكل معداتها وكامل طاقمها، عن الأعين المجرَّدة، وعن تلك النتائج غير المتوقَّعة، التي كادت تصيب الطاقم كله بالجنون..

ولكن (أينشتاين) لم يجب أى سؤال من أسئلتهم، لأنه، عندما وصلوا إلى منزله، كان قد غادر الحياة كلها، ومات في هدوء، في عام 1955م..

ومع رحيل (أينشتاين)، في هذا التوقيت الدقيق جداً، خبا الحماس فجأة، بشأن تجربة (فيلادلفيا)، ولم يعد أحد يتابع أخبارها أو حتى المقالات الحماسية، التي يكتبها (جون) عنها..

ومع الوقت، نسى (جون) نفسه الأمر، وبدأ يستغل شهرته في إلقاء المحاضرات، وإقامة الندوات، وسرعان ما تزوَّج، وإنشغل بعائلته الجديدة عن الأمر كله..

وفي أوائل الستينات، فوجئ الكل بعالم فيزيائي جليل، وهو (فرانكلين راينهارت)، يقول في حديث تليفزيوني مذاع، على الهواء مباشرة:

- (أينشتاين) كان يعرف جيِّداً تجربة (فيلادلفيا)، وكان يعمل فيها، منذ عام 1940م، مع البروفيسور (رودلف لارنبرج)، ولقد طلبا مني معاونتهما في مشروع يتعلَّق بإستخدام الحقول الكهرومغناطيسية القوية، لإحاطة السفن والمدمرات الحربية بغلاف واق، يؤدى إلى إنحراف الطوربيدات بعيداً عنها.. ولقد بدأنا العمل في ذلك المشروع بالفعل، ثم لم نلبث أن طوَّرنا الفكرة، إلى إطلاق الحقل الكهرومغناطيسي في الهواء، بدلاً من الماء؛ لإخفاء السفن بصرياً، وكل ما كان يقلقنا هو الآثار الجانبية، التي قد تحدث، نتيجة للتجربة، وكان من ضمنها إحتمال غليان الماء، أو تأيُّن الهواء حول السفينة، أو أي من تلك الأمور، التي قد تؤدِّي إلى حالة من عدم الإستقرار، إلا أن أحداً منا، حتى (أينشتاين) نفسه، لم يُفكِّر في إحتمالات إحلال الكتلة والتداخل بين الأبعاد.

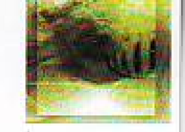
عبارة البروفيسور (راينهارت) الأخيرة لم تكن مفهومة للعامة، ولكنها أثارت في العقول إحتمالاً جديداً، لم يخطر ببال أحد أبداً، طوال فترة الحديث عن تجربة (فيلادلفيا)..

تُرى هل تسببت التجربة في حدوث فجوة بين الأبعاد المختلفة، أم أنها قد فتحت بوَّابة إلى عالم آخر؟!..

إحتمالات بدت أشبه بالخيال العلمي، على الرغم من علميتها المطلقة..

ولقد حاول الصحفيون الإستفسار عما قاله الدكتور (راينهارت)، ومعرفة ما الذي كان يعنيه بمصطلحي (إحلال الكتلة)، و(التداخل بين الأبعاد)!!..

ولكن (راينهارت) أيضاً لم يجب أسئلتهم؛ لأنه لقي حتفه في حادث سيارة مروِّع،



تمزّق معه جسده تماماً..
وهنا، وعلى الرغم من عدم التصريح بهذا، إتجهت أصابع الإتهام الصامتة إلى السلطات الحكومية، وإلى القوات البحرية الأمريكية بالتحديد، بإعتبارها المسئولة عن مصرع (راينهارت)، كمحاولة منها لإخراس الألسنة، التي تلوك موضوع تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة، ومحو أية أدلة، مادية أو بشرية، خاصة وأن (فيليب دوران) قد إختفى في ظروف غامضة، بعد خروجه من ذلك المقهى البسيط، على حدود (نيوجيرسي)، في حين تم تعيين البروفيسور (ألند) في المخابرات المركزية، بحيث يخضع لقانون السرية، الذي يحظر عليه الكلام في الأمر، أو في أية أمور أخرى، تتعلّق بالأمن القومي..
وأدرك الكل، وعلى رأسهم (جون كاربنتر) نفسه، أن الأمر يتجاوز حدود قدراتهم، فلاذوا بالصمت التام، بإعتبار أن حياتهم أغلى من البحث عن حقيقة تجربة فاشلة، أياً كانت معطياتها..
ومرّت السنوات في هدوء، وأصدر (تشارلز بيرلتز) كتاباً شهيراً عن تجربة (فيلادلفيا)، في أوائل السبعينات، بدا وكأنه آخر قول في هذا الأمر، الذي إنخفض الإهتمام به، وتحوّل إلى شبه أسطورة غامضة، تماماً مثل (مثلث برمودا)، و(الأطباق الطائرة)، و(وحش بحيرة لوخ نيس) وغيرها..
ثم مات الدكتور (جيسوب) عام 1973م، آخر من ارتبط إسمه، من العلماء بتجربة (فيلادلفيا)..
وتنفّس قادة البحرية الأمريكية الصعداء، بإعتبار أن هذا يحسم الأمر تماماً، بعد سنوات من الشد والجذب..
ولكن (جيسوب) كان قد ترك وراءه مفاجأة غير سارة لهم..
مفاجأة تتمثّل في خطاب بخط يده، تركه لدى محاميه، وطلب تسليمه إلى (جون كاربنتر) بعد وفاته..
وفي رسالته، قال (جيسوب):
- تجربة (فيلادلفيا) كانت كارثة حقيقية بكل المقاييس، ولقد تنبأت بفشلها، قبل حتى أن تبدأ؛ فقد إعتمد فيها (أينشتاين) على نظرية (الحقل الموحّد)، التي أعارضها بشدة، وعلى مزج المجال الكهرومغناطيسي بالجاذبية الأرضية، مع إشعاع نووي محدود، والواقع أنني قد إلتقيت ببعض ضباط وعلماء البحرية، حول هذا الأمر، وأخبرتهم أنها تجربة هامة بحق، ولكنها بالغة الخطورة، وقاسية جداً على المتورطين فيها، والذين سيتعرضون إلى رنين مغناطيسي هائل، وهذا يعادل ما يمكن أن نُطلق عليه الطمس المؤقّت للبعد، الذي نحيا فيه.. شيء يخرج عن نطاق السيطرة، ويمكن أن يؤدّي إلى إختراق بعدنا إلى مستوى آخر، أو بعد آخر.. ولكنهم لم يستمعوا إليّ.. ربما لأنني أقل شهرة من (أينشتاين)، الذي يعتبرونه أسطورة في الفيزياء.. المهم أن التجربة قد أجريت، ونجح (أينشتاين) في إثبات العلاقة بين أنواع الطاقة وحقول القوى المختلفة، وأكّد صحة الجزء

الخاص بالإندماج، في نظريته للحقل الموحَّد، إذ اختفت السفينة بالفعل، ولكن الحقل تسبَّب في خلق منطقة مضطربة، بدلاً من الغياب الكامل للألوان، كما أن وجود أفراد الطاقم المساكين، داخل حقل عنيف للطاقة، أصابهم بإضطرابات وهلاوس عنيفة، حتى أننا كنا نسمع صراخهم المذعور، خلال الدقائق القليلة، التي إختفت فيها السفينة، كما لو أن أحداً داخلها يذبحهم كالنعاج..

وفي نهاية خطابه، كتب (جيسوب)، وكأنه يعتذر عن إشتراكه في التجربة الرهيبة:

– وأياً كانت النتائج، أو حتى الفوائد المرجوة من هذه التجربة فلم يكن من الجيِّد أبداً أن أسمح لهم بإجرائها، أو أشارك فيها.. تقبَّلوا أسفي.

ونشر (جون) رسالة (جيسوب)، ثم إستقلَّ سيارته؛ للعودة إلى منزله..

ولكنه لم يصل إليه أبداً..

لقد إختفى (جون كاربنتر)، وإختفت معه رسالة (جيسوب) الأصلية إلى الأبد، دون أن تتوصَّل التحقيقات الكثيفة، التي أجرتها الشرطة، إلى جثته، أو حطام سيارته، أو أدنى أثر له..

بل ودون أى سبب، سوى أنه قد تجاوز حدوده، في السعي خلف تجربة (فيلادلفيا)، والعمل على سبر أغوارها، وكشف أسرارها..

وبإختفاء (جون كاربنتر)، أسدل الستار على تلك التجربة المذهلة، ولم يعد هناك من يتحدَّث عنها..

بجدية على الأقل..

وعلى الرغم من أن كتاب (تشارلز بيرتز) قد صدر في ثلاث عشرة طبعة، حتى لحظة كتابة هذه السطور، إلا أن الإهتمام بتجربة (فيلادلفيا) قد تناقص عملياً، حتى إقتصر على قراءتها، والإنبهار بما حققته، نظرياً على الأقل..

وما زال هناك علماء يصرون على أن هذا ممكن..

وآخرون يستنكرون حدوثه بشدة..

وما زالت هناك عشرات الأسئلة المطروحة..

هل حدثت تجربة (فيلادلفيا) بالفعل؟!..

وماذا كانت نتائجها بالضبط؟!..

صحيح أن أحداً لا يعرف جواب تلك الأسئلة، ولا حتى الإسم الحقيقي للتجربة، في ملفات البحرية الأمريكية السرية، ولكنها تحوَّلت في الأذهان إلى أسطورة غامضة..

أسطورة حدثت في (فيلادلفيا)، في أكتوبر 1973م..

أسطورة تجربة..

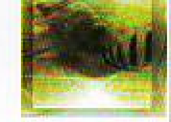
رهيبة..

جداً.

× × ×

الذى رأى الغد..





فجأة

، تعرَّضت الولايات المتحدة الأمريكية لضربة عنيفة، إنطلقت من قلبها، وعلى متن طائراتها المدنية، ودون سابق إنذار، لتهوى كصاعقة من الرعب على رمزين ضخمين، من رموزها الإقتصادية والعسكرية..



(ميشيل دى نوستراداموس) الذي مازالت نبؤاته تذهلنا حتى يومنا هذا .

مبنى التجارة العالمى في (نيويورك).. ومبنى وزارة الدفاع (البنتاجون) في (واشنطن)..

ولساعات وأيام طويلة بعدها، إنشغلت أجهزة الإعلام، في العالم أجمع، بنقل ورصد وتسجيل ما حدث، ومناقشة إحتمالاته، وتوقعاته، وكل الإجراءات التي اُتخذت بشأنه..

ومن أقصى العالم لأقصاه، لم يتوقَّف الحديث أيضاً عن فلكي وطبيب فرنسي، مات منذ ما يقرب من خمسة قرون، ويدعى (نوستراداموس)..

والسبب.. وبكل بساطة، هو أن (نوستراداموس) هذا قد تنبأ بما حدث، وأشار إليه، وسجَّله فى أشهر كتبه..

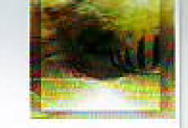
وأيضاً منذ ما يقرب من خمسة قرون!!..

وكما يحدث في كل مرة، إنقسم العالم إلى قسمين، قسم انبهر بنبوءة الفلكي الفرنسي، ذي الأصول اليهودية، وقسم رفضها وأنكرها وإستنكرها تماماً، إستناداً إلى قاعدة تقول: «كذب المنجمون ولو صدقوا»، بإعتبارها قاعدة لا تقبل الجدل والمناقشة، على الرغم من إنها ليست واردة فى القرآن الكريم، أو في أحد الأحاديث النبوية، أو حتى في الإنجيل أو التوراة..

وعندما نستخدم هنا عبارة كل مرة، فإننا نعني أنها ليست أوَّل مرة يثار فيها هذا الجدل العنيف، حول تنبؤات (نوستراداموس)، التي تضمَّنها كتابه الشهير (قرون)، والذي يعدّ، من الناحية العلمية والفعلية، أكثر الكتب مبيعاً، خلال ما يزيد عن أربعمائة سنة كاملة، لم تنفد خلالها طبعاته، ولو لعام واحد، مما يمنحه ميزة خاصة، لم يتمتَّع بها كتاب كتبه بشري، على مدى التاريخ..

فحتى فى حياة (نوستراداموس)، وبعد وفاة الملك (هنري)، التي تنبأ بها الرجل، وبدقة مدهشة، غضبت الملكة (كاترين دى مديتشي) من الفلكي، وكأنما تسبَّبت نبوءته في مصرع الملك، مما دعاه إلى الفرار بعيداً عنها، خوفاً على حياته، خاصة وأن ذلك العهد قد إشتهر بمحاكم التفتيش، التي كان من السهل أن يقع رجل مثل (نوستراداموس) في قبضتها، بتهمة السحر والهرطقة، ليلقى مصرعه

حرقاً بكل بشاعة..
وبلا رحمة..
وخلال الحرب العالمية الثانية، وقعت نسخة من كتاب (نوستراداموس) الأشهر في يد زوجة (جوبلز)، وزير إعلام العهد النازي..
ولقد هالها وأفزعها، وأثار رعبها حتى النخاع، ما إستخلصته منه، حتى أنها أيقظت زوجها من نومه، لتلخص له ما توصلت إليه، بكلمات مرتجفة، حملت كل إنفعالاتها..
وفى البداية، لم يستوعب (جوبلز) الأمر أو يهضمه، حتى وضعته زوجته أمام معادلة مبهرة..
فعلى الرغم من أن الكتاب، الذي تحمله فى يدها، كان طبعة عام 1922م، إلا إنه كان يحوي رباعية مثيرة إلى أقصى حد، تقول:
الحيوانات التى سيقرصها الجوع ستعبر الأنهار
الشطر الأكبر من ساحة القتال سيكون ضد (هسلر)
سيجرّ القائد فى قفص حديدي
عندما يتجاهل إبن ألمانيا كل قانون.
وقفز (جوبلز) من فراشه، وهو يُحدِّق في كلمات الرباعية، ويطالعها مرة بعد مرة..
صحيح أن الرباعية قدمت اسم (هتلر) بـ(هسلر)، ولكنها واضحة أكثر مما ينبغي..
إنه (هتلر) المقصود ولا شك..
وقبل حتى أن تشرق الشمس، كان (جوبلز) يرتدي زيه العسكرى، ويهرع إلى مكتبه، ليضع خطة لإستغلال كتاب (نوستراداموس) هذا في حرب دعائية جديدة، لم يلجأ إليها جهاز دعائي من قبل..
ولقد راقت الفكرة للفوهلر كثيراً، ووجد أنها دعاية غير مسبوقة، لذا فقد انتقى (جوبلز) كل ما يمكن أن يوحي بعظمة (ألمانيا) وإنتصاراتها، من رباعيات الفلكي الفرنسي القديم، وقام بطباعة كل هذا في نشرة دعائية خاصة، تمت ترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية والهولندية، لتلقيها الطائرات على كل البلدان الأوروبية، التي تتحفز وتترقّب ما سيقدم عليه القائد النازي، بجيوشه الجرَّارة، التي إجتاحت (النمسا)، بحجة إستعادة ما أنتزع منها في الحرب العالمية الأولى، وباتت تتأهَّب لغزو (أوروبا)، وفرض سيطرتها على العالم أجمع..
وفي البداية، لم تبال المخابرات البريطانية بهذا الأمر، بل وسخرت منه أيضاً، حتى فوجئت بتأثيره الرهيب، ليس على المجتمع البريطاني فحسب، ولكن على (أوروبا) كلها أيضاً..
وهنا كان لابد من اتخاذ قرار حاسم حازم في هذا الشأن، نظراً لأن الناس، فى كل الأزمنة والأزمات، تولى التنجيم والفلك والتنبؤات المستقبلية إهتماماً بالغاً..

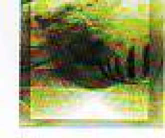


ففى الحروب والأزمات، تضعف النفوس، وكما قالت الكاتبة البوليسية الخالدة (أجاثا كريستي): «إذا ما ضعفت النفس، إستسلمت للخرافة»..
وكإجراء مضاد، جمعت المخابرات البريطانية كل ما يحويه كتاب (قرون)، من تنبؤات تختصّ بهزيمة (ألمانيا) وإنتحار (هتلر)، بعد حصاره في (برلين)!!..
وألقت كل هذا بطائراتها، على الشعب الألماني، كما ترجمته إلى الفرنسية والهولندية أيضاً، لرفع معنويات شعوب (أوروبا) الأخرى..
وهكذا أصبح (نوستراداموس) جزءاً من الحرب العالمية الثانية، بعد وفاته بأربعة قرون كاملة..
والسؤال الهام الآن هو: من (نوستراداموس) هذا؟!.. وكيف إحتلّ كتابه هذه المكانة المدهشة عبر القرون، حتى في عصر التكنولوجيا والتقدُّم، والذى تنبأ هو أيضاً بقدومه، فى رباعيته المدهشة :
يُقضى على الأوبئة، ويصبح العالم قرية صغيرة
وفي سلام، ترتاح الأرض لمدة طويلة..
الناس ستسافر في أمان، عبر الجو والبر والبحر
ثم تندلع الحروب من جديد.
هل يمكن لأحد أن يتصوَّر مدى عبقرية هذه الرباعية المدهشة، وخاصة عندما يكتبها رجل من القرن السادس عشر، بكل إمكانياته المحدودة؟!!..
القضاء على الأوبئة، من خلال برامج صحية، وأمصال ولقاحات متطوِّرة.
والعالم يصبح، بفضل تطور وتكنولوجيا الإتصالات مجرَّد قرية صغيرة، والناس تسافر عبر الجو!!..
عبقرية بكل المقاييس، حتى ولو كانت مجرَّد تنبؤات علمية، لرجل بعيد النظر، وليست تنبؤات فلكية مستقبلية..
و(ميشيل دى نوستراداموس) هذا، صاحب تلك التنبؤات المدهشة، ينتمى إلى أسرة يهودية أوروبية قديمة، فجده (بيير دى نوستراداموس) تاجر غلال يهودي قديم، إهتمّ كمعظم أقرانه بالعلم والدراسة، إلى جانب عمله، وأنجب عدداً من الأبناء، من بينهم (جاك نوستراداموس)، والد (ميشيل)، الذى تزوَّج من إمرأة ثرية، وسُرعان ما إعتنق معها المسيحية وإبنه (ميشيل) بعد في التاسعة من عمره..
ولقد وُلد (ميشيل) هذا في الرابع عشر من ديسمبر، عام 1503م، وهو أكبر أربعة أخوة، وأكثرهم ذكاءً منذ الصغر..
وفى مرحلة متقدِّمة من سنوات صباه، أدرك جده (بيير) موهبته، فاحتضنه، وعلّمه اللاتينية، والإغريقية، والعبرية، بالإضافة إلى مبادئ الرياضيات والفلك والتنجيم..
ولأن تلك الفترة كانت في عهد محاكم التفتيش، فقد خشى والده (جاك) أن يقع الصبى فريسة لتهمة ظالمة، وإستعاده من جده، ليرسله لدراسة الطب في

(مونبلييه)، وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة بعد..
وفى تلك الفترة، ودون مقدمات، ظهرت موهبة (نوستراداموس) فجأة، فبينما كان يرحل مع بعض أصدقائه، إلتقى براهب صغير السن، يحصل على رزقه من تربية الخنازير، فاتجه إليه باكياً، وكأنما تدفعه إلى هذا قوة تفوق إرادته، وانحنى أمامه، ملقِّباً إياه بصاحب القداسة..
وكانت دهشة أصدقائه بما فعله بالغة، ولقد سأله أحدهم لماذا فعل هذا، فأجابه (ميشيل)، وكأنما يتحدَّث عن حقيقة:
- لأنه هكذا ينبغى أن أفعل..
والعجيب أن هذا الراهب (فليتشى بريتى)، قد أصبح فيما بعد، وبعد وفاة (ميشيل) نفسه البابا الجديد، عام 1585م!!..
المهم أن (ميشيل دى نوستراداموس) قد درس الطب، وأبدى فيه تفوّقاً ملحوظاً، أهَّله للحصول على شهادته بتفوّق، ليعود بها إلى أسرته، التي بدت أكثر منه فرحاً وزهواً بما حصل عليه إبنها..
ولكن علاجات (ميشيل) وأسلوبه أثارا دهشة العديدين من أقرانه، وإستنكارهم أيضاً..
حتى جاءت الكارثة الرهيبة..
الطاعون الأسود.
وهنا كانت مفاجآت (نوستراداموس) مدهشة..
وإلى أقصى حد..

× × ×

مايو 1791م.. أوج الثورة الفرنسية، وبعد أن سقطت كل الرءوس، وحتى رءوس قادتها، التي طارت تحت المقصلة..
وثلاثة من الرعاع، لعبت الخمر برءوسهم، وسيطرت على عقولهم، فأصرّوا على نبش قبر الطبيب والفلكى الأشهر (ميشيل دى نوستراداموس)، كوسيلة همجية ساذجة، لتأكيد سيطرتهم على العهد السابق، وإمتهانهم لكل رموزه ومقدساته..
ولم تكن مهمتهم بالعسيرة، فالقبر مجرّد حفرة بسيطة، في ساحة كنيسة قديمة، بداخلها تابوت من الخشب القديم، الذي تهالك ونخره السوس، بعد قرنين وأكثر في التراب..
وبهمة وحماس صنعهما السكر، نبش الثلاثة القبر، وعالت صيحاتهم الظافرة، وهم يرفعون غطاء التابوت، و...
وفجأة، إحتبست صرخاتهم في حلوقهم، وإتّسعت عيونهم في ذهول، ما له من مثيل..
ولم يكن هذا بالطبع بسبب ذلك الهيكل العظمى المتهالك، الذي تبقَّى من صاحب



أشهر كتاب عبر القرون، وإنما بسبب تلك اللوحة المعدنية القديمة، المعلّقة، في عنقه..
لوحة منقوش عليها تاريخ يومهم هذا..
السابع عشر من مايو، عام 1791م..
وعلى ظهر اللوحة، التى تنبأ كاتبها بتاريخ نبش قبره، بدقة مذهلة، كانت هناك رباعية تقول:
بعد عامين من ثورة العامة، وفي الشهر الخامس
ثلاثة سكارى ينبشون القبر القديم
إثنان يلقيان مصرعهما في نفس الليلة
والثالث يبقى مجنوناً حتى النهاية..
ومع ذهولهم، تراجع الرجال الثلاثة، وإمتلأت قلوبهم برعب شديد، وحاولوا الفرار من المكان، ولكن دورية من دوريات الثورة لمحتهم، وأطلقت عليهم النار، فلقى إثنان مصرعهما، وأُصيب الثالث بالجنون، من فرط الرعب والذعر..
وبهذه الواقعة، التي لم ترد في مصادر تاريخية كافية، بدأت مشاهد أشهر وأقوى فيلم تسجيلي عن (نوستراداموس)، بإعتباره معجزة يهودية، على الرغم من إعتناق أسرته للمسيحية في حداثته، وإعتناقه هو لها، حتى آخر يوم في حياته..
وعلى الرغم من أن الفيلم من إنتاج عام 1984م، ويقوم بتقديمه الفنان العالمي (أورسون ويلز)، إلا أنه، وفي نهايته، تحدَّث عن نبوءتين، إعتبرهما -عندئذ- من المستقبليات..
عن حرب الخليج (عاصفة الصحراء)، وإجتماع الكل على العراق، الذي سيضرب جيرانه بالصواريخ..
وعن ضربة (نيويورك)، عام 2001م..
ولعل هذا أكثر ما يُبهر في الفيلم القديم..
وفي نبوءات (نوستراداموس) أيضاً..
وإستعراض حياة (ميشيل دى نوستراداموس) يثبت أنه لم يكن عبقرية فلكية فحسب، ولكن عبقرية طبية أيضاً..
وربما على نحو أكثر قوة..
ففى شبابه، وبعد حصوله على شهادته الطبية بتفوّق، وممارساته المدهشة للطب والعلاج، وقعت الكارثة في (أوروبا)..
الطاعون الأسود..
عشرات تساقطوا أمام الوباء الرهيب، ورائحة الموت ملأت كل القرى والمدن والبلاد، مع فشل كل طرق المقاومة والعلاج..
فيما عدا طريقة (نوستراداموس)..
فعلى الرغم من أن الرجل كان طبيباً في النصف الأوَّل من القرن السادس عشر،

بعلومه القليلة المحدودة، وجهله التام بوجود كائنات دقيقة ممرضة، مثل الجراثيم والميكروبات والفيروسات، إلا أنه تعامل مع المرض بعبقرية مذهلة، وكأنه يطبّق جزءاً من تنبؤاته أيضاً..

لقد كان يضع المريض في حجرة جيّدة التهوية، ذات نوافذ مفتوحة، ويوقد النار في المدفأة في الوقت ذاته، ويحرص على غلي كل الأدوات المستخدمة معه، وكل ملابسه، وتغيرها يوماً بيوم، كما إستخدم علاجاً لم يتوصل إليه العلم إلا من سنوات قليلة جداً..

الماء الساخن..

كان يسقى المريض الماء الساخن خمس مرات يومياً..

وبمنتهى الإنتظام..

لذا فقد شفى معظم مرضاه..

فيما عدا زوجته وإبنيه منها..

ولقد كان لهذا أسوأ الأثر في نفسية (ميشيل نوستراداموس)، وحياته فيما بعد. ولسنوات عديدة تالية، فإلى جوار حزنه وألمه لفقدهم، فقد راحت أسرة زوجته تحاربه، لإجباره على إعادة دوطتها بعد وفاتها، وعندما فشلت في هذا، إتهمته بالهرطقة، وخاصة مع شهرته الواسعة في شفاء مرض الطاعون، والتي إعتبرها البعض نوعاً من السحر، وليس الطب..

وهرب (ميشيل)، خوفاً من محاكم التفتيش..

ومن شهرته كلها..

ولكن هروبه هذا كان له أكبر الأثر في حياته، فلقد توطدت علاقته بأشهر فلاسفة عصره (سيزار سكاليجر)، مما شحذ ذكاءه، وضاعف قدرا وشهرته، حتى تزوَّج مرة أخرى من أرملة ذات ثروة وجاه، إستقرّ معها وفي منزلها، الذي إتخذ لنفسه مكتبة في طابقه العلوي، قضى خلالها معظم ليله، ووضع فيها أوَّل لبنات رائعته الخالدة (قرون)..

وفي عام 1555م، نشرت الطبعة الأولى من (قرون)، متضمنة القرون الثلاثة الأولى، وجزء من القرن الرابع..

وإسم (قرون) هذا خادع للغاية، فالكتاب لا يتحدَّث عن القرون الزمنية التي نعرفها، وإنما حمل هذا الإسم؛ لأن (نوستراداموس) قد وضع تنبؤاته في شكل رباعيات يحوى كل قرن مائة منها..

والأحداث في (قرون) (نوستراداموس) غير مباشرة، وغير مرتَّبة تاريخياً، ولم يكن من الممكن أبداً أن يجازف بالعكس، في زمن أعدم فيه من هم أكثر أهمية وشهرة منه، لأسباب تقلّ عن هذا كثيراً..

وحتى وهو يكتب رباعياته، لم يضعها بأسلوب يسهل فهمه، فقد وضعها رباعيات شعرية، تمتزج فيها اللاتينية، والبروفنسالية، والإيطالية، والإغريقية، وبعبارات رمزية، تماما كما فعل مع الملكة (كاترين دى مديتشى)، التي إنبهرت





الرئيس الأمريكي جون كينيدي الذي تنبأ (نوستراداموس) باغتياله في كتاب القرون ، ليحدث هذا بالفعل عام 1963 برصاصة تلقاها في رأسه ، و لتصبح عملية اغتياله واحدة من أشهر نظريات المؤامرة في التاريخ

بشهرته وتنبؤاته، فإستدعته إليها، وطلبت منه أن يتنبأ بمستقبل أبنائها الأربعة، فصمت (نوستراداموس) طويلاً، ثم أخبرها أنه من نسلها يرى أربعة ملوك..

ولم يُشر (نوستراداموس) قط إلى وفاة أحد أبنائها، وإن لم يكذب أيضاً في عبارته، لأن أحدهم أصبح ملكاً على (بولندا)، ثم على (فرنسا) فيما بعد..

ولقد أنهى (ميشيل دى نوستراداموس) قرونه العشرة عام 1566م، أى في نفس عام وفاته، ولكنها لم تُنشر كاملة إلا في عام 1568م..

ولسبب ما، لم تحمله لنا أوراق (ميشيل) أو مذكراته، لم يكتمل القرن السابع من قرونه، وإقتصر على إثنين وأربعين رباعية فحسب، وليس مائة رباعية كالقرون الأخرى..

والمثير أن يحدث هذا مع القرن السابع بالتحديد، خاصة وأن الرقم سبعة يرتبط بالعديد من المقدسات، في معظم الأديان، وبعدد السموات والأراضى، وأيام الأسبوع وغيرها..

والمطالع لكتاب (نوستراداموس) سيجد الكثير من الغموض والحيرة، بالنسبة لتنبؤاته يصعب تفسيرها، وربما تتعلّق بمستقبليات لم تحدث بعد، ولكنه سيجد أيضاً ما يثير دهشته وذهوله حتى النخاع، وخاصة عندما يُطالع تنبؤات حدثت بالفعل، في الفترة ما بين ظهور (قرون)، ووقتنا الحالي..

وفي بعض الأحيان، يكون تعرُّف زمن النبوءة ممكناً، عندما يربطها (نوستراداموس) بحالة فلكية خاصة، لا يمكن أن تحقدَّق إلا في ظروف وحقبات بعينها، ولعل أشهر تنبؤاته القريبة -نسبة إلى زمنه- تلك الخاصة بالثورة الفرنسية، والتي حدد حدوثها بالأعوام الإثنى عشرة الأخيرة، من القرن الثامن عشر، وقال فيها:

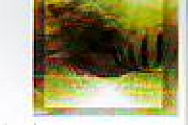
من العامة المستعبدة حماس ومطالب وأغنيات
فيما يوضع الأمراء والملوك أسرى في السجون
هؤلاء يستقبلهم حمقى دون رؤوس في المستقبل
بإعتبارهم مصلون مقدسون.

وفي الزمن الذي حدده (1789م)، إندلعت الثورة الفرنسية، وإرتفعت أغنياتها وحماسها، وطالب الكل بمحاكمة العهد القديم، ووضع الملوك والأمراء في السجون، ثم قطعت رءوسهم، على يد المتآمرين، الذين حظوا بالمصير ذاته فيما

بعد..
نبوءة مدهشة..
ولكن تلك الخاصة بأسرة (كيندى) كانت مدهشة أكثر..
بل مذهلة..
وبكل المقاييس.

× × ×

في بداية القرن الأوَّل من كتابه (قرون)، شرح لنا (ميشيل دى نوستراداموس) كيف حصل على تنبؤاته، فيقول في رباعيته الأولى:
أجلس وحيداً في الليل، في دراسة متكتمة
إنها موضوعة على حامل نحاسي ثلاثي القوائم
شعلة واهية تندفع من قلب الفراغ
وترى ما لا ينبغي أن تؤمن به؛ لأنه باطل.
تناقض مدهش، يبدأ به فلكي وعالم كتاباً، أصبح الأشهر عبر القرون، فهو يصف لنا كيف يجلس في خلوة، مع شعلة على حامل ثلاثي نحاسي، ثم يرى ما يرى..
وبعدها ينفي عن نفسه معرفته بالمستقبل، بإعتباره باطل، لا ينبغي له أن يصدِّقه..
أسلوب ذكي لتحاشي الإتهام بالسحر والهرطقة، فلو أنه يقصد بالفعل ما يقول، لما كتب الكتاب ونشره؛ فأصغر عالم في الوجود لا يمكن أن يفعل هذا..
وما يتحدَّث عنه (نوستراداموس) أشبه بأساليب المتصوفين القدامى.. الخلوة، والضوء الخافت، والخشوع، ثم الرؤيا!!..
ولا أحد يدري كيف تأتي هذه الرؤيا، ولكن بعض الدارسين يؤكدون أنها كانت تأتيه في صورة سمعية بصرية، يعجز هو نفسه عن فهمها وإستيعابها، فيكتفي بوصفها كما رآها وسمعها..
ودليلهم على هذا تلك الرباعية، التي وصف فيها معركة جوية، في زمن لم يعرف حتى الطائرات الورقية، والتي قال فيها:
سيعتقدون أنهم رأوا الشمس في قلب الليل
عندما يرون الرجل الشبيه بالخنزير
ضوضاء وصرخات ومعارك تدور في السماء
وستُسمع المخلوقات الخنزيرية وهي تتحدَّث.
وقبل أن تنفر من الوصف، لإرتباطه بالخنزير، طالع صورة لطيار مقاتل، وهو يرتدي قناعة، وتخيَّل ما يمكن أن يصف به رجل في القرن السادس عشر هذا!!..



ولنتوقَّف لحظة عند الضوضاء والصرخات والمعارك والأضواء في السماء، ونقارن هذا كله بصوت الإنفجارات والصواريخ، ووهجها، وصفير القنابل التي تهبط على الأرض، ثم تربط كل هذا بأصوات الطيارين، عبر إتصالاتهم اللاسلكية..

دعنا نلتقط مشهداً من أحد أفلام الحروب، وعرضه على شخص بدائي، ولنر كيف يصفه!!!..

إنها عبقرية حقيقية أن يصف شخصاً من زمن (نوستراداموس) هذا المشهد المعقَّد، بل والمستحيل في زمنه وأيامه!..

ولقد استخدم (نوسترادا موس) نفس الوصف البدائي، لتفسير أمور تأتي بعده بمئات السنين، وهو يتنبأ بمصرع الأخوين (كنيدي)، في القرن العشرين، عندما تم إغتيال (جون كنيدي) في (دالاس)، في وضح النهار، برصاصة في رأسه، ثم إغتيل شقيقه (روبرت) بعده بخمس سنوات، وهو يحتفل بإنتصاره في الإنتخابات الرئاسية الأوَّلية، وما أعقب الحادثين من مشكلات عالمية، عانت منها (إنجلترا) و(فرنسا) و(إيطاليا)..

وفي هذا الشأن، جاءت رباعية (نوستراداموس) تقول:

الرجل العظيم تصرعه صاعقة في وضح النهار
فعلة أثيمة، تنبأ بها الملتمس
وبعدها سيخرّ الآخر صريعاً في الليل
صراع في ريمس، ولندن، ووباء في توسكانيا.

أمر واضح إلى حد مدهش، ويتجاوز حدود المصادفات إلى ما هو أكثر عمقاً.. تماماً مثل تلك النبوءة، التي تحدَّثت عن ضرب (هيروشيما) و(ناجازاكي)، والتي حدَّدت زمنها فلكياً بنهايات النصف الأوَّل من القرن العشرين، والتي تقول:

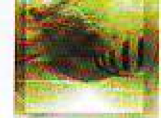
قرب الميناء، وفي مدينتين كبيرتين
كارثتان تحدثان، لم ير مثيل لهما قط
جوع، طاعون، وإناس يطرحون خارجاً بسيف الحرب
بكاء وضراعة لله العظيم؛ للحصول على مساعدات..

والمدينتان تقعان على البحر، وكلاهما تعرَّضت لضرب بالقنبلة الذرية، في كارثتين لم يعرف التاريخ لهولهما مثيل، في عام 1945م..

مرة أخرى نبوءة مدهشة قوية إلى حد رهيب مثير..

وتنبؤات (نوستراداموس) ليست دقيقة زمنية كما يشيع البعض، وإنما تتراوح نسبة الإزاحة فيها إلى ما يقرب من عشر سنوات، سلباً أو إيجاباً، ولكن حتى هذا يضعها في قائمة المدهشات، وخاصة عندما تشير في وضوح إلى أمور لم يكن من الممكن التنبؤ بها سياسياً أو منطقياً، حتى في الفترات الملاصقة لها، مثل نبوءته عن قيام الثورة في (إيران)، وقوة تأثير (الخوميني) عليها، من منفاه في (فرنسا)، فحتى القيادات السياسية والعسكرية، في العالم أجمع، لم تتوقَّع

أو تتخيَّل إمكانية نجاح هذا، حتى لحظة حدوثه بالفعل..
وعلى الرغم من هذا، فقد ذكره (نوستراداموس) في كتابه، قبل خمسة قرون، وهو يقول في رباعيته:
المطر والمجاعة والحرب والمجاعة لن تتوقَّف، في بلاد فارس
إيمان عظيم جداً سيخدع الملك
الأعمال التي تعدّ في (فرنسا) ستنتهي هناك
علامة خفية لشخص ما، لكي يتعامل برحمة
إشارة واضحة لما حدث، على الرغم من غموض الرباعية ككل رباعيات (قرون) التي تحوى دوماً شيئاً من الحيرة، في شطرها الأخير بالتحديد..
وغموض رباعيات (نوستراداموس) ليست المشكلة الوحيدة، التي تواجه أى دارس لكتابه وتنبؤاته، فالمشكلة الأكبر هي أن تجد نسخة صالحة للدراسة، والمقصود هنا أن تكون نسخة صحيحة، غير مزوَّرة أو محوَّرة، فلأن للتنبؤ تأثيراً هائلاً على الناس، تم إستخدام (نوستراداموس) وكتابه كوسيلة دعائية للحرب النفسية، منذ أوائل عام 1649م، عندما قام خصوم الكاردينال (مازاران) بنشر طبعة من (قرون)، أضافوا إليها رباعيتين ضده، للحد من نفوذه القوى في البلاط الفرنسى..
وفي عصر (نابليون) أيضاً تم تزوير الرباعيات، بإضافة رباعيات زائفة، أطلق عليها إسم (تنبؤات أوليفاريس)، وبعدها ظهرت (تنبؤات أورفال)، وكلتاهما كتابات زائفة، نُسبتْ دون حق للأشهر (ميشيل دى نوستراداموس)..
وخلال الحرب العالمية الثانية وحدها ظهرت أكثر من خمس طبعات غير صحيحة من كتاب (نوستراداموس)، والمعنى هنا هو أنها قد اقتصرت على ما يفيد أحد الطرفين، مع تجاهل باقي الرباعيات تماماً..
لذا، فكل دارس للرجل وكتابه، يسعى للبحث عن أقدم نسخة ممكنة، ويقارن محتواها بعدة طبعات أخرى، حتى يتيقَّن أوَّلاً من أنه أمام نسخة حقيقية من كتاب (قرون)، قبل أن يبدأ عمله..
وهذه الدراسة نفسها احتاجت إلى جهد مضن، لقراءة خمس طبعات من كتاب (نوستراداموس)، بثلاث لغات مختلفة، قبل البدء في كتابتها..
والواقع أن هذا لم يكن أمراً مرهقاً، بقدر ما كان ممتعاً، وخاصة عندما استقرّ الأمر على كتاب قديم نسبياً، تعود طبعاته إلى منتصف السبعينات، لباحث بذل جهداً حقيقياً في التحقُّق من كل رباعية قبل نشرها..
والممتع هنا أن نطالع طبعة في منتصف السبعينات، ثم تجد فيها إشارات واضحة لأحداث جرت بعد طباعتها بعدة سنوات، وتقرأ محاولات الباحث المستميتة لتفسيرها، بإعتبارها تنبؤات مستقبلية، بالنسبة لزمن بحثه..
ورباعيات (نوستراداموس) ليست كلها محيِّرة، ففي بعضها أسماء وإشارات واضحة للغاية، كتلك الرباعية التي أوردناها في القسم الأوَّل، والتي تحدثت عن

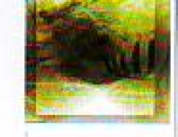


(هتلر) أو (هسلر)، أو (هستر)، كما ورد في طبعات بلغات مختلفة..
وهناك رباعيات مبهرة، لأنها تحدَّثت عن أشخاص بعينهم، وبأسمائهم أيضاً، كتلك الخاصة بلويس باستير، مكتشف وجود الجراثيم، والتي تقول:
يُكتشف المفقود، المختبئ منذ عدة قرون..
سيُحتفل بباستير كرمز لعظمة الإله
يحدث هذا عندما يتمّ القمر دورته العظمى
ولكنه، ونتيجة لشائعات أخرى، ستتلوَّث سمعته.
هكذا، ومباشرة يذكر اسم (باستير)، الذي جاء بعده بأكثر من ثلاثة قرون، والذي تحوَّل إلى معجزة علمية، عندما كشف وجود الجراثيم، ثم لم يلبث هذا أن أثار غيرة وغضب وحفيظة منافسيه؛ نظراً لإعتبار كشفه -عندئذ- أهم الكشوف في عالم الطب، وإعتباره الزعيم المعترف به لأكبر حركة علمية كيميائية، وتأسيس معهده الشهير، فهاجموا أسلوبه، ومحاولاته لإنتاج لقاح مضاد لداء الكلب، مما لوَّث سمعته في أواخر أيامه..
وفي رباعية أخرى، أشار إلى (موسوليني)، المعروف في التاريخ باسم (الدوتشى)، وإلى خلافاته مع الملك، ومعاداته للفاتيكان في ذروة عهد ديكتاتوريته، على نحو واضح للغاية، قائلاً:
سوف يعثر الملك على ما يرغب فيه بشدة
حينما يؤخذ الأسقف بالظلم
الرد سيغضب الدوتشى بشدة
وسيقتل عدة أشخاص في ميلانو
ولكن أقوى الرباعيات الواضحة والمباشرة، هي تلك التي أشارت إلى (فرانكو) وأحداث (إسبانيا)..
فهي مدهشة ومثيرة..
بشدة.

× × ×

من الواضح أن (نوستراداموس) يتوقَّف طويلاً، أمام بعض الشخصيات والأحداث، التي كانت لها تأثيرات واضحة، في مسار التاريخ..
فعبر كتابه الأشهر (قرون)، نجد العديد من الرباعيات، التي تتحدَّث عن (هتلر) و(نابليون)، وعن الحرب العالمية الثانية، وحرب الخليج، وغيرها من الأحداث الجسام..
وفي بعض رباعياته، وبالذات تلك التي تغفل تحديد الزمن الفلكي لحدوثها، نجد أنفسنا في حيرة، ونحن نتساءل عما كان يعنيه، أو عمن يتحدَّث بالضبط..
وأكبر مثال على هذا، هو الرباعية التالية :

من أعمق جزء في أوروبا الغربية
سيولد طفل من أسرة فقيرة
كلامه سيفتن الكثير من الشعوب
وستتعاظم سمعته أكثر، في مملكة الشرق
فلقد توقَّف الباحثون طويلاً أمام هذه الرباعية، التي يمكن أن تنطبق على مرحلتين تاريخيتين، وشخصيتين عالميتين، يفصل بينهما قرن كامل من الزمان.. (نابليون بونابرت)، و(أدولف هتلر)..
كلا الرجلين جاء من أصل وضيع، وعائلة فقيرة، و(النمسا) تعدّ عميقة بالنسبة لحدود (أوروبا)، في حين يمكن ترجمة الكلمة كلها إلى دنية، فتنطبق تماماً على (كورسيكا)، مسقط رأس (نابليون)..
والرجلان امتلكا موهبة الخطابة، وكانت لهما سمعة كبيرة في الشرق، أوّلهما عبر حملته الشهيرة، والثاني من خلال خطبه الملتهبة، ووسائل الإعلام، وكراهية شعوب الشرق للإحتلال الإنجليزي والفرنسي، وإنتظارهم للنجاة منهما على يد جيوش (ألمانيا) النازية..
ولقد وجد كل إتجاه مؤيديه، وما زال الفريقان يختلفان، حتى لحظة كتابة هذه السور..
ولكن بالنسبة للرباعية الخاصة بالجنرال (فرانكو)، فلم يحدث أى اختلاف على الإطلاق، إذ جاءت الرباعية واضحة أكثر مما ينبغي، وهي تقول :
سوف يأتى (فرانكو) إلى الجمعية من كاستيل
السفراء سيرفضون، ويتسبَّبون في انقسام
مؤيِّدو (ريفيرا) سيحتشدون
وسيُحرم الرجل العظيم من دخول الخليج..
الرباعية لم تذكر اسم (فرانكو) فحسب، وهي تشير إلى عودته من (المغرب) بعد نفيه فيها، ومنعه من عبور البحر إلى (إسبانيا)، والخلاف الشديد بعد عودة حزبه إلى السلطة، وإنما ذكرت أيضاً إسم عدوه الديكتاتور (بريمودى ريفيرا) أيضاً..
رباعية واحدة ذكرت إسمين في وضوح، وربطتهما ببعضهما البعض، على نحو يتجاوز كل حدود وإحتمالات المصادفات، إلى ما هو أكثر خطورة من هذا..
وهذا يعيدنا إلى الرفض التلقائى والعنيف لفكرة الرؤيا والتنبؤات المستقبلية، على الرغم من أنه لا يوجد سند قوي يمنع إحتمال حدوث هذا، بل على العكس تماماً، ففي سورة (يوسف) نجد أن مسجوناً قد شاهد رؤيا تحدِّد مصيره وكذلك رفيقه، ونجد الفرعون يتنبأ بالسنوات العجاف..
كل منهم لم يكن مؤمناً، وربما كانوا وثنيين أيضاً، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلهم يرون ما سيحدث مستقبلاً، وإن عجزوا عن تفسير ما رأوه..
والعلم يؤمن بوجود هذه الهبة العقلية، ويطلق عليها إسم (بري كوجنيشن)



(Pre-Cognetion)، أو (رؤية ما لم يحدث بعد)، ولقد أجريت دراسات عديدة، معظمها في الإتحاد السوفيتي؛ لفهم هذه الهبة، وقوانين حدوثها، وهناك مئات الكتب عنها، وهي كأية هبة، تمنح للبشر دون تمييز للجنس أو النوع أو الديانة، تماماً كموهبة الرسم، أو التمثيل، أو أية مواهب أخرى..

حتى في بعض الحالات العادية، وربما حولنا أيضاً، نجد من يمكنه رؤية المستقبل، في بعض الحالات المحدودة، والتي يطلق عليها العامة عبارة (كُشفت عنه الحجب)، ولكننا لا نعتبرها قاعدة أبداً..

أنا شخصياً لدى تجربة في هذا الشأن، مع والد زوجتي، الذي عانى من مرض عضال لفترة طويلة، ثم أصابته حالة (إنكشاف الحجب) هذه قبيل وفاته بأيام، فراح يصف، وبمنتهى الدقة، أموراً وأحداثاً حدثت بعد وصفه لها بأيام.. وبنفس الدقة والتفاصيل..

هناك إذن كيمائية خاصة، أحدثها المرض الطويل في الجسد، جعلت العقل ينجلي، ويمتلك قدرة مدهشة على إختراق الزمن، وكشف المستقبل، على نحو قد تساعده قدراته على وصفه، أو تفسيره، أو مجرَّد الإشارة غليه..

وما دام هذا يحدث في ظروف خاصة، فالمنطق العلمي يقول: إن القدرة كامنة في مكان ما من المخ، وكل ما تحتاج إليه هو عامل قوي، لتحفيزها وإطلاقها.. ونحن لا ندري ماذا أصاب (نوستراداموس) بالضبط..

لقد كانت حياته طويلة حافلة، على نحو يصعب تسجيله واستيعابه كله، ثم أنه قد واجه مرض الطاعون، وتعامل مع مرضاه آلاف المرات، دون أن يصاب به أبداً..

فماذا لو أن هذا قد غيَّر كيماويات جسده على نحو ما؟!..

وماذا لو أنه قد وُلِدَ بتلك الهبة الربانية، التي صقلتها دراساته للرياضيات، وعلوم الفلك؟!..

أمور عديدة، ينبغي أن نستوعبها وندركها، قبل أن نبادر بمهاجمة كتابه، أو حتى تأييده..

المهم أن نلغي من أسلوبنا وتفكيرنا كل الحساسيات، والتعنتات، والعصبيات، والأحكام المسبقة، وما دام التنبؤ بالمستقبليات قد صار علماً، فلنتعامل مع تنبؤات (نوستراداموس) بإعتبارها نظرية علمية، نبحث صحتها أو زيفها..

وفي كل التجارب العلمية والمعملية، لا يمكننا أن نحصل أبداً على نتيجة دقيقة مائة في المائة، لذا فقد إعتبر العلماء أن الوصول إلى نتيجة تبلغ الخمسة والسبعين في المائة، يعني الإيجاب، في معظم الأحوال..

والباحثون والدارسون لتنبؤات (نوستراداموس) يشيرون إلى أن نسبة النجاح، في رباعياته القديمة، أو التي تحقَّقت أحداثها بالفعل، تبلغ النسبة المقبولة علمياً، بحيث يصعب إعتبار الأمر مجرَّد مصادفة..

فالمصادفات لا يتكرَّر حدوثها في المسرح الواحد أبداً..

وعندما يتحدَّث (نوستراداموس) عن معركة (واترلو)، التي حدثت بعد ثلاثة أشهر تقريباً، من عودة (نابليون) في جزيرة (ألبا)، وعن التحالف بين (بلوخر)، الذي كان يرمز إليه بإسم (الخنزير البروسي البري)، و(جروتشي) الأسد البريطاني، والذي هزمه (نابليون)، الذي اتخذ العُقاب رمزاً له، نجده يقول في رباعيته :

في الشهر الثالث، وعند شروق الشمس
يلتقي الخنزير البري والأسد، في ساحة المعركة
وعندما يرفع الأسد المرهق بصره إلى السماء
يرى عقاباً يدور حول الشمس..

وعلى الرغم من أن الرباعية لم تذكر أية أسماء، إلا أنها ذكرت الرموز الخاصة بكل المتحاربين، دون خطأ واحد، مما يبعد الأمر عن أى إحتمال لكونه مجرَّد مصادفة عشوائية..

وككل الأمور والظواهر الخارقة للمألوف، وجد (نوستراداموس) فريقاً شديد الحماس لتنبؤاته، وآخر شديد الإنكار والإستنكار لها، ولكن من المؤكَّد أنه قد جذب إهتمام وإنتباه الفريقين، طوال خمسة قرون..

وبالذات مع حادثة برجي مركز التجارة العالمى..

ففي طبعة الكتاب التي بين يدي، والتي تعود إلى السبعينات، تحدَّث الباحث عن عدد من تنبؤات (نوستراداموس) المستقبلية -في ذلك الحين- وعلى رأسها ضربة (نيويورك)، التي ستتسبَّب في إشعال الحرب العالمية الثالثة..

وطوال البحث، حاول الباحث أن يجد تفسيراً لتلك التنبؤات، التي لم يختلف أي باحث آخر في تفسيرها.. في أساسياتها على الأقل..

فبالنسبة لكل الباحثين، تم الاتفاق على أن الحديث عن المدينة الجديدة يشير دوماً إلى (نيويورك)، باعتبار أن إسمها مشتق من مقاطعة (يورك) القديمة، ثم أنها تقع في عالم لم يكن له وجود، في زمن (نوستراداموس)..

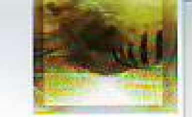
ومن هذا المنطلق، بدت لهم نبوءات الرجل، الخاصة بالمدينة الجديدة عجيبة.. ومخيفة أيضاً..

ولكنهم حاروا في تفسيرها..

بعضهم إفترض أنها تتحدَّث عن كارثة طبيعية، والبعض الآخر تمادى في تفكيره وخياله، فتصوَّر أنها تشير إلى غزو فضائي، والبعض الثالث إعتبرها حرباً نووية..

ولكن المدهش أنهم توقفوا جميعاً عن كلمة في رباعية تقول :

نار تزلزل الأرض، في مركز الأرض
هزات قوية تصيب المدينة الجديدة..
صخرتان عظيمتان تنهاران..
ثم تضفى أريثوازا لوناً أحمر على نهر جديد



فمنذ أكثر من عشرين عاماً، تساءل الباحثون، لماذا استخدم (نوستراداموس) كلمة (برج) (Tour)، عندما وصف الصخرتين العظيمتين، في رباعيته هذه؟!.. والمدهش أننا نعرف الآن لماذا فعل هذا، عندما قال: إن برجين عظيمين سينهاران!!

فلقد إنهارا بالفعل، في مركز التجارة العالمي، في الحادي من سبتمبر 2001م.. ولكنها ليست الرباعية الوحيدة حول أحداث سبتمبر، في الولايات المتحدة الأمريكية.. هناك رباعيات أكثر إثارة..

بكثير.

× × ×

مع سقوط برجي مركز التجارة العالمي، وارتطام الطائرتين المدنيتين به، في الحادي عشر من سبتمبر، عام 2001م، إستعاد العالم كله تنبؤات الفلكي الفرنسي الأشهر (ميشيل دي نوستراداموس)، والذي أشار إلى هذه الضربة منذ خمسة قرون، في كتابه الأكثر شهرة (قرون)..

وفي عشرات الصحف والمجلات العربية، قرأنا رباعية نُسِبَتْ إلى (نوستراداموس)، وتقول:

ملك الرعب العظيم يهبط على المدينة الجديدة..

نار ودخان وصراخ ودموع وإنهيارات

تسقط القلعة، وينهار التوءمان..

وتشتعل الحروب في كل مكان.

وعندما حصلت على نسخة مؤكَّدة من كتاب (نوستراداموس) الشهير، والأبحاث الملحقة به، لعمل هذه الدراسة، كان أوَّل ما بحثت عنه هو هذه الرباعية، التي تمادى البعض، فأضاف إليها التاريخ بالشهر والسنة..

ولكنني لم أعثر عليها قط..

قرأت الكتاب مرتين، وثلاثة، دون أدنى جدوى..

الرباعية الوحيدة، التي ذكرت إسم (ملك الرعب)، هي تلك التي تقول :

في عام 1999 وسبعة أشهر..

سوف يأتي ملك الرعب من السماء.

وسيعود إلى الحياة ملك المغول العظيم

سيحكم قبل الحرب وبعدها في سعادة..

ولو أننا طبقنا قاعدة الإزاحة، الخاصة بما يذكره (نوستراداموس) من تواريخ، فهذا يعني أن ما أشار إليه يمكن أن يحدث خلال عشر سنوات، قبل أو بعد التاريخ المذكور..

والإشارة إلى المغول هنا تلقى على الصينيين تبعة إشعال الحرب، في نهايات

القرن العشرين، أو بدايات القرن الحادي والعشرين..
ولكن هناك تنبؤات أكثر دقة، بشأن ما أصاب (نيويورك)، منها مثلاً تلك التي تقول :
حريق هائل يحدث، بعد شروق الشمس..
الضوضاء والضياء ينتشران نحو الشمال
الموت والصرخات في كل مكان من الكرة
وهناك المزيد، مع الأسلحة، والنار، والمجاعة.
راجع معي هنا أن الضربة قد حدثت في الصباح الباكر، بعد شروق الشمس، وأن الدخان، الذي رأيناه جميعاً، في كل مكان فى الكرة الأرضية، كان يتجه وينتشر نحو الشمال، والقتلى من كل الجنسيات، والعالم كله رأى ما حدث، وصرخ وبكى، ثم جاءت الحرب، بالأسلحة والنار والمجاعة..
كل الباحثين، في كل العصور، إعتبروا هذه الرباعية إشارة إلى كارثة تحدث في (نيويورك)، وحددوا زمنها فلكياً ببدايات القرن الحادي والعشرين..
ثم أنه هناك رباعية أخرى، تقول:
السماء تحترق، بين الأربعين والخمسة وأربعين درجة
الحريق في المدينة العظيمة الجديدة
اللهب الكبير ينتشر إلى أعلى مباشرة
والكل يسعى للحصول على دليل من النورمانديين.
لاحظ أن (نيويورك) تقع بين خطى عرض 40°، و45° على الخرائط، والنيران اشتعلت في برجي التجارة العالمي، وإنتشرت إلى أعلى، وبعد إنهيارهما راح الأمريكيون يبحثون عن دليل لإدانة (أسامة بن لادن)، الذي إتجهت إليه أصابع إتهامهم منذ اللحظة الأولى..
والعجيب أنهم، حتى في هذا إستعانوا برباعيتين من رباعيات (نوستراداموس) ؛ لتأكيد إتهامهم، إحداهما تقول :
يحافظ الرجل النحيف على الحكم تسع سنوات..
ثم يقع في تعطش دموي رهيب
أمة عظيمة تموت من أجله، دون إيمان أو قانون
ثم يقتل على يد رجل أفضل منه
ومن منظورهم، رأى الأمريكيون أن النحيف هو (أسامة بن لادن)، والأمة التي ستموت من أجله دون طائل هي الأمة الإسلامية، أما الرجل الأفضل منه فهو الرئيس الأمريكى بالطبع..
هل يمكن أن يقنعك هذا التفسير؟!..
أما الرباعية الثانية، والتي يتصوَّرون أنها تشير إلى حربهم طويلة الأمد، والضربات الجوية العنيفة، وصمود (أسامة بن لادن) وجيشه، والدماء التي ستسيل أنهاراً، فهي تلك التي تقول:



في ظل السلطة الصارمة للشيخ الملتحي
توضع قواعد العقاب الصارم
الشخص العظيم يثابر إلى حد بعيد
ضوضاء الأسلحة في السماء، والبحر الليغورى أحمر
وبالنسبة لزمن كتابة هذه الرباعيات، كان البحر الليغورى هو الجزء الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسِّط..
ولكن لاحظ هنا الحديث عن ضوضاء الأسلحة في السماء، والذى يشير إليه (نوستراداموس) في عدة مواضع من رباعياته، كلما أراد وصف معركة جوية..
والأمريكيون يميلون بشدة إلى تصديق الرباعيتين، مادام الإنتصار سيتحققً لهم فيهما في النهاية، ولكن الرعب يزلزل كيانهم حتى النخاع من رباعية أخرى مخيفة، تقول في وضوح:
حديقة العالم، قرب المدينة الجديدة..
في طريق الجبال المجوَّفة.
يتم الإستيلاء عليها وتقحم في الصهاريج.
المدينة تَجبر على شرب ماء مسمَّم بالكبريت.
فمدينة (نيويورك) تعتمد في ماء الشرب على المياه الجوفية الجبلية، والرباعية هنا تشير إلى عملية لتسميم هذه المياه، لقتل المدينة كلها..
إنها الحرب الكيماوية أو البيولوجية، التي أصبح كل مخلوق في (أمريكا) يرتجف منها، وخاصة بعد ظهور حالات إصابة بالجمرة الخبيثة بالفعل..
و(نوستراداموس) يشير أيضاً إلى حرب عنيفة، تحدث في بدايات القرن الحادى والعشرين، ولقد حدَّد هذا عندما يقترن المشتري، ورمزه الصولجان، بالمريخ، وهذا سيحدث -فلكياً- في الحادي والعشرين من يونيو 2002م..
وفي رباعيته، يقول الرجل :
المريخ والصولجان سيقترنان..
حرب مدمرة تحت برج السرطان
بعدها بفترة قصيرة يأتي ملك جديد
وسيجلب السلام للأرض لفترة طويلة
إذن، فهو يتوقع إندلاع الحرب في يونيو 2002م، ثم يعقبها عهد من السلام..
والعجيب أن هذا ما يتوقَّعه العالم أجمع، بعد أن بدأت (أمريكا) حربها مع الأفغان بالفعل..
أن تتطوَّر الأمور، وتحدث المشكلات، على الحدود الإيرانية، والروسية، والصينية، مما يؤدي إلى اشتعال الموقف أكثر.. وأكثر.. وأكثر..
ولكن ليس بالضرورة أن نتصوَّر أن كل ما يقوله أو يتنبأ به (نوستراداموس) قابل للحدوث، فكما قلنا من قبل، نسبة النجاح لا ينبغي أن تصل إلى مائة في المائة أبداً..

يكفينا سبعون أو ثمانون في المائة..
ولقد تجاوز (ميشيل دى نوستراداموس) هذه النسبة بكثير..
وذات يوم، وفي أيام شبابه الأولى، أراد أحد المتشككين أن يختبر قدراته، فدعاه إلى منزله، وإصطحبه إلى حظائره ليريه خنزيرين، أحدهما أسود، والآخر أبيض، وسأله: أيهما سيتناولونه على العشاء، فأخبره (ميشيل) أنهم سيتناولون الأسود؛ لأن الأبيض سيلتهمه ذئب..
وهنا أمر الرجل بذبح الخنزير الأبيض، وتقديمه على العشاء، وإغلاق كل الأبواب؛ لمنع أي ذئب من الدخول..
ولكن ذئباً مهجَّناً، يحيا في كنف الرجل، إختطف الخنزير الأبيض قبل طهيه، وإختفى به، فلم يجد الطاه أمامه سوى ذبح الأسود، وتقديمه على العشاء..
وكان هذا إنتصاراً للفلكي (نوستراداموس)، الذي لم يبال أبداً بما يتركه خلفه من إنبهار، ولم يسع قط للشهرة أو الثراء، وإن قضى أيامه الأخيرة يراجع الطالع، ويقرأ النجوم لأصدقاء وصديقات زوجته..
أما آخر نبوءاته، فقد إختصت به شخصياً، إذ تفاقمت إصابته بمرض النقرس، وتحوَّلت إلى الإستسقاء، ورقد تماماً في فراشه، وذات يوم، وبينما طبيبه يفحصه، إبتسم (نوستراداموس) في شحوب، وأخبره أنها آخر مرة يراه فيها، وأن عينيه لن تقعا عليه بعدها قط، ولكن الطبيب طمأنه بأن حالته تتحسَّن، ثم ضحك وهو يُضيف أنه، وعلى أسوأ الفروض، سيراه جثة هامدة..
ولكن هذا لم يحدث قط..
لقد مات (ميشيل دى نوستراداموس) في فراشه فى هدوء، في الأوَّل من يوليو عام 1566م، في حين أصيب طبيبه في الليلة نفسها بالتواء في كاحله، فلم يلق عليه نظرة واحدة، حتى تم دفنه..
وغادر (نوستراداموس) العالم، تاركاً خلفه تاريخاً حافلاً، وكتاباً يحوى كومة من الرباعيات، ما زالت تصيبنا بالدهشة والإنبهار، وما زالت تواصل نجاحها وقوتها..
عبر القرون.

× × ×

الإنفجار الغامض..



على الرغم من سطوع الشمس، على غير العادة، في تلك البقعة من أصقاع (سيبيريا) الرهيبة، في الثلاثين من يونيو، عام 1908م، إلا أن درجات البرودة ظلت منخفضة إلى حد تجاوز السفر، إلى عشرين درجة سالبة على الأقل، وإن لم يمنع هذا حيوانات الرنة من الخروج في رشاقة؛ سعياً وراء رزقها، ولا المزارعين من ترك فراشهم الدافئ، ودفع ما شيتهم إلى الحقول، التي غطت الثلوج معظمها، وتركها ترعى طيلة النهار كالمعتاد..

ومع ما يمثله كل هذا من صعوبات جمة، بدا الجميع هادئين متآلفين مع ما حولهم، باعتبارها بيئتهم الأصلية، التي نشأوا وترعرعوا فيها، و...

وفجأة، تغيَّرت كل الأمور..

وبعنف..

ففي الخامسة تقريباً، ومع إختفاء آخر ضوء للشمس، التي لم تسمح لها الغيوم الكثيفة بالسطوع طويلاً، بدأت حيوانات الرنة تغادر الحقول، وراح المزارعون يجمعون ماشيتهم كالمعتاد..

وفي تمام الخامسة، وسبع عشرة دقيقة بالضبط، دوى الإنفجار..

إنفجار هائل رهيب، إرتجت له منطقة نهر (تانجسكا) كلها بمنتهى العنف، حتى إختل توزان المزارعين، وأصيبت ماشيتهم بالذعر، وراحت حيوانات الرنة تعدو في كل مكان بلا نظام..

ومع الإنفجار، إرتفعت كتلة هائلة من اللهب..

كتلة أقسم كل من شاهدها، من مزارعي المنطقة، وسكان المناطق المجاورة والمتاخمة، أنها أضخم وأغرب من أي شيء رأوه، في حياتهم كلها..

وخُيِّل للكل أن الشمس قد سقطت على الأرض، على حد قولهم؛ لأن السماء كلها أضاءت بوهج رهيب..

وهج لم يحيل مساء (تانجسكا) إلى نهار فسحب، وإنما امتدّ إلى ما هو أبعد من هذا..

أبعد بكثير..

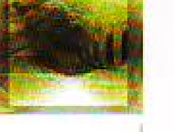
فكل سكان (روسيا) بلا إستثناء رأوا الضوء، بل وأمكنهم السير في قلب الليل، دون الحاجة إلى أية مصابيح، حتى شروق شمس اليوم التالي..

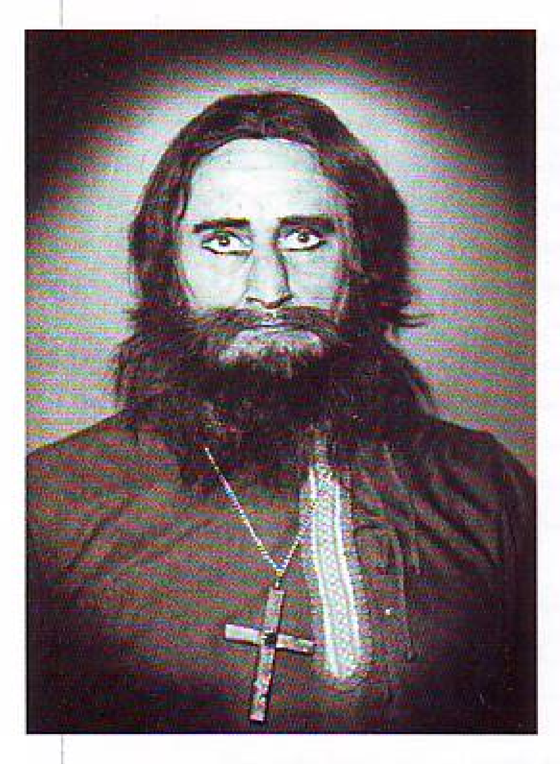
وفي (ستوكهولم)، أمكنهم التقاط عدد من الصور الضوئية، بكاميراتهم محدودة الإمكانيات، في قلب الليل، دون الحاجة إلى وميض مصابيح التصوير..

الصحف الإنجليزية أكّدت أن قرّائها كان بإمكانهم قراءة الأحرف الصغيرة، من جريدة (التايمز)، في منتصف الليل..

الألمان خطوا بنهار، دام أكثر من أربع وعشرين ساعة..

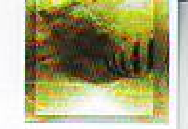
الهنولنديون عجزوا عن رصد النجوم، بسبب الضوء المبهر..





الراهب الروسي (راسبوتين) الذي سيطر على القياصرة بقدراته الغامضة لينتهي الأمر به مقتولاً بالسم و الرصاص و دفن في الثلوج .

كل هذا أكّده الشهود، وسجلته الصحف والوثائق..
والكتب أيضاً..
وبالذات في (روسيا)، التي أكّد أحد مزارعيها، والذي كان يجلس على بعض ستين كيلو متراً في موقع الإنفجار، أنه شعر بلفح النيران، ورأى كرة هائلة من اللهب، ترتفع إلى السماء، قبل أن يلقيه الإنفجار بعيداً..
ليس هذا فحسب، وإنما أطاح بسقف منزله أيضاً، إلى مسافة مائة متر كاملة..
ولأن الحدث رهيب، ومفاجئ، وشبه عالمي، فقد سرى الرعب في نصف الكرة الأرضية على الأقل، قبل أن تمتد الأخبار إلى العالم كله فيما بعد..
ومع إنتشار الأخبار، بدأت التساؤلات..
ما هذا الإنفجار الرهيب؟!..
كيف حدث؟!..
وكيف إكتسب كل هذه القوة، التي لم يعرفها العالم قبلها قط، في زمن ما قبل القنابل الذرية، والنووية، والهيدروجينية؟!
ولأن الناس أعداء ما يجهلون، وخصوم ما يخشون، ويميلون دوماً إلى الفزع والخوف والتشاؤم، فقد خرجت بعض الآراء في سرعة، تعلن أن هذا الإنفجار مجرَّد إنذار من السماء، والخطوة الأولى في طريق فناء العالم..
ومن هول ما رآه الناس وشعروا به، إنتشرت تلك الفكرة في سرعة، وإمتدَّت إلى كل بقاع الأرض..
فيما عدا (روسيا) أيضاً..
ففي تلك الفترة، وعلى الرغم من الظاهرة الغريبة والمفزعة، لم يحرِّك مخلوق واحد، في (روسيا) القيصرية - آنذاك - إصبعاً، للبحث عن سبب حدوث هذا الإنفجار العجيب.. والغامض؛ لأن الإضطرابات السياسية كانت قد بلغت مدى، إنشغل به الكل عن سواه، وإنشغلوا أكثر بذلك الراهب الرهيب (راسبوتين)، الذي سيطر في ذلك الحين على القيصر والقيصرة، وأصبح صاحب الكلمة الأولى في القصر، والمتسبِّب الأوَّل في أوجاع الشعب ومتاعبه..
ومع إنشغال الكل بالسياسة ومتاعبها، تجاهلت كل الجهات الرسمية الروسية ما حدث، وتعاملت معه بإعتباره مجرَّد ظاهرة غير مفهومة، لا تستحق البحث عنها، أو حتى معرفة أسبابها..



كل ما حدث، وبصفة غير رسمية، هو أن فريقاً من العلماء قد كوَّن بعثة إستكشافية، على نفقة أفراده، وذهبوا إلى موقع الإنفجار، عند نهر (تانجسكا)، في أعماق صقيع (سيبيريا)، وتفقَّدوا المكان، وسجلوا ما رأوه، حتى أصابتهم بعض الأعراض العنيفة، التي تسبَّبت في موت إثنين منهم بسبب الجفاف، وسط ثلوج تحيط بهم من كل جانب، وإصابة الآخرين بنوع عجيب من القروح، فشلت كل محاولات علاجها، بعد عودتهم إلى (موسكو)، مما أدى إلى تفاقم الحالة، ووفاة الباقين خلال شهرين من عودتهم، دون أن يُشخِّص طبيب واحد طبيعة مرضهم، الذي لم تسجله أية مراجع طبية علمية من قبل..

ومع تجاهل السوفيت للأمر، راحت قصة إنفجار (سيبيريا) تهدأ، وتهدأ، حتى تلاشت تماماً، وضاعت في خضم الأحداث، وإندلاع الحرب العالمية الثانية، التي أكَّد العديدون تورّط الراهب (راسبوتين) فيها، مما دفع مجموعة من النبلاء إلى التخلُّص منه وقتله، قبل عام واحد من قيام الثورة البلشيفية 1917م، والتي كانت النتيجة الحتمية للإضطرابات السياسية، التي لم يتمكَّن القصر من السيطرة عليها أبداً..

ومع بدايات الثورة البلشيفية، تغيَّرت أمور كثيرة في (روسيا) الجديدة، ليس هذا مجال شرحها، ولكن كل ما يهمنا منها هو ما حدث بعد قيامها بأربع سنوات تقريباً..

وبالتحديد في عام 1921م..

ففي ذلك الحين، بدأ أوّل بحث علمي وفعلي وجاد، عما أطلق عليه الكل إسم (إنفجار سيبيريا)، على يد العالم السوفيتي الشاب (ليونيد كوليك)..

والواقع أن (كوليك) كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنوات، بفارغ الصبر،

وبالتحديد منذ قرأ صحيفة محلية قديمة، تصف ذلك الإنفجار الكبير بقولها :

- «شاهد الفلاحون جسماً شديد الإضاءة، يهبط من السماء، في الشمال الغربي، بميل واضح، وبدا لهم أشبه بجسم إسطواني منتظم، وعندما بلغ ذلك الجسم الإسطواني سطح الأرض، إنسحق تماماً، وتكوَّنت حوله سحابة هائلة من الدخان الأسود، إستمرَّت لثوان، قبل أن يدوى صوت إنفجار هائل رهيب، أشبه بإنطلاق ألف ألف مدفع جبار، وإهتزَّت القرية كلها، وتصوَّر الجميع أنها نهاية العالم»..

هذا بالضبط ما نشرته الصحيفة القديمة، التي أثارت إنتباه (كوليك)، وخلبت لبه، ودفعته إلى السعي لكشف ما حدث هناك..

في أعماق (سيبيريا)..

والوصف، الذي ورد في الصحيفة القديمة، تم نقله عن شاهد عيان، لم يبال به أحد أيامها، ولكنه بدا، بالنسبة للعالم الشاب (كوليك)، كطرف خيط قوي، يمكن أن يقود إلى تفسير إنفجار (سيبيريا) الغامض..

ولكن رغبة (ليونيد كوليك)، كانت ترتطم بالعقبة التقليدية، في كل الأبحاث

العلمية عبر التاريخ..
التمويل..
فالسفر إلى منطقة نهر (تانجسكا)، في أعمق أعماق (سيبيريا)، وإجراء الفحوص اللازمة، والدراسات الكافية، والبحث عن تفسير علمي أو منطقي لإنفجار غامض، حدث منذ عدة سنوات، كان يحتاج حتماً إلى تمويل ضخم..
لذا فقد بدأ (كوليك) الجزء الأوَّل من رحته، داخل (موسكو) نفسها، في ظلّ نظام شيوعي متعسِّف، يولي إهتماماً كبيراً للأموال، ويضع أولويات للإنفاق العسكري، والإجتماعي..
وطالت رحلة (كوليك)، وهو ينتقل من جهة إلى أخرى، ويرتطم بالرفض، والإنكار، والإستنكار، حتى أصابه اليأس أو كاد، وقرَّر التخلّي عن الفكرة كلها، وقلبه يقطر دماً..
وذات ليلة شديدة البرودة، من ليالي يناير عام 1927م، عاد (كوليك) إلى منزله يائساً بائساً، و...
وكانت في انتظاره مفاجأة هناك..
مفاجأة مدهشة.

× × ×

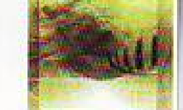
لم تبلغ برودة الطقس، منذ بدايات القرن العشرين، ما بلغته في تلك الليلة، من ليالي يناير 1927م. والعالم الشاب (ليونيد كوليك) يعود إلى منزله بائساً يائساً، و...
«أأنت (ليونيد كوليك)؟!...»..
صدمه السؤال، الذي إنبعث من بقعة مظلمة، في مدخل المنزل، في مرحلة تميَّزت بالإعتقالات الليلية، وإغتيال الخصوم والمعارضين، أو نفيهم إلى معتقلات (سيبيريا)؛ لتتجمَّد مشاعرهم وأفكارهم هناك، وسط ثلوجها الرهيبة، التي تمتدّ إلى مدى البصر، في كل الاتجاهات..
وبصوت مرتجف، وأعصاب جمَّدتها المفاجأة، أجابه (كوليك) :
- نعم.. هو أنا.. من يريدني؟!
برز من قلب الظلمة رجل قصير، صارم الملامح، مد يده إليه، مجيباً بنفس الغلظة غير المبرَّرة، التي ألقي بها سؤاله الأوَّل :
- (فيدور كواليسكي).. من أكاديمية العلوم السوفيتية.
صافحه (كوليك) بأصابع مرتجفة، وقلبه يخفق في عنف، فأضاف الرجل بنفس الغلظة، وهو يسحب يده في برود:
- لقد وافقنا على تمويل حملتك، ونريدك أن تبدأ في أقرب فرصة..
وطار قلب (كوليك)، من شدة الفرح..



لم يكن يدري أيامها أن سبب موافقة أكاديمية العلوم، على تمويل رحلته، لم يكن علمياً بالدرجة الأولى..
بل كان عسكرياً..
فمن حسن حظه أن أحد الجنرالات السوفيت طالع قصة الإنفجار، وبدا له أن كشفه يمكن أن يقود إلى إبتكار سلاح جديد فتاك، قادر على سحق الأعداء بضربة واحدة..
ولأن ذلك الجنرال كان يحتل منصباً رفيعاً، في القيادة الجديدة، فقد أصدر أوامره إلى طاقم أمنه، بالبحث عن المهتمين بأمر ذلك الإنفجار، مما قاده على نحو غير مباشر إلى (كوليك)..
وبعد مطالعة ملف (كوليك)، وسعيه للبحث عن تمويل لرحلته الإستكشافية، رفع ذلك الجنرال سمّاعة هاتفه، وإتصل بأكاديمية العلوم السوفيتية وكان ما كان..
ولم يكن (كوليك) يعلم كل هذا، إلا أنه، حتى ولو عرف كل التفاصيل، لم يكن لتنازل قط عن تلك الفرصة الذهبية، لبحث أسباب إنفجار (سيبيريا)،..
وفي كل الأحوال، لقد قبل التمويل، وتمسّك به، وتشبّث بالفرصة، وبدأ رحلته..
ويا لها من رحلة..
لقد إستقل (كوليك) وفريقه القطار، وقطعوا به (سيبيريا) كلها تقريباً، حتى نهاية الخط، في بلدة (تيشيت)، ومن هناك إستخدموا الجياد والزحافات، حتى (فانافارا)..
و(فانافارا) هذه كانت آخر المناطق المأهولة والمسكونة، في صحراء (سيبيريا) الجليدية، قبل أن تبدأ منطقة (التايجا)..
ولو أنك ذكرت كلمة (التايجا)، في أي مكان من الإتحاد السوفيتي، في تلك الفترة، لاتسعت عيون سامعيك في هلع، وإصطكّت أسنانهم وركبهم في رعب بلا حدود..
هذا لأن (التايجا) هي المجهول..
المنطقة الرهيبة من (سيبيريا)، في ذلك الحين، والتي ظلّت تثير الرعب في القلوب والنفوس، حتى بعد أن أقيمت فيها بعض المدن الحديثة، بعد الحرب العالمية الثانية..
ولأن الفضول العلمي يفوق دوماً الخوف والرعب، التقط (كوليك) وفريقه أنفاسهم في قوة، ثم غاصوا في (التايجا)..
وكانت مرحلة رهيبة بحق، من تلك الرحلة..
الرحلة التي إستغرقت شهراً كاملاً، في أعمق أعماق (التايجا)، ذاق خلاله (كوليك) وفريقه الأمرّين، وواجهوا الأهوال، وسط صقيع (سيبيريا)، وثلوجها الرهيبة، حتى بلغوا نهر (ميكيرتا)..
وهناك، كانت البداية..
لأوّل مرة، منذ بدأت الرحلة، رصد (كوليك) وفريقه أوّل علامة من علامات



الإنفجار..
كانت كل الأشجار في المنطقة قد أقتلعت من جذورها، وتراصت على نحو منتظم، ككتيبة عسكرية لقيت مصرعها فجأة، أثناء طابور الصباح..
وكانت كلها تلتزم بإتجاه واحد..
فكل قممها، بلا إستثناء، كانت تتجه نحو الجنوب الشرقي..
وسجَّل (كوليك) هذه الملحوظة..
وقام الرسَّام المصاحب للفريق برسم الأشجار، في موضعها هذا..
ثم واصل الكل رحلتهم..
وكلما توغَّلوا أكثر، كانت علامات الدمار تبدو أكثر شدة وبشاعة..
حتى أشجار (التايجا) الهائلة، إقتلعها الإنفجار إقتلاعاً من جذورها، وصفَّها على النحو نفسه، بحيث كانت قممها كلها في إتجاه الجنوب الشرقي، وجذورها تشير إلى الشمال الغربي، حيث مركز الإنفجار حتماً..
ومع الدمار والخراب، بالإضافة إلى الإرهاق والتعب، والرعب والهلع، توقَّف أفراد فريق (كوليك)، ورفضوا الإستمرار في الرحلة..
وهنا، إنتقل كل الرعب والهلع إلى (كوليك) نفسه، الذي حاول في إستماتة إثنائهم عن قرارهم، وإقناعهم بمواصلة الرحلة..
ولكن هيهات..
الرجال الذين إلتهمهم الرعب، تشبَّثوا بموقفهم، وأصرّوا على قرارهم، وكأنما يدركون أن الجحيم ينتظرهم، لو تقدموا كيلو متراً واحداً..
ولم يعد أمام (كوليك) سوى الإنصياع..
وبقلب تملؤه الحسرة، إنصاع (كوليك) للموقف، وأنهى الرحلة، وعاد إلى (موسكو) بكل المرارة..
ولكنه لم يستسلم..
ولأنه لم يكن قد إستهلك كل التمويل المخصص لحملته، راح (كوليك) يبحث عن مرافقين جدد، إلى أن عاود الكرة مرة أخرى، في يونيو من العام نفسه..
وبدأ رحلته من جديد..
الفارق الوحيد، في هذه المرة، هو أنه كان يعرف طريقه جيِّداً، حتى أن الرحلة قد إستغرقت وقتاً أقل بكثير، للوصول إلى (التايجا)، والتوغّل فيها، حتى بلغ منطقة يُطلق عليها إسم (المراجل)..
وهناك، خفق قلبه في شدة..
بل وبمنتهى الشدة..
ففي تلك المنطقة، عند نهر (تانجسكا)، كان كل شيء يؤكِّد أنهم في مركز الإنفجار..
فالأشجار المقتلعة، لم تكن قممها تتجه نحو الجنوب الشرقي فحسب، بل نحو كل الإتجاهات، وهي متراصة على نحو منتظم، تاركة فيما بينها دائرة واسعة خالية



تماماً..
خالية من الأشجار، والنباتات..
وحتى الحشرات..
الأعشاب الصغيرة، المقاومة للبرودة، كانت تنمو وتنتشر في كل المنطقة..
فيما عدا تلك الدائرة..
وأمام ذلك المشهد، وقف (كوليك) وفريقه مبهورين، وبدا لهم أنهم قد توصَّلوا إلى كشف هائل، مما أعاد النشاط إلى عروقهم، فراحوا يسجلون ويرسمون ويصورون كل ما حولهم..
وبالذات تلك النباتات، التي بدت غريبة وغير مألوفة، عند الحدود القريبة للدائرة..
ومن منطلق تخصصاتهم، راح كل منهم يكتب تقريره، ويصف ما يراه..
ثم بدأت الحالات المرضية..
المغص، والإسهال المعوي، والتقرحات الحادة..
ومرة أخرى، إضطر (كوليك) للعودة مع فريقه، ولكنه في هذه المرة، كان يحمل تقريباً موقَّعاً من معظم أفراد الفريق، يؤكِّد أن ما حدث في (تانجسكا) هو أن نيزكاً هائلاً من الصلب قد هوى على المكان، وإنفجر، مسبباً كل هذا الدمار..
وكان (كوليك) مطمئناً تماماً إلى تقريره هذا، وإلى أنه قد وجد حل اللغز، وأنهى مشكلة الإنفجار الغامض، على الرغم من أنه لم يستطع تفسير الأعراض التي أصيب بها بعض أفراد الفريق، والتي أدت إلى موت إثنين منهم، ولا ما أصاب تلك النباتات المتحوِّرة، عند مركز الإنفجار..
ولم تكن لديه حتى الفرصة للبحث عن التفسير..
فعقب إصداره كتابه، المعروف بإسم (إنفجار سيبيريا.. التفسير الحاسم)، وتعليق العلماء عليه، إندلعت الحرب العالمية الثانية، وإشتعلت النيران في (أوروبا) كلها، ثم لم تلبث أن امتدَّت إلى الإتحاد السوفيتي نفسه..
وتغيَّر معها الموقف كله، بالنسبة للعالم الشاب (كوليك)، وبالنسبة لفكرة إنفجار (سيبيريا) نفسها..
تغيَّر تماماً.

× × ×

في عام 1939م، وبعد مرحلة طويلة من تثبيت الأقدام، وإعادة بناء الجيش، أسفر (أدولف هتلر) عن نواياه الحقيقية، وبدأ في إجتياح أوروبا بلا هوادة..
وعلى الرغم من معاهدة الدفاع المشترك، التي وقَّعها مع السوفيت، قرَّر (هتلر) فجأة غزو (روسيا)، فأطلق جيوشه نحوها، في عملية رهيبة، حملت إسم (بارباروسا)، أو ذي اللحية الحمراء..

وإنطلقت الجيوش النازية نحو روسيا الحمراء، وراحت تحصد كل من يواجهها من أرواح، بلا رحمة أو شفقة..

ومن بين من حصدتهم الأسلحة النازية، كان العالم الشاب (ليونيد كوليك)، بكل خبرته ومعلوماته عن إنفجار (سيبيريا)..

ومع الإنفجارات والنيران والرصاصات، في كل مكان، لم يبال أحد بموت (كوليك)، أو بقصة ذلك الإنفجار الغامض في (تانجسكا)..

ولكن التقدُّم الألماني لم يستمر..

فمع مجموعة من القرارات الديكتاتورية الخاطئة، بدأ النازيون يتلقون الهزيمة تلو الأخرى، مما أجبرهم على التراجع، والإندحار، والهزيمة المريرة، في قلب (برلين) نفسها..

وحتى لا يقع في قبضة السوفيت، إنتحر الزعيم النازي (أدولف هتلر)، مع عدد من رجاله، وأطبق الحلفاء على (برلين) من الجانبين، وإندحرت (ألمانيا) النازية، وسقط الرايخ الثالث سقوطاً مدوياً..



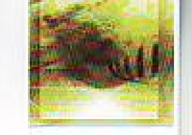
صورة لانفجار القنبلة النووية التي ألقتها أمريكا على هيروشيما و ناجازاكي ، لتضع نهاية مأساوية للحرب العالمية الثانية .

وبعد فترة قصيرة، ألقت (أمريكا) قنبلتيها الذريتين، على (هيروشيما) و(ناجازاكي)، ومحتهما تماماً من الخريطة، لتضع الحرب أوزارها، وتبدأ عملية إعادة البناء، في (أوروبا) والإتحاد السوفيتي..

وفي الوقت ذاته، بدأت عملية رصد آثار القنبلة الذرية، وتداعياتها، وتأثيراتها الإشعاعية، و...

وفجأة، توقَّف أحد العلماء أمام التقارير، التي تصف آثار قنبلة (هيروشيما)، والتي بدت له مشابهة كثيراً لتقارير (ليونيد كوليك)، حول ذلك الإنفجار الغامض في (تانجسكا)..

ذلك العالم كان سوفيتياً أيضاً، يُدعى (زولوتوف)،



وكان أحد المسئولين عن دراسة آثار إنفجار (هيروشيما)؛ لمعرفة طبيعة ذلك السلاح الرهيب، الذي توصَّل إليه الأمريكيون، وحصلوا بموجبه على زعامة العالم كله بضربة واحدة..

وعلى الرغم من دقة مهمة (زولوتوف) وخطورتها، فقد إنشغل لبعض الوقت، في البحث عن أوجه التشابه الكبيرة، بين إنفجار (هيروشيما)، وإنفجار (سيبيريا) الغامض..

ففي الحالتين، ووفقاً لتقارير بعثة (كوليك)، كان التدمير أقل نسبياً في مركز الإنفجار، منه في أطرافه..

كما أن بعض الأشجار قد ظلَّت واقفة في المركزين..

وفي كل من الإنفجارين، إرتفع عمود هائل من اللهب والدخان، على شكل فطر عش الغراب، وفي كليهما نبتت النباتات في سرعة، بعد فترة قصيرة، فيما عدا منطقة المركز..

الفارق الوحيد، الذي وجده (زولوتوف)، هو أن عمود الدخان واللهب، قد إرتفع لمسافة أعلى بكثير، في إنفجار (سيبيريا)، عنه في إنفجار (هيروشيما) الرهيب..

وبسرعة، ودون أن يضيع لحظة واحدة، راح (زولوتوف) يجري حساباته، ويضع معادلاته، ويدرس الإنفجارين، قبل أن يتوصَّل إلى نتيجة مدهشة، أذهلته هو شخصياً قبل سواه..

فوفقاً لما توصَّل إليه، لم يكن إنفجار (سيبيريا) بسبب نيزك من الصلب، وإنما كان إنفجاراً ذرياً، بكل ما تحمله الكلمة من معان..

إنفجار أقوى ألف مرة من إنفجار (هيروشيما)..

وبكل لهفته، حمل (زولوتوف) كل حساباته، ومعادلاته، ونتائجه إلى القيادة العسكرية، ووضعها بين أيديهم، مطالباً بتمويل حملة إستكشافية جديدة، لكشف لغز ما حدث هناك..

في أعماق (سيبيريا)..

وفي تلك الفترة بالتحديد، ومع النتائج التي توصَّل إليها (زولوتوف)، لم يكن من العسير عليه أن يحصل على التمويل اللازم..

بل وأكثر من اللازم أيضاً..

فالسوفيت، في تلك المرحلة، كانوا مستعدين لدفع أعمارهم نفسها، في سبيل كشف أسرار القنبلة الذرية، والفوز بوسيلة إنتاج السلاح نفسه، الذي وضع الأمريكيين على قمة العالم..

وفي أوائل عام 1947م، قاد (زولوتوف) حملته إلى (التايجا)، حيث مركز إنفجار (تانجسكا)، في قلب (سيبيريا)..

ولم تكن الرحلة شاقة هذه المرة، كما كانت مع فريق (كوليك)، فقد تطوَّرت وسائل النقل، والطيران والإعاشة، كتداع حتمي لسنوات الحرب الطويلة..

ووصل (زولوتوف) وبعثته إلى مركز الإنفجار، وهم يرتدون ثياباً واقية من التأثيرات الإشعاعية النووية، بعد أن إفترض العالم السوفيتي أن كل الأعراض، التي أصابت كل من سعى لحل لغز إنفجار (سيبيريا) الغامض، قد نجمت عن التأثيرات الإشعاعية، التي لم يكن من الممكن أن يفهمها أو ينجح في تشخيصها الأطباء، قبل إنفجار (هيروشيما)..

ولقد بدأت بعثة (زولوتوف) دراستها للأمر، من منظور جديد ومختلف تماماً..

وكانت النتائج مدهشة.. بل مذهلة..

وإلى أقصى حد..

فكل شيء، في مركز الإنفجار، كان يشير إلى الآثار النووية لما حدث..

كانت هناك تغيرات وراثية عنيفة، في نباتات وحشرات (سيبيريا)، في منطقة الإنفجار، توحي بأن أجدادها قد تعرَّضت لإشعاعات ذرية، أدت إلى حدوث تحورات في جيناتها الأساسية..

وكانت هناك أيضاً تقرحات واضحة، على أجسام الحيوانات هناك، تماماً كما حدث في (هيروشيما) بعد الإنفجار..

وسجَّل أفراد البعثة كل هذا، وجمعوا عينات من النباتات والحشرات المتحوِّرة، وأسروا إحدى الحيوانات المصابة، قبل أن ينتبهوا إلى أن الأمر لا يقتصر على هذا فحسب..

ففي منطقة الإنفجار، عثر فريق العلماء أيضاً على أنواع من مادة (السيليكا)، تحوي في قلبها فقاعات هوائية، تماماً كتلك التي يتم رصدها بالتحليل الطيفي، عبر جهاز (سبكتروجراف)، للأجسام الفضائية..

وعثروا أيضاً على قطع من الفسفور النقي..

والفسفور النقي مادة يستحيل وجودها في الطبيعة، بل ويحتاج تصنيعها إلى تكنولوجيا كانت وما زالت عسيرة ومعقَّدة للغاية..

وكانت هناك عناصر نادرة، ومثيرة للدهشة، مثل عنصر (الديوتريوم)، النادر جداً..

ودون أدنى تردُّد أوشك، سجَّل العلماء في تقريرهم أن ما حدث عند نهر (تانجسكا)، في أعماق (سيبيريا)، هو إنفجار نووي، بشكل أو بآخر..

ولم يكتف العلماء بهذا..

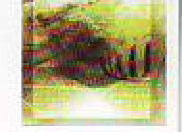
لقد أكدُّوا أيضاً أن ذلك الإنفجار النووي لم يحدث، عند إرتطام جسم ما بكوكب الأرض..

لقد حدث، قبل أن يبلغ ذلك الجسم الأرض!!..

وبالتحديد على إرتفاع ثمانية كيلو مترات بالتحديد..

الأمر إذن لا يمكن أن ينشأ عن نيزك من الصلب، كما قالت تقارير فريق (كوليك) فيما قبل..

لقد كان أمراً مختلفاً..



مختلف تماماً..
ووسط كل هذا النشاط، كان (زولوتوف) يعيد حساباتها، ومعادلاته، ويستمع إلى أقوال الشهود..
ليس شاهداً أو شاهدين، أو حتى عشرة..
لقد جمع (زولوتوف) هذه المرة أقوال أكثر من سبعمائة شاهد عيان، إستمع إليهم جميعاً في صبر وإهتمام، ودرس كل كلمة نطقوا بها، وكل إشارة ألمحوا إليها..
وبعد كل هذا، خرج (زولوتوف) إلى فريقه بنظرية جديدة تماماً..
نظرية فجَّرت كل دهشتهم، وحيرتهم..
وإستنكارهم أيضاً..
فالواقع أن نظرية العالم الأكاديمي السوفيتي (زولوتوف) كانت غريبة بحق..
غريبة ومذهلة..
إلى أقصى حد.

× × ×

مع رصد العالم الأكاديمي السوفيتي (زولوتوف) لأقوال شهود العيان، في واقعة إنفجار (سيبيريا)، إستوقفه وصف مدهش، إتفق عليه أكثر من سبعمائة شاهد..
فمع إختلاف طبائعهم ومواقعهم، إتفق الشهود السبعمائة، على أن ذلك الجسم الإسطواني المنتظم، الذي هبط لينفجر على إرتفاع ثمانية كيلو مترات من سطح الأرض، محدثاً ذلك الدمار الرهيب، قد تحرَّك أفقياً، أو على نحو شبه أفقي، من الجنوب الشرقي، إلى الشمال الغربي، وكأنه يُجري مناورة مدروسة، قبل أن يهوي إلى الأسفل، وينفجر..
وكان هذا يعني أنه ليس كتلة جامدة، أياً كان شكلها، عبرت الغلاف الجوي، لتنفجر فوق الأرض، بعد سقوطها أسيرة الجاذبية الأرضية..
لقد كان جسماً يمكن تغيير إتجاهه، ودفعه إلى القيام بمناورة ما، لم تنجح في منع سقوطه أو إنفجاره..
لذا، فقد أعلن (زولوتوف) نظريته الجديدة، التي أصبح يؤمن بها تماماً، وهي أن ذلك الجسم، الذي أحدث إنفجار (سيبيريا)، كان سفينة فضاء!!..
سفينة قادمة من عالم آخر، وتستخدم الطاقة النووية في تسييرها، وأن ركابها أدركوا أنها ستنفجر لا محالة، فاتجهوا بها نحو منطقة غير مأهولة، لتنفجر دون أن تؤذى سكان الأرض!!..
ووفقاً لنظرية (زولوتوف)، يكون كل ما عثر عليه العلماء في المنطقة، هو بقايا المركبة الفضائية بعد إنفجارها النووي..
وفي فترة كهذه، كان من الطبيعي أن تقابل نظرية (زولوتوف) بالإستنكار

الشديد، إلا أن واقعة رجل الأعمال (كينيث أرنولد)، في (واشنطن)، عام 1946م، والتي رصد خلالها مجموعة من الأطباق الطائرة، ومنحها ذلك الإسم، الذي ظل يرتبط بها، حتى يومنا هذا، إمتزجت بنظرية (زولوتوف)، لتنطلق إلى آلاف العقول، وتحصل على صدى مدهش..

أصحاب العقول المنطلقة والخيال الجامح، مالوا كثيراً إلى تصديق نظرية (زولوتوف)، وتأييدها بكل الحماس، خاصة وقد وجدوا فيها التفسير المنطقي والعلمي، لكل ما كان يحيط بالموقف كله من غموض..

ولكن العلماء رفضوا تأييد تلك النظرية بشدة..

لقد أكَّدوا أن إنفجاراً بهذا الحجم، من المستحيل أن يترك أية بقايا، يمكن إعتبارها الدليل على سقوط سفينة فضائية، من عالم آخر!..

بل إن فكرة وجود حياة عاقلة متطوِّرة، خارج حدود كوكب الأرض، كانت مرفوضة بإصرار، من قبل معظم العلماء، دون أدلة مادية حتمية على هذا.. ولقد دافع (زولوتوف) عن نظريته بإلحاح وحماس، وتمسَّك بها بمنتهى الشدة، في وجوه مخالفيه، ومعارضيه، ومستنكريه..

إلا أن القيادة العسكرية السوفيتية لم يرق لها هذا الصراع العلمي، ولو لحظة واحدة..

لقد موَّلت حملة (زولوتوف) لسبب واحد، ألا وهو العثور على أسرار القنابل الذرية، والإنفجارات النووية في قلب (سيبيريا)، وما دام هذا لم يتحقَّق فلا شأن لها بكل ما يحدث..

لذا، فقد أخمدت نظرية (زولوتوف)، وتم توجيه اللوم الشديد لصاحبها، بل وتحجيم دوره العلمي، في الأوساط السوفيتية أيضاً..

ومع إنخفاض صوت (زولوتوف)، إرتفعت أصوات معارضيه ومخالفيه، وذات نظرية الجسم الفضائي الموجَّه، على الرغم من كل ما تحمله من إثباتات ودلائل، وتوارت خلف عدة نظريات أخرى، تفوَّقت عليها كلها تلك النظرية الجديدة، التي وضعها العالمان (أ. جاكسون)، وزميله (ب.رايان)، والتي خالفت كل النظريات السابقة..

فمن وجهة نظر العالمين، كان الإنفجار ناشئاً عن إرتطام أحد الثقوب السوداء، ذات الحجم الدقيق بالأرض، مما أحدث هذا الإنفجار الهائل الرهيب، في منطقة (سيبيريا)..

والثقوب السوداء هذه هي نجوم محتضرة، إنكمش حجمها بشدة، بعد نفاذ طاقتها، فتضاعفت كثافتها آلاف المرات، وتزايدت جاذبيتها إلى حد مخيف..

وعلى الرغم من أن تلك الثقوب السوداء تمتص كل ما حولها، حتى الضوء نفسه، إلا أن حجمها يتقلَّص أكثر وأكثر، حتى يبلغ ما قد لا يزيد حجمه عن حجم قبضة يد عادية..

ومع شدة جاذبيتها، وصغر حجمها الشديد، قد تنجذب الثقوب السوداء نحو



الكواكب الأكبر حجماً، عند رغبتها في جذبها إليها، فتتدفع نحوها بسرعة هائلة، حتى ترتطم بها..

ثم يحدث الإنفجار..

إذن، فوفقاً لنظرية (جاكسون) و(رايان)،إنجذب ثقب أسود صغير نحو الأرض، وإرتطم بها، وأحدث ذلك الإنفجار الهائل!!

والنظرية قابلة للحدوث، من الناحية الإفتراضية والعلمية، إلا أنها لا تفسّر أقوال شهود العيان، عن الشكل الأسطواني للجسم الساقط، ولا عن مناورته الأفقية، قبل سقوطه وإنفجاره..

بل ولم تفسّر حتى العثور على تلك العناصر، في مركز الإنفجار، أو التحوّرات الوراثية، في النباتات والحشرات من حوله..

ولم تفسّر أكثر تلك الأعراض، التي أصابت الباحثين عن اللغز، أو معادلات (زولوتوف)، التي تربط بين الإنفجار وقنبلة (هيروشيما)..

لذا فقد فنت تلك النظرية، بأسرع مما ولدت..

ولقد حاول فريق من الباحثين الأمريكيين، في بدايات السبعينات، السفر إلى (سيبيريا)؛ لرصد الترددات الإشعاعية في منطقة الإنفجار، وتحديد ما إذا كان ما حدث هناك إنفجاراً نووياً من عدمه..

ولكن السلطات السوفيتية رفضت هذا بشدة..

ولقد برّر السوفيت رفضهم حينذاك، بأن منطقة (التايجا) وما حولها، قد أصبحت منطقة عسكرية محظورة، وأن التداعيات الأمنية تمنع تماماً وجود أي أجانب هناك..

ومهما كانت الأسباب..

والواقع أن السلطات العسكرية السوفيتية كانت قد أحاطت تلك المنطقة، من نهر (تانجسكا)، في قلب (سيبيريا)، بنطاق فولاذي رهيب، وكأنها تحاول حماية سر ما داخله..

سر ربما كشفه فريق علمائها، الذي أنشأ مركزاً دائماً هناك، لسبب لم يُعلن عنه أبداً، ولم تنشر أبحاثه قط، على المستوى العام..

ولقد أغضب قرار السوفيت فريق العلماء الأمريكي بشدة، وراح بعضهم يؤكّد أن الجهات العسكرية السوفيتية قد توصّلت بالفعل إلى سر إنفجار (سيبيريا) الغامض، وأنها تخفي ما توصّلت إليه؛ لأنه يمنحها تفوّقاً تكنولوجياً رهيباً، تحرص على الحفاظ عليه لنفسها وحدها..

وعلى كل الأحوال، وأياً كانت أسباب رفض السوفيت، أو مبررات غضب الأمريكيين، فقد أصبحت منطقة (تانجسكا) مغلقة، ولم يعد أمام العلماء سوى وضع نظريات جافة، تعتمد على تقارير بعثتي (كوليك) و(زولوتوف) وحدهما..

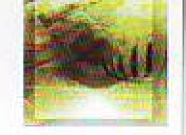
ولكن هذا لم يوقف المهتمين بالأمر، أو يفت في عضدهم، فقد واصلوا دراسة تلك التقارير القديمة، ليخرجوا علينا بنظرية جديدة مدهشة..



نظرية المادة المضادة..
فمن (كاليفورنيا)، في الولايات المتحدة الأمريكية، خرج العالمان (س. أتلوري)، و(ف.ليبي)، بنظرية تقول: إن جزءاً من المادة المضادة قد سبح طويلاً في الكون، حتى سقط أسير الجاذبية الأرضية، التي جذبته إلى الأرض، حيث إنفجر في هوائها..
والمادة المضادة هذه، هي مادة معكوسة، بالنسبة لقواعد المادة المعروفة في عالمنا..
فالتركيب الذري الطبيعي، لكل عنصر في عالمنا، يعتمد على وجود نواة موجبة، تدور حولها إلكترونيات سالبة، أما تركيب الذرة، في المادة المضادة، فهو يعتمد على نواة سالبة، تدور حولها بوزيترونات موجبة..
ووفقاً للقاعدة العلمية، لو التقت المادة بالمادة المضادة، يكون الناتج إنفجاراً هائلاً.. تماماً مثل إنفجار (سيبيريا)..
ولقد لاقت نظرية المادة المضادة هذه بعض القبول، من بعض فرق العلماء، إلا أن البعض الآخر إعترض عليها تماماً، مؤكداً أنها عاجزة عن تفسير كل غموض الإنفجار..وبالذات التحورات الوراثية..
وهنا، كان من الضروري البحث عن نظرية جديدة؛ لتفسير الموقف بأكمله..
وهذا ما فعله أحد العلماء الفرنسيين، عندما فاجأ العالم كله بإعادة طرح نظرية (كوليك)، ولكن مع تطوير جوهري..
للغاية.

× × ×

لأكثر من عشر سنوات، راح العالم الفرنسي (أ. فرانسوا) يقرأ ويدرس كل ما كُتِبَ عن إنفجار (سيبيريا)، بمنتهى الدقة والإهتمام، قبل أن يجد في نفسه ميلاً شديد للإقتناع بما إقتنع به العالم السوفيتي الشاب (ليونيد كوليك)، منذ عشرينات القرن العشرين..
فمن وجهة نظره أيضاً، كان ما حدث في أعماق (سيبيريا) ناشئاً عن سقوط جسم ما من السماء، كان يحوي بعض المواد النادرة، التي أحدثت ذلك الإنفجار النووي، وتركت خلفها بعض العناصر والتأثيرات، التي رصدها العلماء فيما بعد..
ولكن ذلك الجسم لم يكن نيزكاً..
بل كان مذنَّباً..
والفارق بين النيزك والمذنَّب، هو أن الأخير ينتمي إلى نوع من الأجرام السماوية سحابية الشكل، ذات طبيعة دورية، ومسارات تدور حول الشمس، ويظهر للراصد وكأنه يجرّ خلفه ذيلاً طويلاً، منحه إسمه هذا، ويتكوَّن ذلك الذيل من الغازات المتجمِّدة، أو المحفوظة، إلى جوار كميات من الغبار، والغاز، والجليد..



والمذنَّب له نواة أو أكثر، ويتكوَّن من صخور أو حبيبات رملية، من عدة عناصر، تتخلَّلها مواد غازية..

ووفقاً لنظرية (أ.فرانسوا)، كان ما سقط على نهر (تانجسكا)، في أعماق (سيبيريا)، وأحدث ذلك الإنفجار الغامض الرهيب هناك، هو مذنَّب يتكوَّن من بعض العناصر النادرة، مثل (الديوتريوم) والفسفور النقي، ضلّ طريقه في الفضاء، أو إرتطم بأحد النيازك، مما سبَّبت إنحرافاً في مساره الدوري، ودفعه نحو جاذبية الأرض..
كانت نظرية (فرانسوا) مدهشة ومفاجئة بالفعل، وتستحق التوقُّف والدراسة، خاصة وأنها تتفق مع نظرية إفتراضية تبناها عشرات العلماء لفترة طويلة، وتقول أن شيئاً مماثلاً قد حدث منذ ملايين السنين، حيث سقط مذنَّب آخر على الأرض، وصنع إنفجاراً مماثلاً، ولكنه أكثر قوة بمليون مرة، منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون عام..
وكان ذلك الإنفجار، القديم جداً، هو السبب في فناء الديناصورات، وإفساح المجال لنا نحن البشر؛ لننمو ونتطوَّر..
وفقاً لنظرية (فرانسوا) إذن، والتي إتفق معها عشرات العلماء، لم يكن إنفجار (سيبيريا) هو الأوَّل من نوعه..
ولن يكون الأخير..
فالمذنبات، التي إعتبرها العلماء يوماً قادمة، من خارج المجموعة الشمسية، هي جزء منها بالفعل، وتجوبها طوال الوقت، وأنه من المحتمل جداً أن يحدث ما يغيِّر إتجاهها، ويبدِّل مسارها، فتسقط على أي كوكب، من كواكب المجموعة الشمسية..
وتنفجر هناك..
وبمنتهى العنف..
ولأوَّل مرة، منذ عام 1908م، أعلن معظم العلماء تأييدهم لنظرية تتعلَّق بإنفجار (سيبيريا) الرهيب، وكأنهم يحاولون وضع نهاية للأمر، وحسم مشكلة طال بحثها..
وبدا وكأن الأمر قد إنتهى هنا، ولم يعد هناك ما يبرِّر مواصلة البحث، على الرغم من أن الأوساط العلمية السوفيتية قد لزمت الصمت تماماً، ولم تعلن تأييدها أو رفضها للنظرية، وكأن الأمر لا يعنيها، أو كأنها أيضاً ترغب في إنهاء الموقف، ووضع تفسير يحسم الأمور، ويخمد الجدل الدائر حول الإنفجار الغامض..
ولكن، وبعد أن إستقرَّت كل الأمور، وهدأت الضجة، أصيبت نظرية المذنَّب هذه بطعنة مفاجئة عنيفه، سحقتها من أساسها..
وأعجب ما في هذه الطعنة المفاجئة كان مصدرها نفسه..

فالعالم الذي إعترض على النظرية، ورفضها، وأعلن أنها لا تتفق أبداً مع نقاط أساسية فيما حدث، كان (أ.فرانسوا) نفسه..
فبعد أن حصل على تأييد معظم العلماء وإهتمامهم، وبدا وكأنه الشخص الذي حسم لغز إنفجار (سيبيريا)، إنتبه (أ.فرانسوا) فجأة إلى أن نظريته كلها تتعارض مع نقطة جوهرية للغاية، لم يبال بها في البداية، ثم بدت له فيما بعد كأخطر نقطة، في العملية كلها..
أقوال الشهود..
شهود العيان السبعمائة، الذين وصفوا مناورة الجسم الساقط، والذي إنفجر على مسافة ثمانية كيلو مترات، من سطح الأرض..
والذي جذب إنتباه (فرانسوا)، لم يكن تلك المناورة، التي قام بها ذلك الجسم، وإنما الوصف الأساسي له..
جسم أسطواني منتظم..
فالمذنب، وفقاً لتكوينه الأساسي، لا يمكن أن يوصف أبداً بأنه جسم أسطواني منتظم..
وكم كانت دهشة الأوساط العلمية على إختلافها، عندما أعلن (أ.فرانسوا) خطأ نظريته، وإعتذاره العلمي عنها..
فقد كان التداعي الطبيعي لهذا، هو إعادة فتح باب البحث عن تفسير منطقي للغز الإنفجار..
إنفجار (سيبيريا) الغامض..
ومرة أخرى، عاد مجموعة من الباحثين، والدارسين، والعلماء، إلى مراجعة تقارير بعثتي (كوليك) و(زولوتوف)..
ومع نهايات ثمانينات القرن العشرين، وتوسُّع العلوم في شتى المجالات، وتطوّر أجهزة الكمبيوتر، ومعدات التماثل، وبرامج المحاكاة، بدأ العلماء في صنع تصوّر إلكتروني لإنفجار (سيبيريا)..
وعبر برنامج المحاكاة المتطوّر، تم وضع كل التفاصيل، التي وردت في التقريرين، عن زاوية سقوط ذلك الجسم المجهول، ومناورته، وإنفجاره على ذلك الإرتفاع، والتأثيرات التي خلفها مباشرة، وعن طريق التحورات الوراثية فيما بعد..
وجاءت نتائج المحاكاة مدهشة..
فلأن الكمبيوتر جهاز محايد، لا شأن له بالتفاعلات النفسية، أو الآراء المسبّقة، أو التعصُّبات غير المنطقية، فقد فسَّر الأمر بنفس التفسير، الذي وضعه (زولوتوف)، عام 1947م..
الجسم الفضائي..
الكمبيوتر أكَّد أن الإنفجار ناشئ عن جسم صناعي، يستخدم طاقة نووية لحركته وإنطلاقه، وأنه قد سقط على الأرض لسبب ما، يعتقد أنه عطل في محركاته، أو وسيلة تحريكه، وجرت محاولة لإصلاح ذلك العطل، أو تأمين عملية

هبوط طارئة، إلا أن تلك المحاولة قد فشلت، بعد مناورة محدودة، وأدى فشلها إلى إنفجار ذلك الجسم، على إرتفاع ثمانية كيلو مترات عن سطح الأرض، إنفجاراً نووياً هائلاً، أدّى إلى كل هذا الخراب والدمار، الذي تركه خلفه، والبقايا التي إنتشرت على مساحة واسعة، حاملة تلك العناصر النادرة، التي تم العثور عليها، والتي وردت في تقرير بعثة (زولوتوف)، والأخرى التي لم ترد في التقرير، والتي ربما عثر عليها السوفيت فيما بعد، والتي جعلتهم يغلقون المنطقة تماماً، ويعتبرونها منطقة عسكرية محظورة..

وعلى الرغم من تأييد الكمبيوتر المحايد لنظرية (زولوتوف)، الخاصة بالمركبة الفضائية، ظلّ فريق من العلماء يستنكر الفكرة تماماً، ويرفض الإعتراف بوجود مخلوقات عاقلة في كواكب أخرى، يمكنها أن تصل إلى الأرض، وتصنع ذلك الإنفجار النووي، بأى حال من الأحوال..

وفي تسعينات القرن العشرين سقط الإتحاد السوفيتي، وبدأ تقسيمه إلى دويلات متفرّقة، تحمل أعلاماً مختلفة، وتصوّر العلماء أن هذا سيؤدّي إلى إزالة الحظر الأمني عن منطقة نهر (تانجسكا)، وكشف أسرار إنفجار (سيبيريا).. ولكن هذا لم يحدث أبداً، حتى لحظة كتابة هذه السطور..

الروس ظلوا يحيطون تلك المنطقة بسياج أمني منيع، ويحظرون الإقتراب منها، أو تصويرها، أو إجراء أية أبحاث خارجية حولها..

ولقد حاول الأمريكيون رصد منطقة الإنفجار، بوساطة أقمارهم الصناعية، إلا أن هذا لم يسفر عن شيء..

وظلّ الغموض مستمراً..

فحتى هذه اللحظة، وأياً كانت النظريات، أو الأسباب، أو المبرّرات ليست أمامنا سوى حقيقة واحدة مؤكّدة..

لقد كان هناك إنفجار هائل رهيب، عند منطقة نهر (تانجسكا)، في أعمق أعماق (سيبيريا)..

إنفجار، كان ولا يزال يحمل نفس الغموض..

ونفس الإسم..

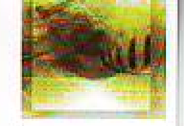
إسم (إنفجار سيبيريا)..

الغامض.

× × ×

تلك الكائنات العجيبة..





أشرقت

الشمس على نحو مبهج، وسط جو صحو، وسماء خالية من الغيوم، في صباح ذلك اليوم، من أوائل عام 1976م، عندما أبحرت الفرقاطة الحربية الأمريكية (شتاين)، من الميناء الحربي في (سان دييجو)، في ولاية (كاليفورنيا)، في مهمة عسكرية خاصة، للكشف عن وجود أية غواصات أجنبية أو معادية، في المياه الإستوائية، جنوب الولايات المتحدة الأمريكية.

وساعد هذا الجو المنعش على تنشيط البحارة، الذين إنتشروا على سطح الفرقاطة، يؤدون عملهم في حماس، وهم يتبادلون الدعابات، أو يشتركون في أغنية من أغنيات البحر الشهيرة، في حين راح الضباط والفنيون يراجعون بيانات أجهزة الرصد، ويراقبون المحيط من حولهم في إنتباه، خاصة وأن تلك الفترة كانت إحدى أنشط الفترات، في تاريخ الحرب الباردة، بين المعسكرين، الغربي والشرقي، و...

وفجأة، ومع عبور الفرقاطة لخط الإستواء، إرتطم شيء ما بقاعها..

وبمنتهى العنف..

ثم تعطلت أجهزة (السونار)، المسئولة عن فحص الأعماق، دفعة واحدة..

وكان هذا أمراً عجيباً للغاية، فالفرقاطة كانت في منطقة مياه عميقة، وأجهزة الرصد (قبل تعطلها) لم ترصد إقتراب أي أجسام صلبة منها، في حين أن عنف الإرتطام يوحي بقوة وضخامة ما إرتطمت به..

أو ما إرتطم بها..

ولأن عمل تلك الأجهزة هو أساس المهمة، ولأن البحارة والفنيين قد عجزوا عن إصلاحها بإمكانياتهم المتاحة، مع عجزهم الشديد عن تحديد سبب ذلك الإرتطام الغامض، فقد إضطر قبطان الفرقاطة إلى إعلان فشل المهمة، وإستدار بها، عائداً إلى (كاليفورنيا)..

وهناك، في الميناء الحربي في (سان دييجو)، تم وضع الفرقاطة فيما يعرف بإسم (الحوض الجاف)، ليتم فحصها جيداً، في الترسانة التابعة للقوات البحرية؛ لتحديد سبب ما حدث..

وكانت مفاجأة مذهلة للجميع!!..

ففي قاع الفرقاطة، عثر الفاحصون على عشرات الحفر المنتظمة، المتراصة على نحو شبه دائري من الجانبين..

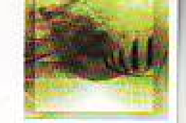
ولكن المفاجأة المذهلة بحق، هو أن بعض تلك الحفر كانت تحوي أسناناً..

نعم.. أسنان طويلة، شبيهة بالمسامير، منتشرة على مساحة هائلة، توحي بأن صاحبها حيوان بحري ضخم..

بل عملاق، إن صح القول..

وهنا، كان من الطبيعي أن تسارع القوات البحرية الأمريكية إلى الإستعانة بأحد

أشهر علماء الأحياء، في (أمريكا) والعالم كله، الدكتور (كارل ستوفر)..
وجاء الدكتور (ستوفر)، وفحص تلك الحفر، في قاع الفرقاطة، ثم حمل معه بعض تلك الأسنان المسمارية، الضخمة، الحادة، وأغلق على نفسه معمله، مع كل أدواته ومراجعه، لثلاثة أيام كاملة، قبل أن يخرج بنتيجة مخيفة..
فالكائن البحري، الذي فعل هذا، يفوق حجمه حجم الحوت الأزرق، الذي كان يعتبر أكثر كائنات الأرض ضخامة، بمرتين على الأقل..
والأدهى أنه كان مجهول، لا مثيل له بين كل الكائنات البحرية المسجلة والمعروفة، منذ وجدت السجلات التفصيلية لها!!..
ولقد أوردت المراجع والسجلات البحرية الرسمية هذه القصة، في القسم الخاص بغوامض البحار والمحيطات، دون أن يضاف إليها أي تفسير، أو تحقيق أي تقدم علمي، حتى لحظة كتابة هذه السطور..
ولقد أثارت هذه الواقعة الجدل العلمي لفترة طويلة، وراح عشرات من علماء الأحياء، والكائنات البحرية، يبحثون في كتبهم ومراجعهم عن أي وصف قديم، أو حتى أسطوري، لحيوان أو كائن بحري شبيه..
وقبل حتى أن تهدأ هذه الموجة من التوتر، كان المحيط يحمل لهم مفاجأة جديدة..
وشبيهة..
فبعد عدة أشهر فحسب، وفي النصف الثاني من العام نفسه 1976م، كانت إحدى سفن البحرية الأمريكية تستعد للعودة إلى الشاطئ، بعد أن أنهت واحدة من مهامها الروتينية، على بعد مئات الأميال البحرية، عندما تعاون بعض بحارتها لجذب مرساتها..
وفي المعتاد، تستغرق عملية رفع المرساة هذه ما بين خمس أو عشر دقائق، ولكن البحارة إنهمكوا في هذا العمل لما يزيد عن ربع الساعة، وبدا عليهم الإرهاق والتوتر، وعددهم يتزايد كل دقيقة، دون أن ينجحوا في إنهاء هذه الخطوة الروتينية البسيطة، مما جعل الضابط الأول للسفينة يهتف بهم في حدة:
- ماذا دهاكم هذه المرة؟!... هل سنقضي اليوم كله في رفع المرساة؟!
مسح رئيس البحارة عرقه الغزير، في توتر شديد، وهو يجيب:
- الرجال يبذلون قصارى جهدهم أيها الضابط، ولكن هناك شيئاً يعوق المرساة.
إنتقل توترهم إلى الضابط، الذي إستدعى عدداً آخر من الرجال، ليتعاون الكل على رفع المرساة..
وعلى الرغم من أن عددهم قد بلغ أربعة أضعاف العدد المعتاد، للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم كانوا يبذلون جهداً مضاعفاً لجذب المرساة، وهم يتساءلون في دهشة قلقة، عن ذلك الشيء الذي تعلق بها..
وفجأة، برز ذلك الشيء إلى السطح..
واتسعت العيون كلها في ذعر ذاهل..



وإنطلقت من الحلوق شهقات قوية..
فلقد رأوا أمامهم كائناً بحرياً رهيباً، لم يروا مثله قط، في حياتهم كلها، أو حتى في أفلام السينما الخيالية..
كائن يبلغ طوله أكثر من أربعة أمتار ونصف، ويزن ما يقرب من ثلاثة أرباع الطن، له فم هائل مخيف، تراصت داخله سبعة صفوف من الأسنان الشبيهة بالمسامير، إشتبكت مع المرساة، وسببت لهم كل هذا الإضطراب..
ولنصف ساعة كاملة، ترك الرجال ذلك الكائن معلقاً بالمرساة، خارج مياه المحيط، وهم يتطلعون إليه في ذهول لم ينقطع، إلا أنهم، وعلى الرغم من دهشتهم وخوفهم، عادوا به إلى الشاطئ وسلموه للعلماء؛ لفحصه، وتحديد نوعه وفصيلته..
ومرة أخرى، تم إستدعاء الدكتور (ستوفر)..
ولقد إضطرب الدكتور (ستوفر) وإنزعج كثيراً، هو وفريق العلماء المعاونين له، وهم يفحصون ذلك الشيء العملاق، الذي وجد ما يثبت أنه، أو أحد أشباهه، هو المسئول عما حدث للفرقاطة (شتاين)، منذ عدة شهور..
ولكنهم ما زالوا لا يجدون له شبيهاً، بين كل الكائنات البحرية المعروفة..
حتى بين تلك التي إنقرضت، منذ عصور ما قبل التاريخ..
وكل ما أمكن لفريق الدكتور (ستوفر) فعله، هو أن أطلقوا على ذلك الكائن العجيب إسم (ميجا ماوث)، أو صاحب الفم العملاق..
ولقد جرت محاولات علمية بحثية عديدة، للعثور على شبيه له، في كل محيطات الأرض، دون نتيجة إيجابية واحدة..
وهنا، وكما يحدث عادة، أمام أي لغز غامض، راحت عشرات النظريات تتوالى، على نحو مثير للإهتمام..
فإحدى النظريات الأولى، أشارت إلى إحتمال أن يكون ذلك الكائن نتاج طفرة وراثية، بسبب مؤثر خارجي قوي، كوجود تلوث في المحيطات مثلاً، أو بسبب بعض التجارب التفجيرية النووية، التي تتم تحت سطحها..
ولقد رفضت الحكومة الأمريكية هذه النظرية فور طرحها؛ ربما لأنها تتهمها هي بأنها المسئولة عن وجود مثل هذه الوحوش، التي يمكن أن تكون مجرد بداية، لجيل رهيب من الكائنات البحرية، التي يمكن أن تهدد وجود البشر أنفسهم في المستقبل..
ثم جاءت نظرية أخرى، تقول: إنه من المحتمل أن يكون ذلك الكائن الرهيب، هو أحد الكائنات التي تحيا في الأعماق السحيقة للمحيطات، والتي لم يستطع أحد الوصول إليها بعد، بسبب الضغط الهائل فيها، وأنه قد صعد إلى السطح لسبب ما، مما أثار توتره، ودفعه إلى مهاجمة الأجسام الضخمة المتحركة، كالسفن الكبيرة والفرقاطات البحرية، وغيرها..
ولم تلق هذه النظرية قبولاً، عند جمهور العلماء..

وتمادى عالم آخر، ليقول: إن ذلك الكائن، وغيره من كائنات لم نرصدها بعد، هي مخلوقات حملتها إلينا سفن فضائية، من عالم آخر؛ لدراسة إمكانية حياتها في محيطاتنا..

وغضب العديد من العلماء من هذا التفسير، وإعتبروه محاولة لإلقاء المشكلة على أمور أكثر غموضاً، لم يمكن إثباتها بعد، في حين إستقبل الباقون النظرية بالضحك والسخرية، وطرحوها خلف ظهورهم، وعادوا يدرسون الأمر..

ولكن كل المحاولات والدراسات لم تصل بهم إلى أية نتائج إيجابية..

أو حتى مشاهدات جديدة..

الشيء الوحيد الذي أكدوه، بعد كل البحث والدراسة، هو أن الأمر لا يعود إلى التجارب النووية أو التلوث أو غيرها؛ ودليلهم، وبكل بساطة، أنها ليست أول مواجهة بين البشر وتلك الكائنات العجيبة، التي لم يتم تصنيفها قط، على الرغم من كل ما بلغه علم الحيوان والأحياء المائية من تقدم مدهش..

فالمراجع والكتب القديمة كانت تحوي ما هو أكثر غموضاً وغرابة..

بكثير.

× × ×

منذ فجر التاريخ، والبحار والمحيطات تثير خيال البشر وخوفهم؛ لأنها رمز للمجهول، والغموض، ومصدر لا محدود لأشياء لا نهاية لها..

ولأنهم لا يرون منها سوى سطحها، ولا يستطيعون الغوص، أو حتى الرؤية، إلا لمسافات محدودة من أعماقها، فقد تكفل خيالهم برسم ما تبقى من تلك الأعماق، وتصور كل ما يمكن تصوره، أو حتى ما لا يمكن تصوره فيها..

وفي كل يوم، كانت البحار والمحيطات تباغتهم بجديد..

عشرات الصور من الأحياء البحرية، التي لا تتشابه حتى مع بعضها البعض، تفرزها لهم البحار والمحيطات دوماً، ودون إنقطاع..

الأسماك، والقشريات، والصدفيات، والمحاريات..

أسماك قرش مفترسة، وأسماك بيرانا متوحشة، ودولفينات وديعة متعاونة..

ولا يمكننا أن نتصور الآن شعور أول بشري، شاهد أمامه حوتاً هائل الحجم، يختف خلفه قطيع من الأفيال..

أو مواجهة الأولى مع أخطبوط له عدة أذرع وممصات رهيبة..

أو حتى أول عضة من سرطان بحري صغير..

ولقد إلتقطت السينما ذلك الخوف الغريزي من البحار والمحيطات ومجهولاتها، لتنتج، منذ أعوامها الأولى، عشرات الأفلام عن الوحوش والكائنات العجيبة، التي تخرج من تحت سطح الماء، لتحمل الخطر والرعب، بقدراتها الرهيبة، وقوتها المدهشة الخطيرة..





مشهد من فيلم الوحش البحري (جودزيلا)

ولعل أشهر تلك الأفلام، سلسلة أفلام الوحش البحري (جودزيلا)، التي أنتجتها اليابان في البداية لعدة سنوات، حققت خلالها نجاحاً جماهيرياً مدهشاً، على الرغم من سذاجة الخدع السينمائية وضعفها، مما دفع السينما الأمريكية إلى إلتقطاها، وإنتاج فيلم باهظ التكاليف، متقن الخدع، ولكنه لم يحقق النجاح ذاته، الذي حققته السلسلة اليابانية على بساطتها..

أما سلسلة الأفلام، التي تعبر بحق عن خوف البشر من المجهول، الذي يأتي من أعماق البحار والمحيطات، فهي (الفك المفترس)، بكل أجزائه، والذي أضاف إلى الفكرة التقليدية، عن الوحوش البحرية الغامضة، إستغلال نوع معروف من أسماك القرش، له ذكاء فوق طبيعي..

وكان هذا أكثر إثارة للرعب، أن يرتبط الخوف بشيء تعرفه، لذا فقد أثبتت الإحصائيات ضعف الإقبال على الشواطئ، أو الجزر المحيطية، لعام كامل، بعد عرض الجزء الأول من الفيلم..

ولكن المدهش حقاً أن ما طالعتنا به السينما، حول الكائنات البحرية العجيبة، لم يكن أكثر إثارة، مما حوته الكتب القديمة، والمراجع والسجلات البحرية العريقة، التي يعود تاريخها إلى عدة قرون مضت، عن قصص وروايات حول وحوش بحرية عجيبة، بعضها عرفه العلم الحديث فيما بعد، في حين بقي البعض الآخر غامضاً مجهولاً، حتى يومنا هذا!!..

ولعل أشهر الوحوش البحرية، التي تحدثت عنها كل الكتب والسجلات القديمة تقريباً، والتي أثارت في أيامها الرعب والخيال، هو الأخطبوط، أو الحبار..

والموسوعات العلمية الحديثة تصف الحبار بأنه حيوان رخوي، رأس قدمي، يوجد في البحار الدافئة، عديم الصدفة، كيسي الشكل، له ثمانية أذرع، لعابه سام، ويفرز في حالة الخطر، مادة تشبه الحبر، تنتشر فيما حوله، فتخفيه عن الأنظار تماماً، وتساعده على الفرار من أعدائه..

ومن هنا جاءت تسميته بالحبار، أو نافث الحبر..

والمراجع البحرية القديمة جداً تصف الأخطبوط بأنه وحش رهيب، متعدد الأذرع، بشع الخلقة، يهاجم السفن في شراسة، ويلتهم بحارتها بلا رحمة..

ومن الواضح أن ذلك الوصف القديم مبالغ للغاية، خاصة وأن الأخطبوط ليس من هواة لحم البشر أبداً..

وربما يعود هذا إلى واقعة واحدة مسجلة، منذ أوائل القرن الرابع عشر، عندما برز أخطبوط عملاق إلى السطح، بجوار إحدى السفن الأسبانية، فأثار ذعر وهلع بحارتها، مما دفع أحدهم إلى رميه برمح كبير..

ولقد أصاب الرمح الأخطبوط، فأثار غضبه على الأرجح، مما جعله يرفع أحد أذرعه الثمان، ليلفه حول ذلك البحار، ثم يجذبه من سطح السفينة، ويهبط به إلى الأعماق..

ويؤكد علماء الأحياء البحرية أنه، إذا كان الأخطبوط قد فعل هذا حقاً، فهو سيكتفي بإحتجاز عدوه تحت سطح الماء، حتى يغرق ويموت..

ولكنه لن يلتهمه أبداً..

هذا لأن جهازه الهضمي لا يمكن أن يسمح بهذا... أبداً..

وهذا كلام علمي بحت..



ولكن لو نظرنا إلى الأمر، في عيون بحارة السفينة الأسبانية القديمة، فسيبدو لنا أن ذلك الأخطبوط العملاق قد جذب زميلهم إلى القاع لإلتهامه..

وحوادث مشاهدات الأخطبوطات العملاقة عديدة ومتكررة عبر التاريخ، وكلها مسجلة بإنفعال واضح، يفقدها الكثير من مصداقيتها، كدليل علمي على سلوك وحجم بعض أنواع الحبار الهائلة الحجم، بحيث لا يمكننا أن نعتمد إلا على ثلاث قصص منها فحسب، نظراً لكثرة عدد شهودها، وللدقة التي تم تدوينها بها..

ففي ثلاثينيات القرن العشرين كانت سفينتا الشحن (بيرل) و(ستراثوين) تسيران جنباً إلى جنب، ولا يفصلهما سوى ستين متراً فحسب، عندما برز من أعماق المحيط أخطبوط هائل عملاق، إلى جوار السفينة (بيرل)، ووقف يتطلع إليها في صمت فضول، دون أن يعترض طريقها..

ولكن أحد ضباط السفينة لم يرق له هذا، فسحب مسدسه، وأطلقه نحو ذلك الأخطبوط..

وكان هذا هو الخطأ الذي إرتكبه..

أكبر خطأ في حياته كلها..

وآخرها..

فقد غضب الأخطبوط العملاق بشدة، وإنقض على السفينة (بيرل)، التي



تزيد حمولتها عن مائة وخمسين طناً، وإلتفت أذرعه الثمان حولها، لتلتصق بها ممصاته في قوة، ويجذبها بما عليها، ومن عليها، إلى أعمق الأعماق، أمام الأعين المذعورة لبحارة السفينة (ستراثوين)، الذين تصوروا أنهم سيلقون المصير ذاته، مما أورثهم رعباً بلا حدود، لست ساعات كاملة، قبل أن يدركوا أن ذلك الأخطبوط الضخم لم يكن عدائياً بطبعه، ولكنه ينتقم بمنتهى العنف والشراسة، من كل من يتعامل معه بعدوانية..

وربما أضاف علماء الأحياء البحرية هذه المعلومة، إلى تعريفهم العلمي للأخطبوط أو الحبار..

وهناك واقعة أخرى، خلال الحرب العلامية الثانية، تعرضت لها إحدى السفن الحربية، بالقرب من جزيرة (المالديف)، في المحيط الهادي..

في أمسية هادئة، كان الجندي (ستاركي) يستند إلى حاجز السفينة، متطلعاً إلى الماء، عندما إنتبه فجأة إلى أمر غريب..

فوسط مياه المحيط الزرقاء، كانت هناك دائرة خضراء ضخمة، لها شكل عجيب، أشبه بعين تحدق فيه مباشرة..

ثم فجأة، أدرك (ستاركي) أنها بالفعل عين..

عين هائلة، على نحو لم يتخيله قط من قبل..

وإرتجف جسد (ستاركي) في عنف، وإنطلقت من حلقه شهقة قوية مذعورة، جعلت عدداً من زملائه يهرع إليه، خشية أن يكون قد رصد هجوماً ما..

وإشترك الجميع في حالة من الذعر والذهول، لا مثيل لها..

فقد كانت تلك الدائرة عيناً بالفعل، لأخطبوط عملاق، مستلقي بإسترخاء، بمحاذاة السفينة، ويتطلع إليهم في لامبالاة عجيبة، وقد ألصق مجساته بجسم السفينة، وراح يحرك فمه الشبيه بمنقار بغبغاء ضخم، في برود مدهش..

وإنطلق البحارة على إمتداد حاجز السفينة، لتحديد طول ذلك الحبار الهائل، وتضاعف ذهولهم، عندما أدركوا أنه يمتد لمسافة ثمانية وخمسين متراً كاملة!..

ومن حسن حظهم، أنهم لم يحاولوا إستفزازه بأي شكل..

وهو أيضاً، من ناحيته، لم يحاول إيذائهم، على أي نحو كان..

فقط إسترخى إلى جوارهم لثلاث ساعات كاملة، قبل أن يغوص في الأعماق، ويختفي إلى الأبد..

أما الواقعة الثالثة والأخيرة، فقد حدثت عام 1966م، عندما شاهد ضباط وبحارة السفينة (سان باولو) قتالاً عنيفاً، على قيد مائة متر منهم فحسب، بين أخطبوط عملاق، وحوت ضخم من حيتان العنبر..

وكانت معركة شرسة، رهيبة، بين عملاقين هائلين، ولكنها إنتهت بغوصهما معاً إلى الأعماق، دون أن ينحسم الأمر، أو يعلم أحد كيف إنتهى الأمر فعلياً، ومن إنتصر في صراع العمالقة هذا!!.

وكل هذه المشاهدات والوقائع القديمة تتحدث عن كائن تعرفه اليوم جيداً،

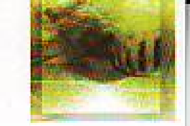
وتحوي المراجع العلمية عشرات التفاصيل عنه..
ولكن ماذا عن مشاهدات الكائنات العجيبة، غير المسجلة في أية مراجع علمية؟!..
الجواب هو أنه هناك بالفعل عشرات من تلك الوقائع، ولكن أكثرها إثارة وغموضاً، هي تلك التي تتعلق بالتنين..
تنين المحيطات العملاق..
ولهذا قصة مختلفة..
ومثيرة..
للغاية.

× × ×

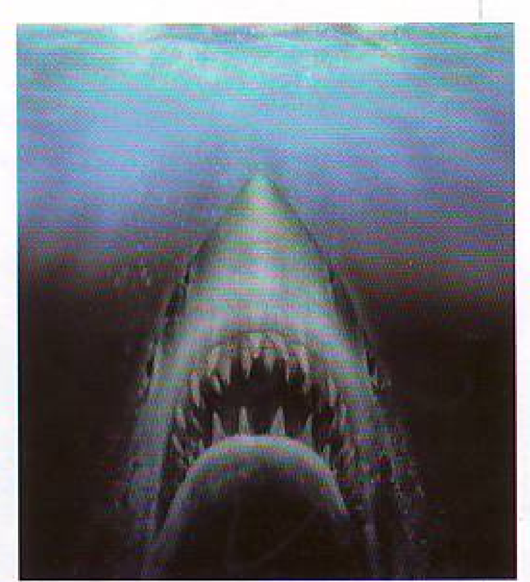
في معظم الأساطير القديمة، يرد الحديث عن كائن يعرف باسم (التنين)، ويوصف دوماً بأنه يجمع بين الزواحف والطير، له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى..



ويعود وصف التنين وذكره إلى العصر البابلي، ويعتبره الدارسون مجرد رمز للقوة والشر معاً، بدليل وجود قصص أسطورية، في العديد من الدول والحضارات القديمة، عن بطل يمثل الخير، وهو يقاتل التنين ويذبحه، في أدب شعبي متميز..
وفي بعض الدول والحضارات، وبالذات في شرق وجنوب شرق (آسيا)، يتحول ذلك التنين إلى رمز قوي، يظهر، حتى يومنا هذا، في الإحتفالات والمناسبات الرسمية..
والسؤال هو : لماذا التنين؟!..
لماذا نجد الصورة ذاتها، في كل مكان من العالم تقريباً؟!..
والتساؤل سيقودنا إلى ما هو أكثر خطورة..
هل التنين مجرد أسطورة، أم أنه كان يوماً حقيقة واقعة؟!..
علماء الأحياء، والجيولوجيون، وعلماء دراسات ما قبل التاريخ، لم يجدوا جواباً



أو دليلاً حاسماً لهذا التساؤل أبداً..
لا آثار، أو هياكل عظيمة، أو نواتج..
ومن هنا، إعتبروه، رسمياً وعلمياً، مجرد خيال على الأرض..
أما في البحر، فقد كان هناك رأي آخر..
فوفقاً للسجلات والمراجع البحرية، يعتبر تنين البحر، أو ثعبان البحر، واحداً من أكثر الوحوش البحرية غموضاً في التاريخ..
وحتى النصف الثاني من القرن العشرين، لم تكن هناك صورة واحدة لتنين البحر، ولكن كان هناك وصف متفق عليه، في كل السجلات البحرية، على إختلاف أصولها، وإختلاف شهودها، مما يوحي بأنه وصف دقيق، على الرغم من غرابته..



فما أطلقوا عليه إسم (تنين البحر)، أو (ثعبان البحار العملاق)، تصفه المراجع القديمة بأن طوله يتراوح بين خمسة عشر، وثمانية عشر متراً، وأنه أشبه بثعبان هائل، له رأس شبيه برأس الحصان، وظهر محدب ذو نتوءات، وذيل ضخم طويل..
تماماً كما يوصف التنين البري..
بإستثناء الأجنحة وحدها..
وكل المشاهدات التي تم رصدها وتسجيلها، بشأن تنين البحر، تؤكد أنه يسبح بسرعة مدهشة، تكاد تبلغ أثنى عشر ميلاً بحرياً في الساعة، وهو أسود اللون، له أنفاس قوية مسموعة، ويشبه وحوش ما قبل التاريخ..
ولقد إتفق على هذه الأوصاف إثنان من أكثر رجال البحر سمعة وتاريخياً وإحتراماً، وهما القبطان (بيتر ماكوهي)، قائد الفرقاطة البريطانية (ديدالاس)، عام 1848م، و(تيكس جيديس)، عام 1959م..
وإتفاق الرجلين حذف ومحل كل شك في وجود (تنين البحر)، وجعل العلماء يدرسون أمره في جدية بالغة..
وكالعادة، كانت هناك مشكلة الصور، والوثائق، والعينات الصالحة للفحص والدراسة..
ومشاهدات تنين البحر كثيرة للغاية، وربما تفوق مشاهدات أي كائن بحري آخر، وكلها تتفق على أنه، وعلى الرغم من ضخامته وهيئته البشعة، كائن مسالم تماماً، لم يحاول قط مهاجمة أية قطع بحرية، أو حتى التوقف لمتابعتها ورصدها في فضول، كما يفعل الأخطبوط..

إنه يمر بها، ويتجاوزها، دون أن يلتفت إليها، أو يبالي بوجودها، وكأنما لا يعنيه أمرها بتاتاً..

وتنين البحر لا يغوص إلا نادراً، ففي كل الحالات المسجلة لرؤيته، ظل يسبح على سطح الماء، حتى إختفى عن الأنظار..

وتنين البحر ليس الكائن البحري الوحيد، الذي يشبه كائنات ما قبل التاريخ، فهناك أيضاً وحش عملاق آخر، يظهر بصفة شبه منتظمة، عند ساحل (فانكوفر) الكندي، وهو وحش هادئ مدلل، ورصين إلى أقصى حد، وهو غير خجول أو متوتر على الإطلاق؛ إذ أنه لم يحاول قط الإختفاء أو الإبتعاد، أثناء تصويره، أو فحصه، أو دراسته، حتى أن العلماء لديهم ملف ضخم عنه، وأطلقوا عليه إسم (كادبروسورس)، وهو إسم شبيه بأسماء ديناصورات ما قبل التاريخ، ولقد وصفوه بأنه كسول وبليد، كما وصفه الكابتن البحري (بول سوازبي)، عام 1939م، بأنه ضخم الجثة، كثيف الفراء، أشبه بالدب القطبي، ولا يقل طوله عن إثني عشر متراً..

المدهش أن وحش (كندا) هذا منفرد تماماً، فعلى الرغم من كثرة مشاهداته، لم يتم رصد أي فرد آخر من نوعه، يمكن إعتباره جزءاً من عائلة ما، وربما هذا، يفسر إختفائه الكامل، منذ ما يزيد عن عشر سنوات، كما لو أنه قد مات بالشيخوخة، ولم يجد من يرثه، أو يكمل دوره في الحياة..

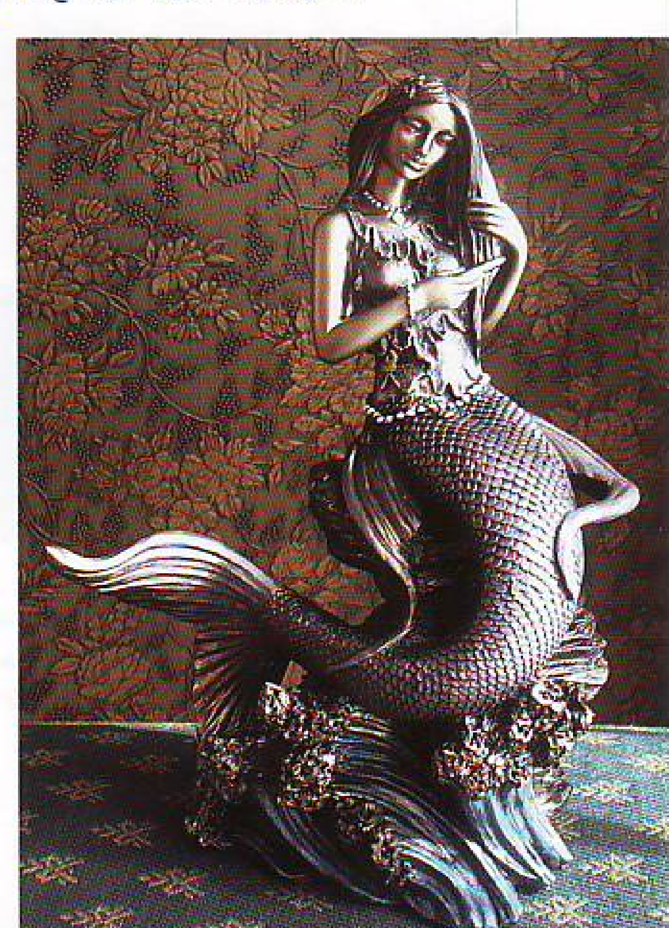


وظاهرة الإنفراد هذه عجيبة بحق، وتؤيد بعض النظريات، الخاصة بحدوث طفرات وراثية، بغض النظر عن أسبابها..

فمن الناحية العلمية، يمكن أن يؤدي أي عامل مجهول، إلى حدوث طفرة وراثية مباغتة، لا يمكن التنبؤ بتأثيرها أبداً، وتلك الطفرة يمكن أن تنتج عنها كائنات أصغر حجماً أو أكثر ضخامة.. أضعف أو أقوي،

ولكن قانون الإنتخاب الطبيعي يؤدي إلى هلاك الطفرات الصغيرة الضعيفة، في عالم يلتهم فيه الكبير الصغير، دون رحمة أو هوادة؛ لتبقى الكائنات الضخمة والقوية؛ لتثير حيرتنا ودهشتنا، وخوفنا أيضاً بلا حدود..

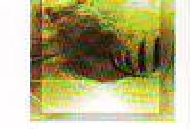
وربما ينطبق هذا القول تماماً، على ذلك الكائن العجيب هائل الحجم، الذي إستقرت جثته على شاطئ نهر (كلايد) في (إسكتلندا)، والذي أثار ذهول ورعب سكان المنطقة، بوزنه الذي يتجاوز ثلاثة أطنان دفعة واحدة، وجسده المغطى بفراء كثيف، ورأسه الصغير، مقارنة بجسمه الضخم، وعنقه وذيله الطويلين..
ولقد عجز الرجال عن تحريك ذلك الكائن؛ بسبب وزنه الرهيب، وخشوا أن يتلف ويتعفن على الشاطئ، مما يسبب لهم العديد من المشكلات الصحية والإقتصادية، فقرروا تقطيعه إلى أجزاء صغيرة..
ولكن الأمر لم يكن سهلاً أبداً..
لقد كان لحم ذلك الكائن غليظاً قاسياً، حتى أن الرجال إضطروا لإستخدام أقوى فؤوسهم، والعمل لست ساعات كاملة، قبل أن ينتهوا من مهمتهم هذه..
ولكنهم نسوا أمراً هاماً للأسف..
نسوا تصوير ذلك الوحش قبل تقطيعه، وأضاعوا على العلم فرصة إضافة كائن جديد إلى مراجعه..
ولغز جديد إلى غوامضه..
ومن بين قارات العالم السبع، تفوز قارة (أستراليا) بلقب أكثر القارات التي شهدت شواطئها وسواحلها كائنات عجيبة، ربما لإبتعادها وإنعزالها عن القارات الأخرى، ولما تتميز به من مناخ خاص، وجدول حيواني ونباتي لا مثيل له..
فعلى سواحل (أستراليا)، وفي أوائل القرن التاسع عشر، تم رصد ما أطلقوا عليه إسم الحوت الأخطبوطي، وهو كائن أشبه بالحوت، في نصفه العلوي، وينفث الماء من أعلى ظهره، كما يفعل الحوت، ولكن نصفه السفلي له عدة أذرع كالأخطبوط..
وذلك الرصد لا يمكن الإعتماد عليه تماماً، نظراً لأنه تم من جهة واحدة، دون أن تعقبه مشاهدات أخرى للكائن نفسه، في المنطقة ذاتها، أو حتى في آية مناطق أخرى..
وعند سواحل (أستراليا) أيضاً، سجل بعض البحارة مشاهدتهم لما يعرف في الأساطير، وفي الروايات القديمة، بإسم (عروس البحر)، وهي كائن خرافي، نصفه العلوي لإمرأة، والسفلي لسمكة، ولكن العلم أثبت فيما بعد أنها مشاهدات خادعة، لحيوان مائي ثديي آكل عشب، يعيش في البحر الأحمر، والمحيط الهندي، والمياه الأسترالية،



وطوله من إثنين إلى ثلاثة أمتار، ولكنه يبدو من بعيد، وكأنه بالفعل نصف امرأة ونصف سمكة..
وهذا التحليل العلمي يتفق تماماً مع ما جاء في الروايات القديمة، التي تتحدث عن إنخداع البحارة بشكل عروس البحر وغناءها، ثم ذعرهم من شكلها الحقيقي، عندما تتضح لهم الرؤية، وخاصة مع لونها البني أو الرمادي، وأنيابها الطويلة المخيفة..
هناك أيضاً واقعة مسجلة، في المراجع البحرية الأسترالية، مع شهادة للقبطان البحري (جيروم)، عام 1901م، عن كائن بحري عجيب للغاية، قضى ما يقرب من الساعة، وهو يسبح إلى جوار سفينته، وذلك الكائن، وفقاً لوصف القبطان الأسترالي، أشبه بعين كبيرة، لها أطراف قصيرة كثيرة، عجز هو ورجاله عن تحديد عددها!!..
وعلى الرغم من ضخامة البحار والمحيطات، وكثرة عدد ما يجوبها من زوارق، وقوارب، وسفن، وبواخر، وبوارج حربية، إلا أن الحالات التي يتم رصدها فيها، لا تحظى بالشهرة الكافية، التي حظى بها كائن آخر..
كائن يعيش في بحيرة أسكتلندية، في (روخ نيس)..
فذلك الكائن هو صاحب النصيب الأكبر، من الرصد والمشاهدات..
والشهرة أيضاً..
وقصة ذلك الوحش عجيبة..
ومدهشة..
بحق.

× × ×

على الرغم من أن بحيرة (نيس) ليست أكبر البحيرات البريطانية على الإطلاق، إلا أنها، وبلا أدنى شك، أكثرها شهرة وأهمية، في زمننا الحالي..
وتلك الشهرة لا تعود إلى قدم البحيرة، التي يرجح العلماء أنها قد نشأت قبل أربعمائة مليون سنة، نتيجة لهزات أرضية قوية، ولا إلى ذلك الطريق المؤدي لها، والذي شقه الجنرال (ويد) عام 1731م، ولكنها تعود إلى أمر آخر، بدأ مع إكتمال أقصر الطرق المؤدية إليها وإفتتاحه عام 1933م..
ففي ذلك العام، كان السيد (جون مكاي) وزوجته عائدين، من رحلة إلى (أنفيرنس)، في الثالثة بعد الظهر، في طريقهما إلى فندق (درومناد روشيت) الذي يمتلكانه، عندما لفت شيء ما في البحيرة إنتباه السيدة (مكاي)، فسألت زوجها في فضول:
- ما هذا بالضبط؟!
تطلع (جون) إلى حيث تشير زوجته، وشاهد إضطراباً ما على سطح البحيرة،



تصوره في البداية صراعاً بين زوج من البط، قبل أن تتضح له ولزوجته الصورة فجأة..
ومع شهقة زوجته، ضغط (جون) دواسة الفرامل بكل قوته؛ ليوقف سيارته، وهو يحدق في حيوان ضخم، يسبح في البحيرة، وحديتين تتبعاه في إرتفاع وإنخفاض، على نحو متموج، قبل أن يدور ذلك الحيوان نصف دورة، ثم يختفي عن نظرهما تماماً..
وعلى الرغم من الرعب الذي أصابهما، ومن محاولتهما تكتم الأمر، بلغت القصة مسامع المراسل الصحفي (أليكس كامبل)، الذي لم يلبث أن نشر القصة، في الثاني من مايو، في العام نفسه، مطلقاً على ما رآه الزوجين إسم (وحش بحيرة نيس)..
وبعد النشر مباشرة، فوجئ (كامبل)، مما ورده رسائل وتعليقات، أن ما حدث ليس أول مشاهدة للوحش في التاريخ، وأن هناك وقائع مسجلة لرؤيته، أو رؤية أحد أفراد عائلته، منذ عام 565م، وأن تلك المشاهدات قد بلغت ذروتها، ما بين عامي 1600 و1800م، كما أرسل إليه الكوماندور (روبرت جولد)، يؤكد أنه قد شاهد وحش بحيرة (نيس) مرتين، في عامي 1871م، 1872م..
ثم ظهر تقرير تم نشره بالفعل، عام 1930، عن ثلاثة من الشبان، خرجوا للتنزه في زورق في البحيرة، ثم حدث إضطراب في الماء، على مقربة منهم، قبل أن يظهر مخلوق ضخم، يسحب في إتجاههم مباشرة، مما أصابهم بالذعر، إلا أنه لم يلبث أن إنحرف، وابتعد عنهم، دون أن يمس شعرة واحدة منهم..
وفي ذلك الصيف، أصبح الوحش حديث (بريطانيا) كلها، وإن لم يدفع هذا الكثيرين إلى محاولة رؤيته بأنفسهم..
وفي الثاني والعشرين من يوليو، من العام نفسه، كان السيد (جورج سبايسر) وزوجته في طريق عودتهما إلى (لندن)، بعد عطلة جيدة في (هايلاندز)، في الرابعة عصراً، عندما فوجئا بالوحش أمامهما تماماً، في منتصف الطريق..
وكما وصفه السيد (سبايسر)، فقد قال إنه أشبه بحلزون ضخم طويل الرقبة، يسير في بطء، وإنة لم يلمح له أية سيقان، نظراً لأن سيارته توقفت عند منحدر..
ومع توالي الروايات والقصص، بدأت حالة من الحيرة والشك، تنتاب معظم المواطنين البريطانيين، تجاه القصة كلها، حتى نوفمبر، من العام نفسه، الذي بدا وكأنه يستحق عن جدارة إسم (عام الوحش)..
ففي الثاني عشر من نوفمبر، كان (هاي جراي) جالساً تحت أشعة الشمس الدافئة، يتطلع إلى بحيرة (نيس)، عندما لمح الوحش يرتفع فوق الماء، على بعد مائتي ياردة منه فحسب..
ومن حسن الحظ أن (جراي) كان يحمل آلة التصوير الخاصة به، وأنه قد إلتقط بها صورة للوحش..

ولم تكن الصورة واضحة، أو تظهر أية تفاصيل، إلا أن هذا لم يمنع صحيفة (دايلي ريكورد) من نشرها، في السادس من ديسمبر، مع تصريح من شركة (كوداك) يؤكد أنه لم تحدث أية تعديلات في الفيلم السالب..

ولكن الأمر إستفز علماء الحيوان، حتى أن الدكتور (جراهام كير) من جامعة (جلاسكو) قد رفض الإعتراف بصحة الصورة، وقال أنه ليس بها على الإطلاق ما يوحي بأنها لحيوان، أياً كانت فصيلته..

ثم جاءت صورة الجراح (كينيث ويسلون)، زميل كلية الجراحين الملكية، الذي إلتقط أربع صور متتالية للوحش، عندما برز أمامه من البحيرة، ثم هرع بالفيلم إلى معمل التحميض، الذي أخرج ثلاث صور محبطة تماماً، في حين كانت الرابعة مدهشة بحق..

فلأول مرة يظهر الوحش في وضوح، بعنقه الطويل، ورأسه الصغير، الشبيه بالديناصورات القديمة..

وقلبت تلك الصورة الأمور كلها رأساً على عقب، ونشرت صحيفة (دايلي ميل) حقوق نشرها، لتظهر للعامة في الحادي والعشرين من إبريل، عام 1934م..

وعلى الرغم من وضوح الصورة، فقد عاد العلماء يهاجمونها في عنف، ويتهمون صاحبها بأنه يجيد تزييف الصور، وهو لا يملك ما يدافع به عن نفسه، أو يدرأ الشبهات عن سمعته..

والعجيب أن اليقين في صحة الصورة لم يأتي، إلا في عام 1972م، عندما قامت وكالة (ناسا) لأبحاث الفضاء بتحسينها وفحصها، قبل أن تظهر علامات واضحة، لشعيرات متدلية من الفك السفلي للوحش..

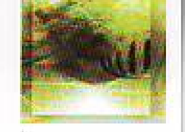
ثم توالت الصور والمشاهدات، على نحو أثار أكبر جدل علمي، في ثلاثينات القرن العشرين، ونشطت السياحة على نحو لم يحدث من قبل، في الفنادق المطلة على بحيرة (نيس)، بحيث أصبحت مكتظة طوال الصيف..

ثم إندلعت الحرب العالمية الثانية، فبهت الإهتمام بوحش بحيرة (نيس)، وتلاشى مع أخبار زحف الجيش النازي، وسقوط دول (أوروبا)، أمام الإجتياح الرهيب للرايخ الثالث..

وقاتلت (إنجلترا)، وقاتلت.. وقاتلت..

وسقطت (ألمانيا) النازية، وراحت الأمور تعود إلى ما كانت عليه، ليظهر الإهتمام بالوحش مرة أخرى، وخاصة في عام 1951م، عندما إلتقط له حطاب يدعى (لاشلان سيتورات) صورة أخرى واضحة..

وفي عام 1957م، ظهر أفضل كتاب عن وحش (نيس)، تحت إسم (أكثر من أسطورة)، بقلم (كونستانس) حماس الكثيرين، وعلى رأسهم مدير مؤسسة الفواكه (فرانك سيرل)، الذي شاهد الوحش بنفسه عام 1958م، فترك حياته كلها، وزرع خيمته أمام بحيرة (نيس)، لسبع سنوات كاملة، إلتقط خلالها أفضل عشر صور للوحش، وإحتواها كتابه (سبع سنوات من البحث عن الوحش في



نيس)، الذي صدر عام 1976م..

وفي عام 1959م، إلتقط مهندس الطيران (تيم دنسدل) أول فيلم سينمائي متحرك للوحش، إعتبره الخبراء تحولاً خطيراً في دراسة وحش بحيرة (نيس)، إذ أدى إلى تشكيل ما عرف بإسم (مكتب التحقيق في ظاهرة بحيرة نيس)، ليتخذ أمر الوحش صورة رسمية، لأول مرة في التاريخ..

وفي عام 1957م، ومع تطور التكنولوجيا، تم إلتقاط فيلم خاص، بأجهزة رصد الأعماق، لوحش بحيرة (نيس)، من قبل مؤسسة (ماسا شوست)، ظهر فيه بوضوح مخلوق طويل الرقبة، له زعنفة أمامية، يسبح تحت سطح الماء، مما أعتبر دليلاً جديداً لا يقبل الشك، على وجود الوحش..

وهنا ظهر تساؤل جديد، لم يطرح من قبل..

ما دام الوحش موجود فعلاً، فلماذا لا يرصده كل من يزور البحيرة؟!..

وجاء الجواب علمياً للغاية، بإعتبار أن ذلك النوع من الحيوانات المسالمة، لا يميل في المعتاد إلى الظهور، وأنه يتميز بشيء من الخجل، يمنعه من التعامل مع البشر مباشرة، ولأنه خجول وهادئ، وغير مؤذي على الإطلاق، فهو ينزعج بشدة من أصوات السيارات والطائرات، والزوارق الآلية، مما يدفعه إلى الإختباء والإختفاء، في مكان غير معروف علمياً..

ولقد جرت عدة محاولات لإصطياد ذلك الوحش، من قبل جهات وهيئات علمية عديدة، ولكنها قوبلت كلها بالغضب والعنف والثورة، وبعداء سافر واضح، من كل سكان (نيس)، الذين بدا لهم أن إصطياد الوحش سينسف مصدر رزقهم الرئيسي، الذي يأتي من السياحة، لكل من يتمنى رؤية الوحش..

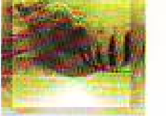
وعلى الرغم من تطور وسائل البحث وتعددها، في زمننا هذا، إلا أن أحداً لم يعد يسعى لإصطياد الوحش، الذي قلت مشاهداته تماماً، منذ منتصف السبعينات، ثم توقفت مع نهاية الثمانينات، على نحو يوحي بأن الوحش الأسطوري قد لقى أخيراً ما يلقاه كل كائن حي.. الموت..

وعلى الرغم من الشهرة الواسعة لوحش (لوخ نيس) الأسطوري، إلا أنه ليس وحش البحيرات الوحيد، الذي يثير جدل وإهتمام العلماء، فهناك أيضاً وحش بحيرة (أوكانا جان) الكندية، الثعباني الشكل، والذي يطلقون عليه إسم (أوجو بوجو)، والذي يبلغ طوله مائة وثمانية وعشرين متراً، وكذلك (ماينبوجو)، وحش بحيرة (وينيورسيس)، ذو الثلاث حدبات والرأس المفلطح، والذي إعترف العلماء بوجوده، عام 1963م... ولكن الكائنات العجيبة لا يقتصر وجودها على المحيطات والبحيرات والبحار فحسب.. إنها تنتشر في اليابسة أيضاً..

وعلى نحو أكثر خطورة..

بكل المقاييس.





من المؤكد والطبيعي، والمنطقي أيضاً، أن يحوز البحر، بإنتشاره، واتساعه، وعمقه، وكل ما يحويه من سحر وغموض، النصيب الأعظم في كل الروايات والوقائع المسجلة، عن الكائنات العجيبة والغريبة، المسالمة والمتوحشة، التي يمكن أن تخفيها أعماقه، أو يرسمها الخيال لظلماته..

ولكن هذا لم يحرم البر من نصيب كبير أيضاً..

ففي (أفريقيا)، ومع منتصف عام 1941م، وبينما يقوم بعض الصيادين البريطانيين برحلة صيد في الأدغال، فوجئوا بحيوان مفترس ضخم، يقع في شباكهم..

ولقد وقفوا جميعاً ذاهلين، لنصف ساعة كاملة، يراقبون ذلك الحيوان المدهش، وهو يقاوم للخلاص من الشباك القوية دون جدوى..

وذهولهم هذا لم يكن يعود إلى ضخامته غير العادية فحسب، ولكن أيضاً إلى تركيبته العجيبة، التي جعلته أشبه بمزيج من النمر والأسد معاً، أو بمعنى أدق، لا هو بالنمر، ولا هو بالأسد..

وبسرعة، جاء أحد العلماء لفحص ذلك الحيوان، الذي أطلقت عليه حملة الصيد إسم (ناندا)..

ولم يكن ذلك العالم بأقل منهم ذهولاً، أمام ذلك التركيب المدهش، بين النمر والأسد، في (ناندا)، خاصة وأن علم هندسة الوراثة والجينات لم يكن حتى مجرد فكرة أو خاطر علمي، في ذلك الحين..

وحتى لو ناقشنا الأمر من هذه الزاوية، وإفترضنا أن ذلك الحيوان (ناندا) هو نتاج تجربة مذهلة، لمزج جينات أسد بجينات نمر، على الرغم مما سيفعله هذا بنا، من إضافة لغز أكثر غموضاً، فسيظل أمامنا تساؤل كبير آخر!!..

فمن أين أتت جينات النمر للتجربة؟!..

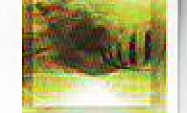
فما قد لا يعلمه معظم الناس، أن النمر لا يمكن أن يظهر مع الأسد، في كادر واحد، إلا في حلبة السيرك، أو أفلام (طرازان) القديمة فحسب، وهذا - بكل بساطة - لأن النمر حيوان آسيوي محض، في حين أن الأسد حيوان أفريقي صرف..

ولكن دعنا من هذا، فالعالم البريطاني، مع ضعف إمكانياته في ذلك الوقت، لم يستطع حتى الإحتفاظ بجيفة (ناندا)، حتى تمكن دراسته أكثر فيما بعد..

وبهذا وضع نهاية للقصة، التي دونتها الحملة في سجلاتها، بمنتهى الأمانة والدقة..

ومن (ناندا) إلى الفيل القزم، الذي يعد أحد الألغاز، التي تواجها العلماء والصيادين في (الكونغو)..

والفيل القزم هذا فيل مكتمل النمو، ولكن طوله لا يزيد عن المترو ونصف المتر، ولونه أبيض ناصع البياض، ولا يزيد طول أنيابه عن ستة وستين سنتيمتراً..



ولسنوات وعقود طوال، ذلك الفيل القزم مجرد أسطورة، يتناقلها السكان المحليون، الذي يؤكد بعضهم رؤيته له، بل ومطاردته ومحاولة إصطياده أيضاً، ثم يضيفون أنه، ولصغر حجمه، يتحرك بنشاط مدهش، وذكاء يفوق الطبيعي، بحيث يصعب الظفر به وإقتناصه..

ثم أثار هذا اللغز كله الملازم البلجيكي (فرانسيس)، الذي قرأ كل ما تم تدوينه عن ذلك الفيل القزم، وإستمع إلى روايات عشرات السكان المحليين، وعمل على دراستها وتفنيدها، حتى إستخلص منها ثلاث روايات، بدت له صادقة للغاية، مما جعله يتخذ قراره، ويشد رحاله، ليخرج على رأس حملة للبحث عن الفيل القزم، في أوائل عام 1937م..

ولا أحد يدري، حتى هذه اللحظة، ما الذي فعله (فرانسيس) في حملته، التي إستغرقت عاماً كاملاً أو يزيد، في قلب أحراش (أفريقيا)، فلم تكن هناك أيامها وسائل إتصال معروفة، والأفريقيون لا يستخدمون حتى الحمام الزاجل لتوصيل رسائلهم..

ثم أنه، وهذه هي المأساة الحقيقية، قد تم تدمير كل ما دونه من مذكرات تماماً، أثناء رحلة العودة، في فبراير 1938م، ليس عن عمد، ولكن عن إهمال وجهل.. وخوف أيضاً..

هذا لأن الحملة قد عادت في النهاية، حاملة جلد الفيل القزم ونابيه، على نحو يثبت أنه حقيقة، وليس مجرد أسطورة..

ولكن بدون (فرانسيس)..

فالمسكين حقق الهدف من حملته، ولكنه أصيب بحمى غير معروفة، ليلقى حتفه وسط أدغال (أفريقيا)، دون أن يعود إلى وطنه، ليعلن كشفه المثير..

وياللخسارة!..

وفي (أفريقيا) أيضاً، رصد فريق من الصيادين الألمان، عام 1932م، حيواناً أطلقوا عليه إسم (أوكابي)، وطاردوه لثلاثة أيام كاملة، ولكن دون أن ينجحوا في الظفر به أبداً..

و(أوكابي) هذا، كما أجمع على وصفه أفراد فريق الصيد، هو مزيج عجيب، من الزرافة والحمار الوحشي، فهو يحمل رأس وجسد حمار وحشي، بتلك الخطوط الواضحة في جسده، مع رقبة وساقي زرافة..

والأدهى أنه يجمع بين قوتي الحيوانين..

ولقد سجلت الفرقة كلها ما شاهدته، ودونت محاولاتها الفاشلة للظفر بذلك الحيوان، الذي شاهده فريق صيد فرنسي آخر، في المنطقة نفسها، بعد إحدى عشر عاماً بالضبط 1948م، ليؤكد وجوده..

ولكنه أيضاً لم يظفر به..

والواقع أن (أفريقيا) تعد الأولى إحصائياً، في عدد مشاهدات الكائنات العجيبة فيها، وبالذات تلك التي تبدو أشبه بمزيج من حيوانين معروفين أو أكثر، مما

يؤيد، على نحو خيال، تلك النظرية الحديثة، التي تشير إلى أن القارة السوداء الغامضة، بمساحاتها الشاسعة غير المأهولة، وبمناطقها التي لم يبلغها أحد بعد، منذ آلاف، أو ربما ملايين السنين، كانت يوماً حقل تجارب هائل، لخبراء في هندسة الوراثة، من حضارة سابقة..

أو حتى من كواكب أخرى..

والفكرة، كما يبدو واضحاً، تزيح هم البحث عن السبب الحقيقي لتلك الظاهرة، وترمي العبء كله - كالمعتاد - على مخلوقات الفضاء والكواكب الأخرى، الذين لم نثبت وجودهم بعد، وإن كانت هناك عشرات الأدلة، التي يرى بعض العلماء أنها تؤكد وصولهم إلى أرضنا، وإستقرارهم فيها لبعض الوقت، في أزمنة قديمة ساحقة..

ولكن هذا يحتاج إلى مقال آخر..

أما الآن، فدعنا ننتقل من (أفريقيا) إلى (آسيا)، لنرتطم فور إنتقالنا، بأشهر الأساطير الأسيوية، ألا وهي أسطورة التنين، ولكننا سنتعامل هذه المرة مع تنين البر، وليس تنين البحر، الذي تحدثنا عنه من قبل..

وعلى الرغم من أن التنين قد جاء ذكره في كل الحضارات، منذ بدء التاريخ المسجل، ومن أننا نجده في قصص الحضارات الأشورية، والبابلية، وفي العهد القديم المسيحي، وكذلك في الأساطير اليونانية والرومانية، والخرافات الأفريقية والهندية، إلا أنه إرتبط في زمننا الحالي بالشرق الأقصى في (آسيا) وحدها..

وبالتحديد، في (اليابان) و(الصين)..

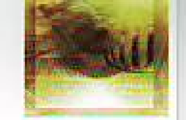
وفي عصر النهضة الصينية، وعندما بدأ الصينيون يدونون علومهم ومفاهيمهم، حول الطاقات البشرية والأرضية، إرتبط كل هذا عندهم بالصور الرمزية للتنين، مما أوحى بأن ذلك الكائن ليس سوى أسطورة رمزية، لتفسير أمور أخرى، من خلال تركيبة حيوانية شديدة التعقيد..

ولكن المدهش أنه هناك مشاهدات مسجلة، لبعض ذوي الأهمية والمصداقية، في أزمان قديمة، حول ذلك التنين، وأوصاف لا يمكن حتى تصديقها، ولكنهم يصرون على صحتها، ويراهنون على هذا بسمعتهم ومصداقيتهم، وإحترامهم في مجتمعاتهم..

وتلك الأوصاف تجتمع على أن التنين حيوان ضخم، له رأس جواد، وجسد وذيل أفعى، ومخالب أسد، وجناحي خفاش هائل، وأنه قادر على نفث النار من فمه، والطيران من قمة تل إلى أخرى..

والوصف كما ترون عجيب وغير منطقي، على الرغم من إتفاقهم وإصرارهم عليه، وتدوينهم له في وثائقهم الرسمية..

ولقد عثر العلماء على بعض أنواع السحالي، في (الهند) وشرق (آسيا)، ويمكن أن ينطبق عليها الوصف ذاته، بإستثناء نفث النيران، والحجم الضخم بالطبع.



مما دفع البعض إلى الإعتقاد بأن تلك السحالي الطائرة، والتي يطلق عليها إسم (دراكو)، أو ما يعني التنين باللغات المحلية، هي الطور الضئيل المتحور، من تنين الأزمان القديمة، الذي إنقرض وتلاشى، تاركاً خلفه أسطورته فحسب..
ومن التنين إلى تقرير الجنرال الروسي (ميخائيل إستيفانوفيتش توبيلكس)، الذي كان يلاحق قوات الجيش الأبيض وسط الجليد، عام 1925م، عندما لمح رجاله حركة غير عادية، عند أحد الكهوف، فأطلقوا النار تجاهها فوراً..
وكانت مفاجأة مدهشة..
فذلك الشيء، الذي تصوروا أنه بعض جنود الجيش الأبيض الفارين، كان كائناً عجيباً لم ير أحدهم مثيله من قبل..
كائن أشبه بالبشر، من حيث القامة وملامح الوجه، وتناسق الأعضاء، ولكن جسده كله مغطى بالشعر كالقرود..
بإختصار، كان يبدو أشبه بحلقة الوصل، بين الإنسان والقرد..
وبالطبع لم يتمكن الجنرال الروسي من الإحتفاظ بصيده، وهو يكمل مهمته، ولكنه أورد الواقعة في تقريره العسكري الرسمي، وكانت هذه هي البداية..
بداية سيل من الروايات عن كائن عجيب آخر، يعد الأكثر شهرة - بعد التنين بالطبع - في عالم اليابسة..
إنسان الجليد..
الرهيب.

× × ×

الجليد يتشابه كثيراً مع البحر، في أن كليهما يحتل مساحات شاسعة متصلة، ويحوي الكثير من الغموض، مع قدرتهما على إثارة أكبر قدر ممكن من الخيال..
والحملات الإستكشافية عبر المناطق الجليدية، بدأت منذ مئات السنين، ولم تتوقف قط، حتى يومنا هذا، وعلى الرغم من هذا فمشاهدات الكائنات الغامضة محدودة تماماً، في المناطق الجليدية، التي تم العثور فيها، في أوائل القرن العشرين، على جثة كاملة مجمدة، لأحد أفيال عصور ما قبل التاريخ، والمعروف بإسم (الماموث)، وكان هذا أعظم كشف علمي أيامها..
ثم جاء عام 1921م، وخرج (هوارد بيوري)، على رأس أول حملة إستكشافية، إلى قمة جبل (إيفرست)، وخاض مع حملته الأهوال، حتى يبلغوا القمة، و...
وفجأة، توقف الكل في ذهول، عند إرتفاع سبعمائة متر من سطح الأرض، ليحدقوا في آثار أقدام بشرية واضحة، منطبعة على الجليد..
ووصف (بيوري) ما رآه وحملته بمنتهى الدقة، وقام أحد المتخصصين المصاحبين له، برسم أثر الأقدام، وأضاف تقريره ورسومه إلى سجل الحملة، مؤكداً أنها آثار أقدام بشرية، وليست لذئب أو دب، أو أي حيوان آخر..

وفي عام 1925م، رأى أحد العلماء مخلوقاً عظيم الشبه بالإنسان، يمشي معتدلاً منتصباً، على إرتفاع خمسمائة متر، وهو يتوقف كل بضع خطوات، ليلتقط بعض النباتات..

وعلى الرغم من وجود مصور في البعثة، فإنه لم يلتقط أية صور واضحة أو مقبولة لذلك المخلوق، مما جعل الأمر يقتصر على التدوين في السجلات الرسمية وحدها..

وفي عام 1933م، في جبال (الهيمالايا)، تمت رؤية إنسان الجليد لأول مرة، بمنتهى الدقة والوضوح..

كان كائناً ضخم الجثة، هائل الحجم، نصف إنسان ونصف وحش، يعيش في الكهوف الجليدية، في الجبال المرتفعة، التي يصعب الوصول إليها، وهو أبيض البشرة، وجسمه مغطى بغطاء سميك من الشعر الأسود، وذراعاه تصلان إلى ركبتيه، وملامحه ذات لمحة إنسانية واضحة، وساقاه قويتان، وأصابع قدميه طويلة، تتجه إلى الداخل.

وأكد من شاهدوه أنه قوي العضلات عن نحو رهيب، إذ إقتلع أمامهم شجرة صغيرة من جذورها، وحملها على كتفه، ليختفي بها وسط الجليد..

ومع ذلك الوصف، وعدد الشهود الذين رأوه، وعلى الرغم من عدم وجود صور أو رسوم أيضاً، إنتشر أمر (إنسان الجليد)، الذي حمل منذ ذلك الحين إسم (بيتي)، دون أن ندري لماذا هذا الإسم بالذات!!..

ولأن شهود الأمر من الرهبان والنساك، الذين يصعب إتهامهم بالكذب أو الوهم، فقد بدأت الصحف تتناول الوصف، وترسم أشكالاً تخيلية لإنسان الجليد هذا، مع إيراد كل المشاهدات القديمة له، وكل ما قرره العلماء بشأنه، عبر ثلاثة عقود من الزمن، أي قبل عدة سنوات من تسجيل (هوارد بيوري) لآثار الأقدام، التي رآها على قمة (إيفرست)..

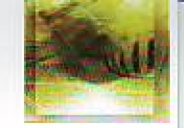
وكالمعتاد، إنقسم العلماء إلى فريقين، فريق رفض الفكرة بمنتهى العنف، وأنكر وإستنكر وجود مخلوق حي، في منطقة شديدة البرودة كهذه، في حين أبدى الفريق الآخر إهتمامه، ورغبته في دراسة الأمر أكثر، والحصول على مزيد من التأكيدات والشواهد..

ومن هذا المنطلق، وبتمويل من بعض الصحف، في (أوروبا) و(الولايات المتحدة الأمريكية)، و(كندا)، خرجت بعض البعثات الإستكشافية للبحث عن (بيتي)، رجل الجليد الغامض..

ولكن العجيب أن كل تلك البعثات لم تعثر عليه أبداً..

فقط عثرت على بقايا آثار أقدام شبه بشرية، محا الجليد معظمها، وترك ما يكفي لمعرفة أصلها، ولا يكفي لدراستها، والخروج منها بنتائج واضحة، وأدلة قوية مؤكدة..

وبسبب هذا، هدأت أخبار رجل الجليد، ولم يعد أحد يهتم به، مع مرور

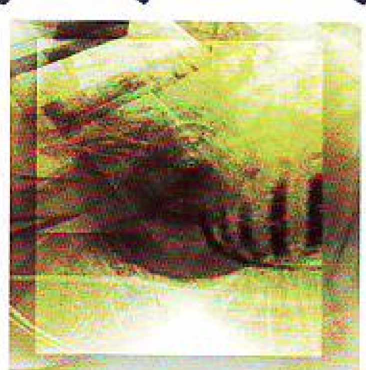


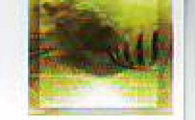
السنوات، وإندلاع وإنتهاء الحرب العالمية الثانية، وما أعقبه من تطورات سياسية وإجتماعية، شغلت الرأي العام العالمي..
حتى الثلاثين من يونيو، عام 1969م..
ففي ذلك الوقت، صدرت مجلة (ناشيونال بولتين)، حاملة قصة غاية في الغرابة، حول إنسان الجليد، الذي إتهمته (مينا زوتا) بأنه قد هاجمها وإغتصبها، ولم تنج من براثنه، إلا بعد أن أطلقت النار عليه، وأصابته في عينه اليمنى..
وأثار ذلك الخبر ضجة هائلة في حينه، وجعل فريقاً من العلماء يهرع إلى (مينا زوتا)، لفحصها، والعثور على أية آثار لصحة ما إدعته..
وبالطبع، كان الكل متحفزاً لإثبات كذبها، وعدم صحة إدعائها..
ولكن المفاجأة كانت من نصيبهم هم..
فالفتاة تحمل بالفعل آثار إعتداء، وآثار مخالب قوية على فخذيها ووسطها، كما أن العينة، التي تم الحصول عليها منها، كانت غير آدمية بالتأكيد..
وكان كل هذا يؤكد أن الفتاة قد تعرضت إلى اعتداء، من قبل مخلوق غير آدمي..
ولكنه لا يثبت أبداً أن ذلك المخلوق هو (بيتي)، إنسان الجليد الغامض..
وأصرت الفتاة على أقوالها..
وأصر العلماء على الرفض، على الرغم من ثقتهم العلمية في أن الحيوانات العادية لا يمكن أن ترتكب هذه الفعلة البشعة..
ولكن هذا الخبر نجح في أمر واحد فحسب..
في إعادة قصة وأخبار (بيتي) إلى كل الأذهان..
ولكن ما فجر القصة إلى ذروتها هو تلك المشاهدات، التي سجلتها بعثة (جون إدواردز)، في جبال (الهيمالايا)، عام 1979م، وعلى إرتفاع أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة متر..
فعلى هذا الإرتفاع الشاهق رصد رجال البعثة آثار أقدام كبيرة شديدة الوضوح، يبلغ طولها ستة وثلاثين سنتيمتراً، بالتمام والكمال..
ليس هذا فحسب، وإنما سجلت البعثة أصوات نداءات مخيفة، وصرخات قوية، تجمع بين أصوات البشر والحيوانات..
ولأول مرة، تم تصوير آثار الأقدام البشرية، ذات الحجم الهائل، ورصدها، وتسجيلها..
وبدأ العلماء في فحص كل هذا..
ووفقاً لتقديرهم، ومقارنتهم النسبية، أكد العلماء أن طول (بيتي) ينبغي أن يتجاوز المترين وربع المتر على الأقل..
ومنذ ذلك الحين، حمل (بيتي) إسماً جديداً..
إسم (بيج فوت)، أو (صاحب القدم الكبيرة)، وهو الإسم الذي يعرف به شعبياً، حتى هذه اللحظة..
وفي عام 1983م، تم إلتقاط صورة، بعدسة ذات بعد بري كبير جداً، ليس لأحد

أصحاب الأقدام الكبيرة فحسب، ولكن لعائلة كاملة منها، مكونة من ذكر، وأنثى، وطفلين..
والعجيب أن تلك العائلة لم تحاول التخفي أو الإبتعاد، بل توقفت للتصوير في هدوء، وكأنها قد قررت أخيراً الإفصاح عن وجودها..
أو أنها مصابة بضعف في الإبصار، يمنعها من رؤية مصوريها، من هذه المسافة الشاسعة..
المؤسف أن الصور الملتقطة، من مسافات هائلة كهذه، لا تمتاز أبداً بالوضوح الكافي، إلى حد إعتبارها دليلاً علمياً، كافياً لإقناع العلماء، بصحة وجود أصحاب الأقدام الكبيرة أو (البيتي)..
فحتى هذه اللحظة، ومع عدم وجود عينات مباشرة للفحص والدراسة، يصر بعض العلماء على أن كل ما رآه الشهود، هو بعض الأنواع المتحورة من القردة العليا، مثل القردة المردة، أو القرد الكسلان، وغيرها، خاصة وأن بعض أفراد النوع الأخير قد شوهدت على إرتفاع أربعة آلاف متر عن الأرض، كما أن لها القدرة على الوقوف منتصبة، والقفز لمسافات قصيرة..
ولكن المؤكد أن آثار أقدامها لا تشبه قط آثار الأقدام البشرية..
لا من قريب، ولا حتى من بعيد..
لذا، فقد ظل إنسان الجليد الغامض، أو ذا القدم الكبيرة، أو (بيتي) مجرد لغز غامض، من ألغاز الكائنات العجيبة، حتى يومنا هذا..
والسؤال حول: هل يعتبر (بيتي) كائناً غامضاً، أم أنه مجرد تطور طبيعي، أو حتى غير طبيعي، لنوع من قرود المناطق الجليدية، سيظل مطروحاً لفترة طويلة، لا يعرف مداها إلا الخالق (عز وجل)..
وسيظل هذا السؤال، وأسئلة كثيرة غيره، مجرد ألغاز غامضة مثيرة، وأمور تحتاج إلى أجوبة شافية واضحة..
وسيظل العلماء يلهثون، بحثاً عن تلك الأجوبة..
وعندما يتوصلون إليها، ستظهر أمامهم كائنات عجيبة أخرى..
وألغاز غامضة جدية..
فهذه هي الحكمة الإلهية، لندرك جميعاً أننا لم نؤت بالفعل، إلا القليل من المعرفة والعلم..
والقليل جداً..



الفراعنة... ولعنتهم..





إمتدت

الصحراء المصرية على مدى البصر، أمام عيني عالم الآثار البريطاني (هوارد كارتي)، وهو يجفف ذلك العرق الغزير، الذي إنهمر على جبهته ووجهه، وهو يقف تحت أشعة الشمس الحارقة، في تلك البقعة التي قادته إليها أبحاثه ودراساته، للبحث عن مقبرة أحد ملوك الفراعنة القدامى..

كان هذا في العقد الثاني من القرن العشرين، عندما بلغت حمى البحث عن الآثار ذروتها، وخاصة بعد الكشوف الأثرية المدهشة، التي قام بها الألماني (هنريش شليمان)، عندما عثر على بقايا (طروادة)، في عام 1871م، في منطقة (هيسارليك)، شمال غرب (تركيا)، في نفس الموقع الذي حدّده (هوميردس)، في ملحمته الشهيرة (الإلياذة)، وسير (آرثر إيفانز)، الذي كشف قصر التيه في (كريت)، عام 1900م، ليثبت أن أسطورة المينوتوروس لم تكن مجرَّد خيال محض..

وكان (هوارد كارتر) يحلم بانضمام إسمه يوماً إلى قائمة هؤلاء الأثريين العباقرة، الذين حفروا أسماءهم في تاريخ الكشوف، بحروف من ذهب، مما جعله يحتمل الحرارة، والرمال الساخنة، والعرق الذي يلهب عينيه، طوال عدة أشهر طويلة، زاره خلالها ممول حملته اللورد (كارنرفون) مرة واحدة، تركه بعدها للعذاب، وعاد هو إلى قصره البريطاني العريق، ليتباهى بتمويل أكبر حملة للبحث عن الآثار المصرية..

حتى جاء شهر فبراير 1923م..

في ذلك التوقيت، عثر (هوارد كارتر) على ما كان يبحث عنه طوال الوقت..

مقبرة الملك الصغير (توت عنخ آمون)..

لم يكن (كارتر) أثرياً بسيطاً أو مغموراً، إذ كان يحيا في (مصر)، منذ عام 1890م؛ للتنقيب عن الآثار، ورسم المناطق الأثرية المعروفة..

ولم يكن هذا أيضاً أوَّل كشوفه؛ إذ كانت له عدة حفائر في وادي الملوك، موَّلها بعض المغامرين الأمريكيين، وأهلته لإصدار كتابه الشهير (خمس سنوات للكشوف الأثرية في طيبة)..

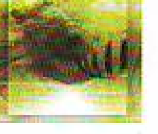
وعلى الرغم من هذا، فقد إنبهر (كارتر)..

إنبهر بما عثر عليه، وبالكنوز التي رآها في مقبرة (توت عنخ آمون)، وببريق الذهب الذي يلتمع في كل مكان، حتى أنه أبرق إلى اللورد (كارنرفون)؛ ليحضر على الفور، في حين إنشغل هو برسم كل ما يراه داخل المقبرة..

حتى تلك العبارة، التي جذبت إنتباهه وإهتمامه طويلاً..

عبارة هيروغليفية غير تقليدية، وجدها محفورة على أحد أبواب المقبرة، تقول : «سيطوي الموت بجناحيه، كل من يقلق الملك»..

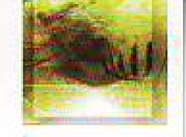
أيامها إهتم (كارتر) بالعبارة، وترجمها، وسجلها..



إلا أنه لم يشعر بالخوف منها أبداً..
وبسرعة، إنتشر الخبر، وقفزت شهرة (هوارد كارتر) إلى الذروة، في عالم الباحثين عن الآثار..
وقفز معه بالتالي إسم اللورد (كارنرفون)..
ومع وصول اللورد المغامر، الذي إشتهر بإهتماماته المتعددة والمثيرة، راح الصحفيون يتدفقون على المكان كالنمل.
ومع عدسات كاميراتهم، ظهرت صور الجدران، والتوابيت، والتماثيل.. والذهب..
الذي زغلل عيون الجميع، حتى الحكومة المصرية نفسها، التي فوجئت، أو بدا وكأنها فوجئت، بأن القانون يمنح المكتشف دوماً ما يعثر عليه من آثار، مهما بلغت قيمتها..
وفي حالة (كارتر)، كانت (مصر) ستفقد كنوزاً لا حصر لها، وتحفاً أثرية تتجاوز كل ما عرفه العقل، لو تم تطبيق القانون..

قناع (توت عنخ آمون) الذهبي

لذا، فقد رفضت الحكومة المصرية تطبيق القانون، ورفضت منح (كارتر) أو (كارنرفون) ولو حلية واحدة، مما تم العثور عليه في المقبرة.. بل لقد أحاطتها بحراسة قوية، وإعتبرتها أرضاً مصرية، لها عليها كل السطوة والسيادة..
وبالطبع، لم يستسلم (كارتر) لهذا، وقام بتهريب بضع قطع من آثار مقبرة (توت



غنخ آمون) إلى (لندن)، ولكن كل الآثار الثقيلة بقيت..
ومعها تلك العبارة الرهيبة..
«سيطوى الموت بجناحيه كل من يقلق الملك»..
وكان من الممكن أن تبقى العبارة إلى الأبد، مجرد جملة، سجلها كاهن مصري قديم، من باب المجاملة، أو حتى القناعة الشخصية، على أحد جدران مقبرة أصغر ملوك الفراعنة..
لولا ما حدث بعد هذا بقليل..
فبعد شهرين من هذه الضجة تقريباً، وقبل أن يفقد اللورد (كارنرفون) زهوة إنتصاره، أو يبتلع مرارة حرمانه من كل هذا الذهب، جرح الرجل ذقنه جرحاً صغيراً أثناء الحلاقة..
وبسرعة لم يستوعبها أحد، أصيب اللورد البريطاني بحمى غامضة رهيبة، رفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان، ودفعته إلى الصراخ والعويل طوال الوقت، وهو يصرخ بأنه في قلب الجحيم، وبأن ملوك الفراعنة يحيطون به، بعد أن جاءوا للإنتقام منه، لأنه فتح مقبرة أصغرهم، ودنسها بتواجده البشري غير الطاهر..
ولفترة قصيرة جداً، واصل اللورد هذيانه وصراخه، ثم لم يلبث أن أسلم الروح، في الخامس من أبريل، عام 1923م..
ومع موت اللورد، في ريعان قوته، إستعاد بعض الصحفيين تلك العبارة، المنقوشة على مقبرة الفرعون الصغير، وإنطلقوا ينشرون مقالاتهم عنها وحولها، ويربطون بينها وبين موت (كارنرفون)..
وهنا فقط، ظهر ذلك المصطلح الشهير، الذي لم يفارق أسماعنا وأذهاننا، وعقولنا بعدها قط..
مصطلح (لعنة الفراعنة)..
وكما يحدث دوماً، في كل مرة تنشأ فيها بدعة جديدة، إنتشر المصطلح بسرعة مدهشة، وراح الكل يرددونه، ويناقشونه، ويفحصونه، ويمحصونه..
وكما يحدث أيضاً، إنقسم المتابعون، بين مؤيد ومعارض للفكرة..
المؤيدون أكّدوا أن الفراعنة عاشوا عالماً عجيباً غريباً، ترك لنا الكثير من الغوامض والأسرار، التي لم يمكننا كشفها بعد، فليس من المستبعد إذن أن يخلفوا وراءهم لعنة ما، تصيب كل من يدنس قبورهم، حتى ولو كان هذا بحجة تحقيق كشوف أثرية جديدة..



الباحث الشهير ((هوارد كارتر)) من أشد من عارضوا نظرية لعنة الفراعنة

والمعارضون أصروا على أنه لا توجد ركيزة علمية واحدة، يمكن أن تؤيد الفكرة، وأنه من السخافة أن يتردَّد أمر كهذا، لمجرَّد أن ممول حملة (هوارد كارتر) قد لقى مصرعه بحمى غير معروفة..

وبين هؤلاء وهؤلاء، وقف (هوارد كارتر) نفسه، يعلن في كل المجتمعات، وكل المحافل العلمية، أنه لم ولن يؤمن أبداً بما يسمونه لعنة الفراعنة؛ لأنه مستكشف قديم، واجه الأمر عشرات المرات، دون أن يصيبه مكروه واحد..

والمدهش أن هذا لم يقنع أحداً، خاصة وأن حالات الوفيات، والموت بأسباب غير معروفة، راحت تنتشر على نحو ملفت للأنظار، بين كل من كانت له علاقة مباشرة، أو غير مباشرة، بكشف مقبرة (توت غنخ آمون)..

وعندما هل عام 1929م، كان عدد من وافتهم المنية منهم، لأسباب غير واضحة، إثنين وعشرين رجلاً..

وفي العام نفسه، وفي جلسة خاصة، أعلنت زوجة (كارنرفون) أنها أيضاً لا تؤمن بلعنة الفراعنة، ولا تصدق أن الموتى يمكنهم قتل الأحياء، بأية وسيلة كانت..

وكان من الممكن أن ينهي تصريحها هذا القضية ويحسمها، لولا تطوّر مفاجئ، لم يكن في الحسبان أبداً..

فقبل أن يكتمل الأسبوع، أصيبت زوجة كارنرفون) بالحمى الغامضة نفسها، التي أصيب بها زوجها؛ وراحت تهذي وتصرخ ليومين تقريباً، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على فراشها، تاركة خلفها أكبر موجة من الرعب، عرفها التاريخ الحديث، حتى تلك الفترة..

رعب لعنة الفراعنة..

ولفترة طويلة، لم يعد هناك حديث للصحافة ووسائل الإعلام، سوى عن الفراعنة.. ولعنة الفراعنة..

وظهرت في الأسواق كتب، ودراسات، وروايات، وحتى أفلام سينمائية صامتة، تدور كلها حول لعنة الفراعنة..

ومن بين تلك الكتب، ظهر كتاب يحمل للمهتمين بالأمر مفاجأة مثيرة للغاية..

مفاجأة تقول : إن لعنة الفراعنة لم تبدأ مع فتح مقبرة (توت غنخ آمون)، بل كانت هناك قبل هذا بقرن من الزمان على الأقل..

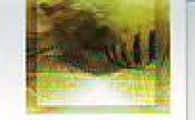
ولقد إرتبطت فعلياً بإثنين من مشاهير العلم..

أو ربما أشهرهم..

على الإطلاق.

× × ×

ذات صباح دافئ، من شتاء عام 1799م، وبمصادفة رتبها القدر حتماً، وأثناء الحملة الفرنسية على (مصر)، عثر جندي فرنسي على حجر في مدينة (رشيد)



المصرية، يعتبره علماء الآثار، في يومنا هذا، أعظم كشوف القرن على الإطلاق.. فذلك الحجر، الذي أطلقوا عليه إسم (حجر رشيد)، والذي هو من مادة البازلت، كان يحوي كتابات بثلاث لغات.. اليونانية القديمة، والقبطية أو الديموطيقية، والهيروغليفية..

وتعود الأهمية الأثرية البالغة لهذا الحجر، إلى أنه حتى كشفه، كانت الهيروغليفية، بالنسبة للعالم كله، مجرد نقوش منظمة، يسعى العلماء لإستنتاج أو إستنباط ما تعنيه، دون أن يتمكنوا من حل رموزها، أو تحديد منطوقها، بأي حال من الأحوال.. وعندما تم كشف (حجر رشيد)، وجد الأثريون أن الكتابة اليونانية، هي ترجمة أمينة ودقيقة للكتابة الديموطيقية، الموجودة على وجه آخر منه..

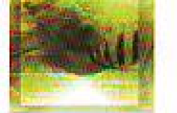
وكان هذا يعني، من باب المنطق، أن الكتابة الهيروغليفية، هي أيضاً ترجمة أمينة ودقيقة للنص نفسه..

وعلى الرغم من أن وسائل الإتصال كانت ضعيفة للغاية، في ذلك الزمن، مقارنة لما أصبحت عليه، بعد قرن واحد من الزمان، وليس في عصرنا الحالي بالطبع، والذي حدث فيه تطور مدهش، في نظم ووسائل الإتصال، في الفترة بين مقدمة المقال، وهذه السطور، فقد طار الخبر إلى (أوروبا) كلها، فإنتعش علماءها، وإلتهب حماسهم، وإلتهبت عقولهم، وهم يجدون أمامهم فرصة نادرة، لكشف أسرار وغوامض اللغة الهيروغليفية، مع كل ما قد يحمله هذا من كشف لتاريخ (مصر) القديمة، وفراعنتها، وعلومها، وأسرارها الخفية، التي لم يصل العلم الحديث، إلى بعضها، حتى لحظتنا هذه..

ولأن (نابليون بونابرت)، الذي كانت حملته تحتل (مصر)، في ذلك الحين، كان مغرماً بالعلم والعلوم، ويرغب دوماً في أن يرتبط عصره بالكشوف العظيمة، في كل المجالات، فقد سارع بنقل الحجر إلى (باريس)، حتى تتم دراسته، على أيدي الخبراء هناك..



الجنرال الفرنسي الأشهر (نابليون بونابرت)



وبكل شغف ولهفة الدنيا، أقبل العلماء على فحص الحجر، وتدوين ما عليه من كتابات ونقوش، ثم راحوا يدرسون، ويفحصون، ويمحصون، و...

وييأسون أيضاً..

فالأمر لم يكن أبداً بالسهولة، التي أوحي بها الأمر منذ البداية..

فلا أحد منهم كان يعمل من أين يبدأ الترجمة!!.. أمن اليمين، أم اليسار، أم من أعلى، أو أسفل..

ولسنوات وسنوات، وعلى الرغم من كل ما بذله العلماء من جهد، فقد فشلت كل محاولاتهم لترجمة اللغة الهيروغليفية، وكشف أسرارها..

حتى جاء (شامبليون)..

كان (جان فرانسوا شامبليون) من العلماء الشبان، الذين عشقوا الحضارة الفرعونية، منذ نعومة أظافرهم، والذين جذبهم بشدة (حجر رشيد)، وكل ما يمكن أن يمنحه من كشوف هائلة، لذا فقد إتخذ قراراً جريئاً، بأن يتفرغ تماماً لمهمة فحصه، وترجمته، وكشف أسرار اللغة الهيروغليفية، التي ستساعد العالم كله على الإطلال من نافذة هائلة، على حضارة تعد الأعظم، بين كل الحضارات، التي شهدها العالم القديم..

ولقد بدأ (شامبليون) مهمته، وهو في الحادية والعشرين من عمره، وتفرغ لها تماماً، وراح يوصل الليل بالنهار، بحثاً عن طرف خيط، يمكن أن يقوده إلى حل اللغز..

ثم، وعلى خلاف الآخرين، لاحظ (شامبليون) أن عدد أسماء الملوك، في النصين اليوناني والديموطيقي، يتطابق تماماً مع عدد الخراطيش، في النص الهيروغليفي، لذا فقد إستنتج من هذا أن الخراطيش تحوي داخلها أسماء الملوك..

ومن هنا، إنطلق (شامبليون)..

وبحسبة بسيطة، حدَّد أسماء الملوك، في النص الهيروغليفي، وترجمها، وسجل حروفها، وإنطلق منها إلى باقي النص..

وبعد إحدى عشر عاماً، وفي عام 1916م، توصل (شامبليون) إلى أعظم كشوف الزمان، في علم الآثار والتاريخ القديم، وحل رموز اللغة الهيروغليفية..

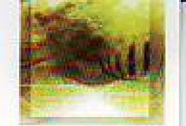
وفتح أنظار العالم كله على الفراعنة..

وعلى دنيا الفراعنة..

وفي ليلة وضحاها، أصبح (شامبليون) أعظم علماء عصره، وهو بعد في الثانية والثلاثين من عمره، وأحاطت به الشهرة من كل جانب، وتحوَّل إلى أشهر خبير في لغة الفراعنة، و...

وفجأة، تفجَّرت في وجهه اللعنة..

فعلى حين غرة، ودون أسباب واضحة، أصيب (شامبليون) بشلل رباعي، وحمى غامضة، وراح يهذي ويرتجف، ثم لم يلبث أن قضي نحبه، تاركاً خلفه من يروي

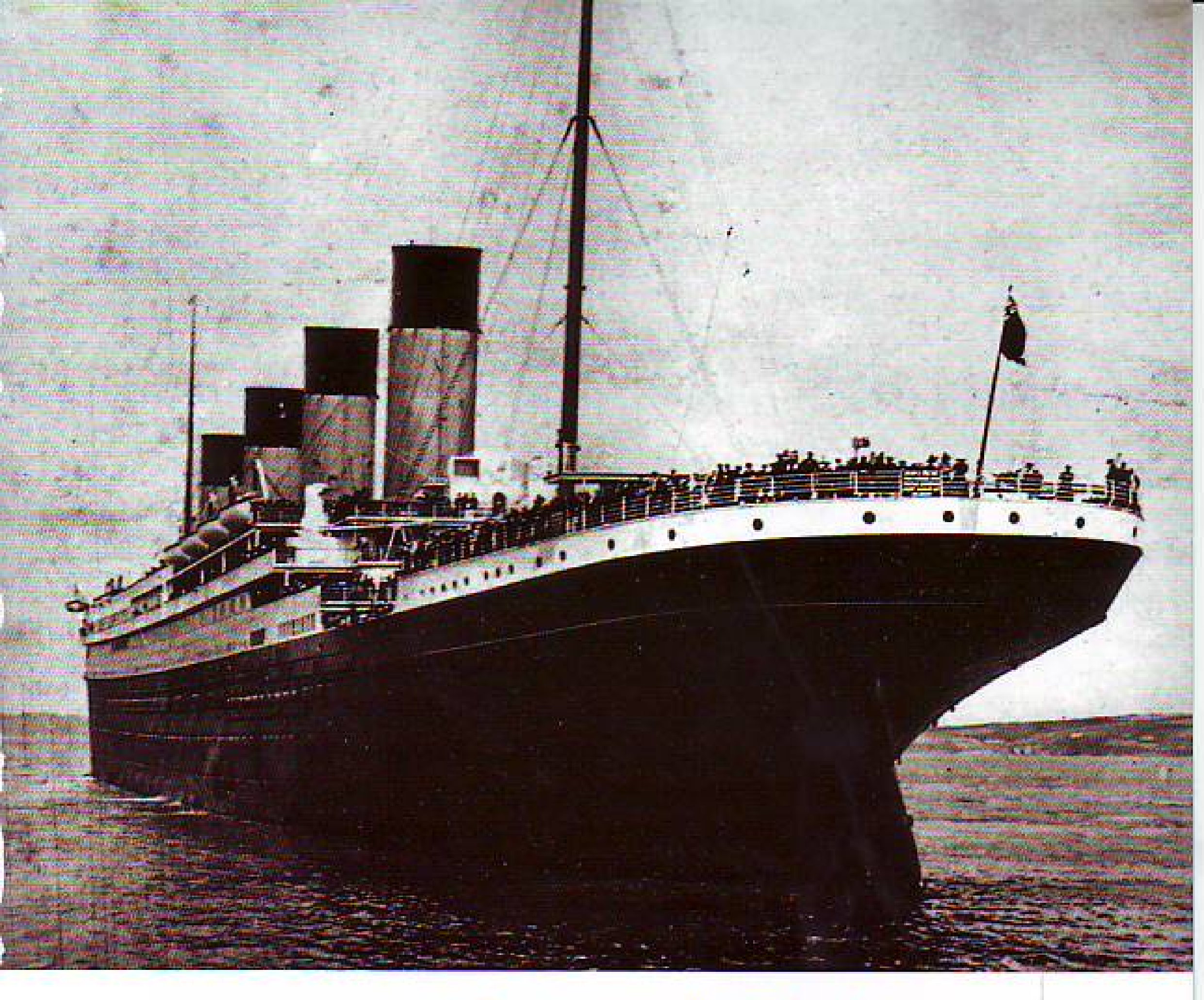


هلاوسه الأخيرة..
وبالمصادفة، كانت كلها عن الفراعنة.. وإنتقام الفراعنة..
كان هذا عام 1932م، كما يروي لنا ذلك الكتاب، الذي تحدَّث عن تاريخ لعنة الفراعنة، السابق لإكتشاف مقبرة (توت غنخ آمون).
ولا يكتفي الكتاب بربط أشهر عالم آثار بتلك اللعنة الوهمية، وإنما يسبح معنا إلى ما هو أبعد من هذا..
إلى (تيودور بلهارز)، أستاذ علم التشريح المرضي، ومكتشف أشهر مرض يصيب المصريين، منذ أيام الفراعنة..
البلهارزيا..
ويقول الكتاب أن (تيودور بلهارز) قد قضى شطراً طويلاً، في حياته القصيرة، يطارد تلك الدودة القاتلة، التي تخترق أجساد المصريين، وتستقر في أكبادهم، وتدمرهم تدميراً بطيئاً منتظماً، وتسلبهم نشاطهم وحيويتهم..
ثم حياتهم فيما بعد..
وبعد تلك السنوات، خطرت في ذهن (بلهارز) فكرة عجيبة..
ترى متى بدأت (البلهارزيا) في حربها مع المصريين؟!..
وفي سبيل إجابة السؤال، لجأ (بلهارز) إلى أمر لم يخطر ببال سواه قط، إذ إنتقل بأبحاثه من الموتى المصابين بالمرض، إلى مومياوات الفراعنة القدامى، وبالذات تلك الخاصة بالعمال والمزارعين، الذين تدفعهم ظروف عملهم للخوض في مياه النيل طوال الوقت..
أيامها، لم يكن للآثار قيمتها الحالية، ولم تكن هناك تشريعات قوية، لحمايتها والحفاظ عليها، لذا كان من الممكن أن يبتاع (بلهارز) بعض المومياوات، التي يتم العثور عليها في الجنوب، أثناء أعمال الحفر والبناء، وأن يجرى عليها تجاربه..
وكان هذا يعني بالطبع نبش قبور القدامى، وإستخراج مومياواتهم، بل وتشريحها والتمثيل بها أيضاً..
ولقد نجحت تجارب (تيودور بلهارز) إلى حد كبير، إذ أثبت بالفعل أن المصريين القدامى أصابتهم (البلهارزيا)، منذ آلاف السنين، بل وعثر على بعض الديدان المحنطة داخلهم بالفعل..
ولكن فجأة، وقبل أن يسجل (بلهارز) تجاربه رسمياً وعلمياً، أصابته حمى مجهولة..
حمى لا تشبه التيفوئيد، أو أية حمى معروفة أخرى..
ومع الحمى، التي لم يتم تشخيصها أو علاجها بالطبع، راح (بلهارز) يهذي، ويصرخ ويهذي وتراوده هلاوس عجيبة، حول المومياوات، التي قام بتشريحها، والتي بدت له وكأنها قد عادت إلى الحياة، لتنتقم من ذلك الذي أقلق راحتها، ومثَّل بها، و...
ومات (تيودور بلهارز)، عام 1862م، وهو بعد في السابعة والثلاثين من عمره،

بتلك الحمى المجهولة، التي لم يتم تشخيص أعراضها، حتى يومنا هذا..
وفي هذه المرحلة، لا يحاول الكتاب وضع تفسيرات علمية أو منطقية، لما أصاب (شامبليون) أو (بلهارز)، ربما لأنه شغف بمحاولة تأكيد فكرة لعنة الفراعنة، بأكثر مما إهتم بتفسيرها..
ولكن هذا كان دأب الجميع، في تلك المرحلة الزمنية، خاصة وأن الفكرة نفسها بدت جذابة ومثيرة، خاصة وهي ترتبط بعالم الأسرار والأساطير، وحمى السحر والتنجيم والغموض..
ودون أية دلائل علمية أو تاريخية، أعقبت ذلك الكتاب عدة كتب أخرى، تنسب موت عشرات المشاهير إلى لعنة الفراعنة، التي صارت صرعة النصف الأول من القرن العشرين..
حتى (يوليوس قيصر) نفسه، إدعوا أن لعنة الفراعنة قد طاردته، وأصابت عقله بحمى جنونية، دفعته إلى تلك الأفعال الديكتاتورية، التي إنتهت بمقتله وإغتياله، على يد مجموعة من المقربين له، وعلى رأسهم ربيبه (بروتس)..
وأصيب الناس بالضجر والملل، من هذه الكتب السخيفة، وقرّروا تجاهلها فجأة، فإنخفضت مبيعاتها إلى حد كبير، وبدا وكأن لعبة لعنة الفراعنة هذه قد بلغت نهايتها، و..
وفجأة، ظهر كتاب جديد في الأسواق..
كتاب قلب كل الموازين، رأساً على عقب..
وبمنتهى العنف.

× × ×

في صيف 1985م، وبعد أشهر من البحث، إستقل البروفيسير (روبرت بولارد)، المتخصّص في تصوير الأعماق، الغوّاصة العلمية (ألفن)، والمجهزة للغوص حتى مسافة 13 ألف قدم، تحت سطح المحيط، لإستكمال مشروع البحث عن حطام سفينة، غرقت منذ ثلاثة وسبعين عاماً تقريباً..
كانت الغوّاصة (ألفن) مزوّدة بإنسان آلي صغير، يكمن في تجويف خاص في مقدمتها، ويمكن إطلاقه بوساطة قائدها، إلى مسافات تعجز الغوّاصة عن بلوغها، في أعمق الأعماق..
وعبر كاميرا صغيرة، في مقدمة الآلى (أرجو)، راح البروفيسير (بولارد) يتلقى عشرات الصور، لأعماق المحيط الأطلنطي، فيفحصها ويراجعها بمنتهى الدقة، دون أن يعثر فيها على أدنى أثر لما يبحث عنه..
ثم فجأة، بدأ (أرجو) يرسل مجموعة من الصور الإيجابية..
صور لم تكن واضحة في البداية، إلا أنها لم يلبث أن إتضحت رويداً رويداً، وأصبحت جلية نقية، على نحو إنتفض به قلب (بولارد) بين ضلوعه، وتفجّر معه



سفينة (تايتانيك) الحقيقية في رحلتها الأولى .. و الأخيرة !

الحماس في قلوب كل رجل من رجال بعثته الصغيرة..
هذا لأن (أرجو) قد عثر أخيراً على السفينة موضع البحث..
والأهم، أنها لم تكن سفينة عادية..
بل كانت أشهر سفينة غارقة، في التاريخ الحديث كله..
كانت (تايتانيك)..
و(تايتانيك) هذه كانت سفينة عظيمة هائلة، تعتبر طفرة تاريخية في تاريخ صناعة وبناء السفن، إذ أنها أضخم سفينة ركاب شهدها العالم، حتى تاريخها، إذ بلغ وزنها 52310 طناً، وبلغ طولها 882 قدماً، وعرضها 94 قدماً في المتوسط، كما أن إرتفاعها كان يبلغ ارتفاع مبنى من أحد عشر طابقاً..
حتى إسمها، كان يعني المارد..
ولم تكتف (تايتانيك) بالضخامة، وإنما أضافت إليها الفخامة المفرطة أيضاً، والتي لم تعرفها سفينة ركاب من قبل، وبالذات في درجتها الأولى، ذات حجرات النوم الهولندية، وقاعات الطعام الكبيرة، والصالونات الفاخرة، والشرفات الضخمة..

وعندما تم الإعلان عن تدشين (تايتانيك)، تسابق كبار الأثرياء والتجار لحجز أماكنهم عليها؛ للفوز بأولى رحلاتها، التي ستعبر خلالها المحيط، حتى تصل إلى الشاطئ الأمريكي.
وفي العاشر من أبريل 1912م، ترقب العالم بمنتهى اللهفة، رحلة (تايتانيك) الأولى عبر المحيط، وأحيطت تلك الرحلة بدعاية هائلة، حتى لقد إصطف آلاف الناس، على رصيف ميناء (كوينستون) في (إنجلترا)، بين مودعين ومشاهدين، لمراقبة السفينة العملاقة، والإنبهار بها، ومشاهدة إنطلاقتها الأولى، وعلى متنها صفوة الأثرياء ورجال المجتمع، وفي قاعها مئات من مسافري الدرجتين، الثانية والثالثة..
وإنطلقت (تايتانيك)..
إنطلقت تمخر عباب المحيط، في زهو وخيلاء، وصاحبها يُعلن، في تعال مغرور، أن سفينة من القوة والضخامة، حتى أن القدر نفسه، لا يمكنه أن يغرقها..
ويا لها من عبارة جاحدة، متجنية، مغرورة، حمقاء..
ففي الرابع عشر من أبريل، وبعد أربعة أيام فحسب من بدء رحلتها، وبخطأ ملاحي صغير، إرتطمت العملاقة (تايتانيك) بجبل جليدي ضخم، لم يدر أحد، حتى هذه اللحظة، كيف لم يره قبطانها ومهندسوها وبحارتها..
وعلى الرغم من أن السفينة المارِدة، كانت مصممة بحيث يمكن عزل أي قسم يصاب منها، عن باقي أجزاءها، إلا أن المياه قد غمرتها بسرعة مدهشة، لم تسمح باتخاذ أية إجراءات وقائية..
وابتسم القدر في سخرية، عندما بدأت (تايتانيك) تواجه ما تصوَّر صانعوها أنه مستحيل!!..
الغرق..
وطوال إثنتي عشرة ساعة كاملة، وكم هائل من الرعب، وضطراب ما له من حدود، راحت (تايتانيك) تغرق.. وتغرق.. وتغرق..
وفي يوم 15 أبريل 1912م، إختفت (تايتانيك) تماماً، في قاع المحيط الأطلنطي..
وكان يمكن ألا نربط بين غرقها ولعنة الفراعنة، بأى حال من الأحوال، لولا ما نشره أحد الناجين منها فيما بعد، مع روايته كشاهد على عملية غرق أشهر سفينة في التاريخ..
ففي شهادته، أشار الرجل بشكل عابر، إلى أن مخزن بضائع السفينة كان يضم تابوتاً لكاهنة فرعونية، إرتبط وجوده بأحداث مخيفة رهيبة، قبل أن يغرق مع كل ما غرق ومن غرق مع (تايتانيك)..
فمنذ تم وضع التابوت في مخزن البضائع، في قاع (تايتانيك)، كان عمال المخزن يرون ويسمعون ما أصابهم بالرعب، وجعلهم يطالبون بإعفائهم من العمل، أو نقلهم إلى وظيفة أخرى، حتى ولو تم تخفيض رواتبهم، أو مضاعفة جهدهم..
فما أن يحل الليل، كانوا يسمعون تأوهات الكاهنة، ويرون شبحها، و...



والواقع أنني شخصياً لا أصدق حرفاً واحداً من كل هذا، بل وأشعر معه بالكثير من الخيال والتدليس، خاصة وأنه ليس من السهل أن تتواجد امرأة في عالم الكهنة، في (مصر) الفرعونية..

ثم أن أحداً لم يعثر على ذلك التابوت المزعوم قط، بعد العثور على حطام (تايتانيك)، وكل ما كان على سطحها تقريباً..

إلا أن القصة تجد صدى كبير، لدى كل المتابعين لأسطورة لعنة الفراعنة، وكل من يسعى لإثبات صحتها أو عدمها، حتى أنك ستجدها في عشرات الكتب والمراجع، الخاصة بهذا الأمر..

وعندما تم سؤال البروفيسور (روبرت بولارد) عن قصة تابوت الكاهنة هذه، جاءت إجابته غامضة للغاية، إذ أنه لم يؤكد وجوده، كما لم يؤكد في الوقت ذاته العثور على عشرات الأشياء الأخرى، ولكنه لم ينف فكرة تواجده تماماً، وإنما أشار إلى أن عشرات السنين، التي قضتها (تايتانيك)، في قاع المحيط الأطلنطي، كانت كافية تماماً لتحلل وفساد وإختفاء عشرات الأشياء، من سطحها، وقاعها، ومخزن بضائعها بالطبع..

وجواب البروفيسور (بولارد) منطقي تماماً، فالتابوت كان مصنوعاً من الخشب، وليس من الحجر، والمومياء ستتلف حتماً، وسط المياه المالحة، وربما تلتهمها الأسماك أيضاً..

أو أن هناك تفسير آخر..

ففور الإعلان عن العثور على حطام السفينة العملاقة، تسابق مئات من هواة التحف والأثريات، لحجز وشراء أي شيء، تم العثور عليه داخلها..

وهناك شائعة قوية، تقول: إن أحد كبار الأثرياء الأمريكيين قد إبتاع التابوت سراً، وبداخله مومياء الكاهنة بالطبع، خشية أن يطالب به متحف (نيويورك) رسمياً، نظراً لأنه كان مشحوناً لحسابه، بالفعل، عندما غرقت (تايتانيك)..

ولكنها تبقى مجرد شائعة..

تماماً ككل ما يرتبط بتلك اللعنة الوهمية المزعومة..

فمن المدهش أنه، وعلى الرغم من إنتشار المصطلح، ومن آلاف القصص والروايات، وأفلام السينما، والكتب التي دارت حوله، إلا أنه لا توجد قصة دقيقة واحدة، أو حتى رسالة علمية منطقية، حاولت البحث عن الأمر..

كل ما حدث هو عملية رصد دقيقة لحالات الوفيات، بين معظم من عملوا في مجال البحث عن الآثار الفرعونية..

والفرعونية بالتحديد..

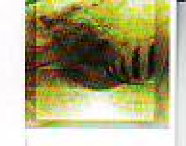
فالعجيب أن أحداً لم يتحدث عن أية لعنة، تصيب الباحثين عن الآثار الرومانية، أو اليونانية، أو الآشورية، أو حتى حضارات الأنكا، في (أمريكا) الجنوبية.. فقد إرتبطت اللعنة بالآثار الفرعونية..

وبالذين سعوا خلف الآثار الفرعونية..

الرحالة الشهير (بلزوني) مثلاً، جاب العالم، بحثاً عن الآثار، في مختلف البلدان، وحقق إنتصارات مدهشة ومثيرة، دون أن يصيبه مكروه..
ثم جاء إلى (مصر)، وبدأ ينبش قبور الفراعنة، ونقل قاعدة تمثال (آمون) من (الأقصر)، وإنتشل مسلة من قاع النيل، وأجرى أبحاثاً طويلة عن هرم (خوفو)، بحثاً عن مدخله، وإقتحم المقابر، والمعابد، وإستخرج الجثث، والمومياوات، والعظام..
ثم فجأة، أصابه ذلك المرض الغامض، الذي أصاب معظم علماء الآثار، فسيطرت عليه حمى لاهبة، وأصابه الهذيان، وطاردته الهلاوس، حتى لقي حتفه، في مساء الثالث من ديسمبر، عام 1823م، وهو بعد في الخامسة والأربعين من عمره..
نفس الحمى..
ونفس النهاية..
ولأن حالات الموت متشابهة دوماً، في كل من أصابته لعنة الفراعنة المزعومة، فقد جذب هذا إنتباه وإهتمام البروفيسور الألماني (فيليب فاندنبرج)، والذي خرج إلينا بتفسير جديد للعنة الفراعنة..
تفسير علمي..
ولأوّل مرة.

× × ×

× عبر السنوات الطويلة، التي تردَّد خلالها مصطلح (لعنة الفراعنة)، كانت معظم الكتب والدراسات، الخاصة بها، تقتصر على تسجيل ورصد الحالات، التي إرتبطت بالتنقيب عن آثار فرعونية، والتي لاقت مصيراً غامضاً، وعانت من حمى غامضة مجهولة، تنتهي عادة بالوفاة..
ثم جاء كتاب البروفيسور الألماني (فيليب فاندبنرج)..
وكتاب (فاندبنرج) يعد موسوعة علمية متكاملة، عن (لعنة الفراعنة)، ومحاولة شديدة الجرأة؛ للبحث عن تفسير علمي لها، من خلال مختلف إتجاهات العلم، بدءاً من الكيمياء، ووصولاً إلى الإشعاعات النووية..
ولقد إهتم (فاندبنرج) كثيراً بتسجيل معظم الحالات، التي أصابتها (لعنة الفراعنة)، من وجهة نظره، ثم توقف طويلاً عند تلك الحمى، التي أصيبت بها معظم الحالات، والتي أدت إلى الهذيان والهلوسة، ثم الموت فيما بعد..
ومن هنا، وضع العالم الألماني نظريته..
ونظرية (فاندبنرج) تربط لعنة الفراعنة بثلاثة إحتمالات علمية، تبدو في جانب منها منطقية ومعقولة، إلى حد كبير..
الأحتمال الأوّل هو أن تحوي مقابر الفراعنة، وملوكهم على وجه الخصوص،



غازات سامة، أو عقاقير وأتربة بطيئة المفعول، من إبتكار الكهنة، الذين أخفوا دوماً علومهم عن العامة، وإن تركوا لنا دلائلها، من خلال سر التحنيط، الذي حار فيه علماء الكيمياء، حتى يومنا هذا..

ومن وجهة نظر العالم الألماني، أن الكهنة قد إبتكروا نوعاً من السموم شديدة البطء، أشبه بعقاقير الهلوسة، ومزجوها بأتربة المقابر الخاصة بالملوك، كوسيلة لعقاب كل من تسول له نفسه نبشها أو سرقتها..

وربما كانت تلك العقاقير أكثر تأثيراً في الماضي، وأسرع مفعولاً، إلا أن خواصها قد تغيرت تماماً، عبر آلاف السنين من التخزين، ولكنها، وفي كل الأحوال، تترك أثرها في دماء كل من يقتحم المقابر الفرعونية، ويستنشق ترابها، ثم يبدأ تأثيرها بعد عدة سنوات، على شكل حمى، وهذيان، وهلوسة..

والإحتمال قد يبدو منطقياً للوهلة الأولى، إلا أن قليل من التفكير فيه، يجعلنا ندرك عقمه تماماً، إذ أن العلم قد قطع شوطاً ضخماً، في السنوات العشر الأخيرة، وأصبح من السهل تحليل أتربة المقابر، ومعرفة كل ما تحويه، بل إنه هناك مراكز متخصصة لأبحاث التربة، يمكنها تحديد مكونات أية عينة من الأتربة بمنتهى الدقة..

وبمنتهى السرعة أيضاً..

والكشوف الأثرية ما زالت مستمرة، ولم تتوقّف حتى الآن، ولو أن إحتمال السموم بطيئة المفعول هذا وارد، لتوصل إليه العلم الحديث فوراً..

ولكن (فاندبنرج) نشر كتابه في سبعينات القرن العشرين، وقبل أن يبلغ العلم هذا الحد، أو تظهر أجهزة وبرامج الكمبيوتر، التي قلبت كل الموازين، رأساً على عقب..

ولكن دعونا لا نتوقف طويلاً عن الإحتمال الأوَّل، ولننتقل منه إلى الإحتمال الثاني، والأقرب إلى المنطق..

الفيروسات..

فالبروفيسور الألماني يفترض أنه كان هناك فيروس قديم، كامن في أتربة مقابر ملوك الفراعنة..

فيروس ساد في القرن القديمة، أو إستخدمه الكهنة أيضاً، في فترة ما، أو أنهم قد ورثوه من حضارة سابقة!!..

وذلك الفيروس ينتقل إلى أجساد من يقتحم المقابر، ويسري في دمه وأنسجته، ليقضي فيها فترة حضانته، التي تبلغ سنوات وسنوات، وترتبط بالقابلية الشخصية للإصابة، وبقوة مناعة الجسم، التي تختلف من شخص إلى آخر..

وعندما يبدأ ذلك الفيروس المفترض نشاطه، يصاب الإنسان بالحمى، التي تهاجم المخ على الأرجح، مسببة الهذيان والهلوسة..

والإحتمال هذه المرة منطقي وعلمي تماماً، ويمكننا هضمه وإستيعابه، إلى حد كبير، وخاصة بعد ظهور فيروس (الإيدز)، الذي يكمن في الأجساد لسنوات

طويلة بالفعل، قبل أن تبدأ أعراضه في الظهور..
ثم أن فكرة الفيروس هذه تتناسب مع الحمى المخية، والهذيان، والهلوسة، والوفاة أيضاً..
وكذلك تتفق مع عجز الأطباء عن تشخيص المرض، في عصر لم تكن الأبحاث الطبية قد تطوَّرت إلى الحد الكافي، لكشف مثل هذه الكائنات الدقيقة، واستيعاب طبيعتها وأعراضها..
ولكن تعود بنا الخيوط إلى السؤال الأوَّل..
لماذا لم يعد ذلك الفيروس يظهر، في الكشوف العلمية والأثرية الحديثة؟! هذا السؤال نتركه للبروفيسور الألماني، ونتركه لعقولنا، تدرسه، وتناقشه، وتحلله.. ثم تتوصل إلى نتائجه..
أما نحن، فسننتقل إلى الإحتمال الثالث، في نظرية (فاندبنرج)..
والإحتمال الثالث مدهش، ومثير للحيرة، ولست أدري حتى كيف وضعه العالم الجليل، ولكن يبدو أن إيمانه بالفراعنة كان يتجاوز كل الحدود..
فذلك الإحتمال، هو أن ترتبط (لعنة الفراعنة) بنشاط إشعاعي ذري، ظل مختزناً داخل مقابر الملوك لآلاف السنين، لينطلق في وجه كل من ينبشها..
وربما يتفق الإحتمال مع بعد التأثير، ومع أعراض الحمى والهلوسة والهذيان، والموت في نهاية المطاف، كما يتفق أيضاً مع عجز الأطباء القدامى عن تشخيص الحالات، وحيرتهم في مواجهتها، إلا أنها تضعنا أمام إحتمال جديد، يبدو أكثر خيالاً من كل ما سبقه..
إحتمال أن الفراعنة كانت لديهم معرفة دقيقة بالنشاطات الإشعاعية.. وهذا أمر غير مقبول على الإطلاق..
حتى لو إفترضنا أنهم قد توصلوا إلى تراب اليورانيوم مثلاً، وأن الكهنة قد أدركوا أنه يختلف عن التراب العادي، وأن له تأثيرات فتاكة على كل من يلمسه أو يستنشقه، فسنتساءل بدورها، كيف أمكنهم إتقاء تأثيره عليهم، دون أن تكون عندهم أبحاث، ودراسات، ووسائل مقاومة؟!..
ولو إفترضنا أن هذا قد حدث بالمصادفة، ودون وعي منهم، وأن بعض المواد، الداخلة في مساحيق التحنيط، كانت مواد مشعة فتاكة، فأين ذهبت هذه المواد، ولماذا غاب تأثيرها، وإختفت من المقابر، على الرغم من أنها قد بقيت لآلاف السنين؟!..
ثم لماذا تواجدت في الكشوف القديمة، ولم تتواجد في الكشوف الحديثة؟! كل هذا ينبغي أن يقودنا إلى نتيجة واحدة لا غير، مع جزيل إحترامنا للبروفيسور (فيليب فاندبنرج)، وشهرته، وعلمه الغزير..
يقودنا إلى أنه لا وجود لما يسمى بـ(لعنة الفراعنة)!..
ربما كانت هناك حوادث عديدة، ترتبط بكل من نقب عن الآثار، في آزمته إنخفضت فيها درجة الوعي الصحي، إلا أن هذا لا يعني وجود لعنة أسطورية،



صالحة لخيال الكتاب والسينمائيين، ولكنها غير قادرة على إقناع أي صاحب عقلية علمية أو منطقية..

وهنا، ينبغي أن أضم صوتي لكل الأصوات، التي ترفض، وبشدة، فكرة (لعنة الفراعنة) هذه، والتي تستنكر حتى ترديد المصطلح، أو حتى مناقشة إحتمالات صحته..

وأهم ما ينبغي معرفته، في هذا الشأن، هو أن أكثر من هاجم الفكرة، وحارب لإثبات زيفها وحمقها، هو الشخص الذي إرتبط إسمه بمنشئها، منذ أول مرة ظهر فيها المصطلح..

(هوارد كارتر) شخصياً..

فمع شغف الناس بالحديث عن الأمر وترديده، كتب (كارتر) عدد كبير من المقالات، وألقى مئات المحاضرات، وإشترك في عشرات الندوات، ليهاجم الفكرة، ويؤكد أنها مجموعة من المصادفات السخيفة، بدليل أنه أول من دخل مقبرة (توت غنخ آمون)، أو أول من رصد ما بداخلها، لو شئنا الدقة، ولم تصبه أية أعراض، يمكن أن ترتبط بالمصطلح..

لا ألم، أو حمى، أو هذيان، أو هلوسة..

ولقد عاش (كارتر) حتى عام 1939م، في صحة جيدة، ودون أن يعاني سوى من الأعراض الطبيعية للتقدم في العمر، حتى مات ميتة هادئة في فراشه، وهو يواصل إنكاره وإستنكاره لفكرة (لعنة الفراعنة)..

ولكن العجيب والمدهش أن أحداً لم يستمع إليه..

هذا لأن الفكرة، بما تحويه من أسطورية وغيبيات، قد إستهوت الناس، في كل أنحاء العالم، وأصبحت مادة تجارية رابحة، ووسيلة لترويج مئات الكتب، والروايات، والدراسات، وأفلام السينما..

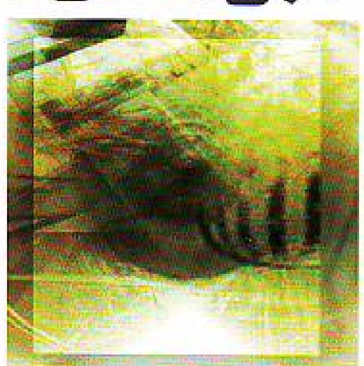
وهكذا أغلقنا جميعاً باب العقل والمنطق، وغرقنا حتى النخاع في هلاوس وخزعبلات وخرافات، وروايات لا أثل أو أساس لها..

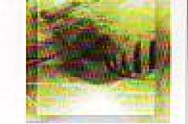
أو ربما نفعل هذا كجزء من لعنة، تلازمنا جميعاً بلا هوادة..

لعنة الفراعنة.



فوق العقل..





قديماً،

كانو مبهورين بما كشفوه من حدوده، التى لم تتجاوز أيامها، سوى قدرته على التحكم فى الحواس الخمس الأساسيّة...

ثم تطوّر العلم، وأدركوا أنه قادر أيضاً على مزج تلك الحواس بعضها ببعض.....

وحتى منتصف العشرينات، عندما كان العلماء يتصورون أنهم قد بلغوا ذروة العلم، كانت معارفهم عن العقل البشرى محدودة للغاية، على الرغم من أنهم كانوا يجرون أبحاثهم عن الفص الأمامى، والجسم الصنوبرى فى المخيخ...

والواقع أنه، حتى زمن قريب للغاية، كان الفص الأمامى للمخ يمثل لغزاً علمياً محيراً، لأطباء وجراحى المخ والأعصاب، خاصة وأنه هناك حالة مسجلة، لرجل أصابه خنجر فى جبهته، وانغرس لعشر سنتيمترات كاملة، دون أن يؤدى هذا إلى أى خلل، فى وظائف جسده....

أو عقله....

مع تلك الحادثة، راح العلماء يدرسون الفص الأمامى للمخ، فى اهتمام بالغ...

فحصوه...

ووزنوه....

وقطّعوه...

وحللوه...

ولكن هذا لم يوصلهم لشئ...

أى شئ...

وحار العلماء أكثر...

وأكثر..

وأكثر...

وتضاعفت أبحاثهم...

وتكثفت...

وتضاعفت...

وعندما أعيتهم الحيلة، بدأوا فى وضع النظريات...

والمدهش أن تلك النظريات كانت أقرب إلى الفلسفة، منها إلى العلم...

فالقاعدة التى يؤمن بها كل العلماء، هى أنه مامن جزء عبثى، فى جسد الإنسان كله....

جميعهم يؤمنون بهذا....

المؤمنون منهم وحتى الملحدين...

إذن، فمادام الفص الأمامى موجوداً، فله حتماً وظيفة ما...

وظيفة مستترة، ولكنها هامة ... للغاية..

فماذا يمكن أن تكون تلك الوظيفة....

افترض فريق منهم أن الفص الأمامي للمخ، هو المسئول عن الأحلام، ولكن الدراسات التى أجريت، على كل من أصيب فصهم الأمامى، أثبتت أنهم يحلمون بصورة طبيعية للغاية...

وهنا خرج فريق آخر من العلماء بنظرية ثانية...

نظرية تفترض أن الفص الأمامى للمخ، هو المسئول عن السمات الشخصية للإنسان، خاصة وأنهم قد لاحظوا بعض التغيرات، فى شخصية من أصيبوا فى فصوصهم الأمامية....

وارتاح العلماء لهذا التفسير...

وهنأوا أنفسهم...

وبعضهم...

و....

ولكن فرحتهم هذه لم تكتمل؛ إذ جاء علماء النفس، ليقلبوا تلك النظرية رأساً على عقب....

وبمنتهى العنف.

× × ×

علماء النفس البشرية قرأوا ماكتبه وتوصّل إليه علماء المخ....

ورفضوه....

وبمنتهى الشدة....

فمن منظورهم، ووفقاً لدراساتهم ومشاهداتهم، لا يمكن أن تكون السمات الشخصية للمرء كامنة، فى الفص الأمامى للمخ....

ولا حتى فى أى فص منه...

فالسمات البشرية، من منظورهم، ليست عاملاً وراثياً، يمكن أن يكمن فى فصوص المخ أو الجينات، بل هى أمر متغير، مع تغير البيئة، وقدرات المرء على التفاعل معها، وهو ماتؤكده أبحاثهم، التى أثبتت أنه حتى التوائم المتماثلة، يمكن أن تكتسب سمات مختلفة، أو حتى متعارضة، وفقاً للبيئة التى تنمو فيها، واختلافاتها...

وأسقط فى يد علماء المخ والأعصاب....

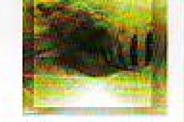
فما فائدة الفص الأمامى إذن؟!...

ومع الحيرة، تولد دوماً نظرية علمية جديدة...

والنظرية هذه المرة، كانت تعتمد على فكرة الاحتياطى المختزن....

والفكرة ببساطة، أن المخ قد يتعرّض إلى تلف جزئى، من جراء صدمة أو إصابة....

وقد يخسر بعض خلاياه الحيوية....



ولأن الخلايا العصبية غير قابلة للنمو أو الالتئام (وفقاً للعلوم الحالية)، فالخلايا في الفص الأمامى (الصامت)، لديها القدرة على أن تحل محل الخلايا التالفة، أياً كانت...

وكم ارتاح العلماء لهذه النظرية وهذا التفسير؛ إذ أنه يفسر غموض الفص الأمامى، ويمنحهم تفسيراً مرضياً، فى الوقت ذاته، حول حالات التحسن والشفاء، من إصابات المخ، على الرغم من قاعدة عدم النمو العصبى...

وهدأت الأمور...

نسبياً ....

ومرحلياً....

فبسرعة، بدأ بعضهم يتساءل: وماذا لو نزعنا الفص الأمامى للمخ، ثم تسببنا فى تلف جزئى لخلايا المخ؟!..

وقد كان....

ففى أمخاخ حيوانات التجارب، تم بتر الفص الأمامى بأكمله، وإصابة بهض خلايا المخ بتلف جزئى...

ثم انتظر العلماء...

ورصدوا..

وتابعوا..

وسجلوا...

واندهشوا أيضاً...

فالمخ أمكنه أن يستعيض عن الأجزاء التالفة، مع التدريب والتحفيز المستمرين... ودون الفص الأمامى...

وهكذا أثبت العلماء خطأ نظرية الاحتياطى المختزن...

وفتحوا باباً جديداً للتساؤل والحيرة...

وعاد الفص الأمامى لغزاً محيراً...

وعاد البحث عن نظرية جديدة...

ومن هنا نشأت نظرية الأحلام...

أحد العلماء أشار إلى أن الفص الأمامى للمخ، هو المسئول عن الأحلام، وأن تلفه يعنى غياب الأحلام، من فترات النوم...

ولما كانت الأحلام ضرورية للغاية، فى شخصية الإنسان، وحالته النفسية، فقد اهتم العلماء بشدة بتلك النظرية، وبدأوا فى دراستها، وإجراء تجاربهم عليها بالفعل...

وهنا انتبهوا إلى حقيقة مدهشة....

حقيقة أنهم يجهلون من الأساس ماهية النوم...

وماهية الأحلام...

لذا كان من الضرورى أن تبدأ أبحاثهم من بعيد..

بعيد جداً.

× × ×

لماذا ننام؟!....

السؤال يبدو سهلاً للغاية فى البداية....

والجواب أسهل...

فنحن ننام لأن الجسد يجهد، ويتعب، ويستنفد طاقته، ويحتاج إلى النوم، حتى يسترد عافيته وقوته....

هذا هو الجواب، الذى ستحصل عليه من أى شخص...

وستقتنع به...

تماماً...

ولكن الواقع أنه ليس الجواب الصحيح، من الناحية العلمية.....

فكل الأبحاث، التى أجراها العلماء، تؤكد أن النوم لا يستعيد الطاقة، التى نفقدها طوال النهار، وأنه لا يعيد إلينا سعراً واحداً منها...

ربما يدهشك هذا، أو تستنكره، أو تغضب منه....

أو ربما حتى تتهم كاتبه بالتخريف، والتلفيق، ومحاولة الإثارة دون منطق.....

ولكنه العلم....

فالعلم لا شأن له بما نتصوّره، أو نتوقعه، أو حتى تربينا عليه...

العلم يؤمن فقط بالأرقام، والحسابات، والدراسات، والتجارب...

ولقد أجرى آلاف منها على مسألة النوم تلك...

فى البداية، كان الفكر النمطى يقول إن النوم حالة يستعيض بها العقل والجسد مافقده من طاقة، لذا حسب العلماء طاقة الجسم، قبل وبعد النوم، فلم يجدوا اختلافاً بنهما....

وحاروا...

وارتبكوا...

وأجروا المزيد والمزيد من التجارب والدراسات.....

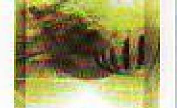
ومن أهم تلك التجارب، أنهم أخضعوا مجموعة من المتطوعين، إلى حالة من اليقظة المستمرة، فى نفس الوقت، الذى تمتعت فيه مجموعة أخرى بنوم منتظم عميق....

وبدأت دراسة مقارنه للفريقين....

فى البداية، بدا أفراد الفريق، المحروم من النوم، أكثر خمولاً، وعصبية، وأبطأ فى الاستجابة وردود الأفعال، وكأنما فقد حيويته مع قلة النوم....

ثم حدث تطور مدهش....

أفراد الفريق المستيقظ استعادوا حيويتهم فى اليوم الثالث، بل و أصبحوا أكثر

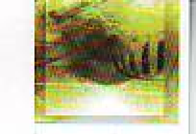


حيوية ونشاطاً، من الفريق الذى ينام على نحو منتظم...
الأغرب أن ملكاتهم الإبداعية، ومهاراتهم اليدوية، أصبحت أكثر وأدق، وهم يحاولون الاستفادة بالوقت الطويل، الذى حصلوا عليه، مع حذف ساعات النوم...
وفى نهاية الأسبوع كان العلماء فى حيرة أكبر، وهم يطرحون السؤال نفسه: لماذا ننام؟!..
فالفريقان تساويا فى الأداء، مع ميل الكفة تجاه المستيقظين، وليس كما توقع الكل...
هناك سبب آخر إذن للنوم، بخلاف استعادة الطاقة....
وعبر بعض التجارب، انتبه أحد العلماء إلى أن الجسد البشرى يفرز مادة طبيعية، شبيهة بالمورفين، أطلق عليها اسم الاندورفين، أى المورفين الداخلى....
ولأن الجسم يفرزها بصورة طبيعية، فقد افترض بعضهم أن تلك الاندورفينات تتراكم فى الجسد، وفى المخ بالتحديد، مما يصيبه بشئ من التخدير، يدفعه إلى النوم....
ونظرياً، بدت الفكرة منطقية ومعقولة للغاية......
والاندورفينات أصبحت حقيقة مثبتة....
وكان هذا يعنى حل لغز النوم أخيراً.....
ولكن فى العلم، النظريات وحدها لا تكفى، لابد من التجارب، والدراسات، والاختبارات، و....
والانقلابات....
وكان هذا بمثابة صدمة جديدة للعلماء، وإضافة محيرة للغز الكبير...
لغز النوم، و...
وللحديث بقية...
طويلة.

× × ×

مرة أخرى، صدم العلماء، بأن ماتصوّروه سبباً للنوم، هو فى الواقع ليس كذلك على الإطلاق.....
وهكذا عاد اللغز إلى بدايته....
وعاد السؤال يطرح نفسه، مع كم أكبر وأضخم من الحيرة....
ومن التوتر أيضاً....
فالسؤال، الذى بدا بسيطاً مباشراً فى البداية، وبدت إجابته سهلة يسيرة للعامة، أصبح من وجهة نظر العلم لغزاً، من أكبر ألغاز العقل البشرى....
لغز النوم....

ومع الأبحاث المتتالية، صار النوم لغزاً أكبر...
وأكبر...
وأكبر...
فالتجارب، التي أجريت على البشر، أثبتت كلها أن الإنسان يستطيع الاستغناء عن النوم تماماً، لو تم تدريبه على هذا.....
بل إن بعض الأمراض، ترتبط بعدم القدرة على النوم، لسنوات وسنوات.....
النوم إذن ليس ضرورة حيوية، كما كان متصوّراً من قبل، وهذه حقيقة علمية مدهشة، على الرغم من كل ماألفناه وعهدناه وتصورناه، فى عمرنا وتاريخنا كله....
ولكنه ضرورة نفسية، لا شك فيها؛ فالذين حرموا من النوم لفترات طويلة، اكتسبوا نشاطاً ليلياً مدهشاً، وأصبحوا أكثر عرضة للإصابة بالأمراض النفسية والعصبية....
وهذا يعيدنا إلى الموضوع الرئيسى، الذى دفع بنا إلى نهر العلم الفرعى هذا... الفص الأمامى للمخ...
فمع حيرة العلماء، وضع أحدهم نظرية، تقول إن الفص الأمامى، هو المسئول عن الاحلام، التى تراودنا، فى مرحلة النوم العميق....
وبعد دراسات، حدّد العلماء مرحلة الأحلام هذه، بارتجافة الجفون أثناء النوم، وراحوا يرصدون هذا، ويسجلونه، ويربطون بينه وبين مراحل النوم الأخرى....
وبعد أبحاث مجهدة، تمكن العلماء من قراءة لغة الجفون، وهى ليست لغة عاطفية كلغة العيون، ولكنها لغة خاصة بالأحلام، تحدد ما إذا الشخص يحلم حلماً جميلاً، أم مضطرباً، أم يعانى من كابوس عنيف....
كان من الضرورى أن تكون هذه هى البداية، لدراسة علاقة الفص الأمامى للمخ بعالم الأحلام...
العلماء فحصوا أُحاب الفصوص الأمامية الطبيعية، وأصحاب الفصوص المصابة، وحتى المصابين بأورام فى الفصوص الأمامية لأمخاخهم....
فحصوهم جميعاً، أثناء نومهم العميق...
ومرة أخرى، خيبت النتائج آمالهم وتوقعاتهم....
الكل نام...
واستغرق فى النوم...
وحلم....
وفى متوسطهم، كانت أحلامهم عادية، ومنطقية، ومتقاربة....
كلهم مر بأحلام وردية، ومضطربة، وعانى من بعض الكوابيس والهواجس، بلا فارق بين ماعليه فصوصهم الأمامية....
ودون الخوض فى عالم الأحلام ودلالاته، وهو ما سنتحدث عنه فى موضوع لاحق، فقد أثبتت تلك التجارب أن علاقة الفص الأمامى للمخ بعالم الأحلام



تساوى صفراً كبيراً...
صفر اتسع، ليلتهم كل أبحاث العلماء، بلا رحمة أو هوادة...
وبقى الفص الأمامى لغزاً....
وطوال تلك الفترة، التى انشغل فيها علماء الغرب بالبحث عن ألغاز الفص لبمخى، كان السوفيت يتعاملون معه، من منظور آخر تماماً...
منظور التقطوه من التراث الصينى واليابانى، ومن الرهبان التبتين، الذين أثاروا انتباه العالم كله، فى مرحلة تالية...
فالرهبان كانوا يعيشون حياة شديدة التقشف، فى ظروف مناخية غاية فى السوء، وبموارد تكاد تكون منعدمة، إلا أنهم كانوا يتعايشون مع هذا كله بثبات وصبر شديدين، ويمارسون نوعاً مدهشاً من الرياضات الروحية، جعلهم يكتسبون قدرات، لم يكن العلم يتصوّر أنه من الممكن أن يكتسبها بشر....
ففى جسمنا البشرى نوعان من الأعصاب والعضلات...
نوع إرادى؛ أى أننا نتحكم فيه بإرادتنا، مثل حركة أجسادنا، وأطرافنا، وحواسنا.....
ونوع لا إرادى، أى أنه من المفترض أن حركته لا تخضع لإرادتنا، مثل معدل النبض، والتنفس، واحتراق السعرات الحرارية، أو ما يعرف بالأيض، وحركة الدم فى العروق....
ولكن رهبان التبت، برياضتهم الروحية، وأجسادهم النحيلة، أثبتوا أمراً مدهشاً....
ومذهلا...
لقد أخضعوا اللا إراديات إلى إرادتهم....
جعلوا اللاإرادى، إرادى....
بإرادتهم....
وكان هذا، بالنسبة للعلم طفرة....
طفرة قلبت الموازين كلها رأساً على عقب...
وبمنتهى العنف.

× × ×

رهبان التبت كسروا كل معلومات العلماء، عن قدرات المخ البشرى، وأثبتوا أن طاقاته تفوق كل ما أمكنهم تخيله، خلال سنوات وسنوات وسنوات من العلم والدراسة والاختبارات...
زلأنهم درسوا كل مليمتر من المخ، فقد تصوّروا أن تلك الطاقات الجديدة، لابد وأن تنبع من المنطقة الوحيدة، التى لم يمكنهم سبر أغوارها بعد....
الفص الأمامى...

ولكن المشكلة أنه لا توجد أية إصابات، فى الفص الأمامى، لدى رهبان التبت؛ لدراسة تأثيرها على قدراتهم، ومن المستحيل، فى الوقت ذاته، إحداث إصابة متعمدة فى أحدهم أيضاً...

ليس هناك إذن سوى البحث عن وسيلة أخرى لدراسة هذا....

وهنا اتجه العلماء إلى دراسة الأمر، عبر وسيلة مختلفة تماماً....

رسّام المخ الكهربى...

جهاز يلتقط الموجات الكهرومغنطيسية للمخ، ويقوم بتسجيلها، على هيئة خطوط زمنحنيات، تحدد نشاط المخ، فى كل لحظة...

فى البداية، بدأت عملية تسجيل لإشارات المخ، لأكثر من مائة شخص، من مختلف الأعمار والظروف، وبعدها، تم تسجيل الإشارات المخية للرهبان، أثناء نشاطاتهم اليومية المعتادة...

ثم دخل الرهبان حالة التركيز، وراحوا فيما يشبه الغيبوبة....

وانطلقت طاقاتهم العقلية...

وانطلقت...

وانطلقت....

وعلى رسّام المخ الكهربى، قفزت الإشارات، إلى حد مدهش....

حد لم تبلغه، حتى فى أشد لحظات الانفعال....

وبمنتهى الذهول، راجع العلماء إشارات المخ مرة، وثانية، وثالثة....

ولم يكن هناك مبرر من الاعتراف، بأنهم أمام ظاهرة مدهشة...

فأولئك الرهبان النحيلون، الذين يبدون وكأن أجسادهم قد استنزفت من الجوع، نقلوا كل طاقاتهم إلى عقولهم، لينطلقوا بها خارج الحدود....

كل الحدود...

ولأن العلماء يحتاجون إلى قواعد وأسس؛ يبنون عليها علومهم ونظرياتهم، فقد بدأوا فى دراسة حياة رهبان التبت وتدريباتهم الروحية؛ لمعرفة تأثيرها المدهش على العقل، وقدرته على إخضاع اللاإراديات إلى إرادته...

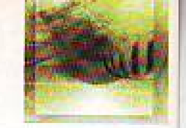
وفى هذا السبيل، سجلوا مجموعة من التجارب المذهلة...

فأح الرهبان تم دفنه، فى تابوت تحت الأرض، دون تزويده بأى طعام أو شراب، ودون مصدر للهواء، مع توصيل جسده بجهاز خاص (Polygram) ؛ لقياس معدل أيضه، ونبضات قلبه، وتنفسه....

ولقد ظل ذلك الراهب مدفوناً لثلاثة أيام، والأجهزة كلها تسجل حالة لم ير العلماء مثلها، فى حياته كلها...

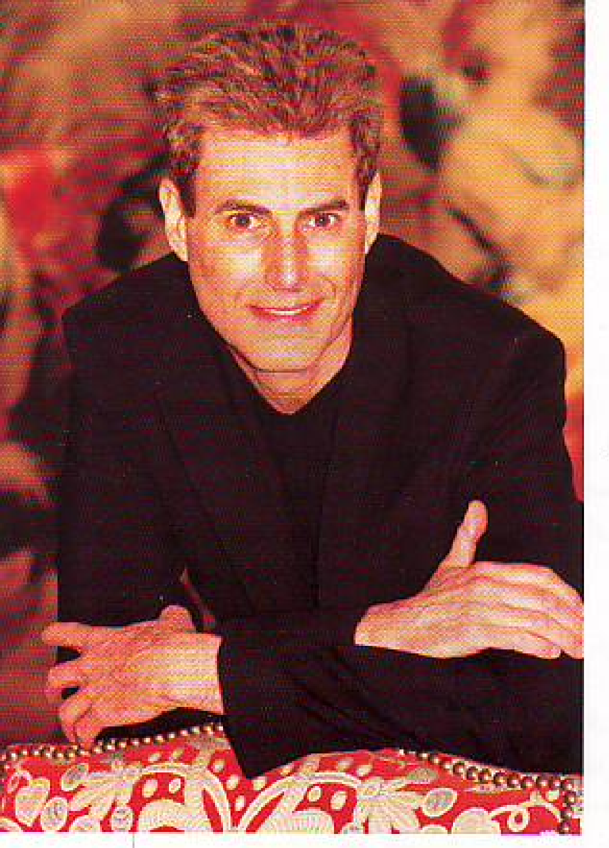
فالتمثيل الغذائى (الأيض)، انخفض إلى حد مذهل، بحيث صار الجسد يستهلك سعراً واحداً فى الساعة تقريباً، ونبضات القلب أصبحت نبضة واحدة فى الدقيقة....

أما معدّل التنفس، فقد بدا مذهلاً، كما لو أن ذل الراهب يستهلك ذرات الهواء



ذرة بذرة...
وهكذا، خرج الراهب من تحت الأرض، بعد ثلاثة أيام كاملة، سليماً معافى، على الرغم من أن الهواء المتاح لا يكفى أى إنسان عادي، لأكثر من ساعتين!!...
قدرة مذهلة، تؤكد أن طاقات العقل البشرى هائلة، أكثر مما يمكن حتى أن نتخيل...
كل ما علينا هو أن نستوعب قانون العقل، الذى يتيح له الانطلاق على هذا النحو المدهش....
وهذا ماحاول العلماء التوصل إليه، عبر دراسات طويلة، لعقول ونمط حياة رهبان التبت، وبذلوا جهداً رهيباً لربط كل هذا بالفص الأمامى للمخ، الذى مازال يربكهم ويحيرهم كثيراً...
كان منتهى أملهم أن يضربوا عصفورين بحجر واحد، وأن يتوصّلوا إلى تفسير واحد للظاهرتين معاً...
وبعد عامين تقريباً، بدا لهم أنهم قد توصّلوا إلى نتائج مدهشة، تقول إن الجوع لفترات طويلة، يقلّل الجهد الواقع على الجسد، ويطلق العنان للمخ...
وبسرعة، خرجت عشرات الكتب، التى تؤيد هذه النظرية، ووجدت لها ملايين المؤيدين، فى كافة أنحاء العالم، خاصة وأنها تتفق مع مبدأ (جوعوا تصحوا)، و (المعدة بيت الداء، والحمية أصل الدواء)، وكلاهما يتردّد على ألسنة الكافة، منذ قديم الزمان...
وعلى الرغم من غياب التجارب العلمية التأكيدية، بات معظم العلماء على ثقة، من أن النظرية صحيحة تماماً..
أو فلنقل أنهم تمنوا هذا....
ولكن المشكلة أن العقل البشرى يصر دوماً على أن يثبت للعلماء أنهم ماأوتوا من العلم إلا قليلاً، وأنهم مهما تصوررا سيواجهون حتماً تحدياً جديداً، فى كل خطوة....
فالكشوف العلمية، كما وصفها أحد العلماء، هى إهانة مستمرة للذكاء البشرى، فكلما تصوّر الإنسان أنه قد بلغ ذروة المعرفة، صدمته نتيجة علمية جديدة، تفسّر نقطة حيرته، وتثبت خطأ نقاط أخرى، كان يتصوّر أنه قد حل ألغازها، زكشف مغاليقها....
وفى هذه المرة، جاءت الطعنة من خارج المحيط العلمى تماماً...
ومن شاب نحيل أيضاً...
شاب هدم النظرية من أساسها...
تماماً.

× × ×



يورى جيللر .... شاب يهودى ضئيل نحيل، لا يمكن أن يثير انتباهك لحظة، لو أنك التقيته فى مكان عام، وربما يثير منهى الملل فى نفسك، لو وقفت تتحدث إليه لثانية واحدة....

ولكن يورى هذا أثار انتباه علماء العالم كلهم ذات يوم، من أيام عام 1974م، عندما قدمه عالم جليل، من علوم فوق الطبيعيات، وهو البروفيسير (آندريا بوهاريتش)، فى كتاب باسم (ظاهرة جيللر)...

وعبر صفحات الكتاب، فاجأنا (بوهاريتش) بتجربة فريدة، قلبت دراسات المخ كلها رأساً على عقب...

ف (يورى) هذا يمتلك مقدرة عقلية مدهشة، تختلف عن كل ما خبره العلماء من قبل؛ إذ أنه يستطيع ثنى أية معادن، مهما بلغت صلابتها، ليس بعضلاته، وإنما بعقله...

عقله وحده...

وكل مايفعله يورى، هو أنه يمسك أية أداة معدنية، ويتحسّسها بأصابعه، بمنتهى الرفق والهدوء، فتلين بين أصابعه، كما لو أنها مصنوعة من الشمع....

(يوري جيلر) ذو القدرة المذهلة على ثني المعادن بقواه العقلية .. تلك القوى التي لازالت مثار شكوك عديدة .

وظاهرة كهذه، لا يمكن أن يرضى بها العلماء أو يقتنعون بسهولة؛ لأنها أمر يفوق قدرات البشر، ويتجاوز حتى حدود العلم والمنطق....

ثم أنه كان هناك الرافضون للأمر، لمجرد أن يورى يهودى، والذين أتهموا مؤيديه بالكفر، والخروج عن العقيدة المسيحية، ومن ثاروا، وهلّلوا، وصرخوا...

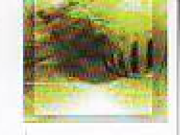
ولكن العلماء لا تعنيهم كل هذه الانفعالات، ولا يمكن أن يتوقفوا عندها....

كل مايعنيهم هو الشك العلمى...

والاختبار العلمى...

ولقد وافق يورى على الخضوع لاختباراتهم، فى أى مكان، وأى زمان، وأية ظروف...

ولأنهم متشككون بطبعهم، قرّر العلماء بناء حجرة خاصة، من الرصاص، المانع للموجات، وفحصوا كل معدن وضعوه أمام يورى، واستخدموا فى هذا أحدث أجهزة اختبار مقاومة المواد، ودرسوا القوة اللازمة لثنى كل أداة معدنية منها، وسجلوا كل هذا بمنتهى الدقة، ثم أخضعوا يورى لمجموعة ضخمة من الفحوص والتحاليل؛ للتيقن من أنه لا يتناول أية عقاقير تنشطة أو مقوية، وحللوا دمه، وبوله، ولعابه، وحتى ثيابه....



ثم وضعوه داخل الحجرة الرصاصية، مع أدوات معدنية مختلفة....
وأمسك يورى الأدوات، وتحسسها برفق، ونظر إليها بمنتخى التركيز....
وانثنت الأدوات...
كل الأدوات....
وعلى الرغم منذهول العلماء، قرّروا تكرار التجربة، مع مجموعة فحوصات كثيرة جديدة....
ومرة أخرى، جلس يورى داخل الحجرة المصنوعة من الرصاص، مع مجموعة أدوات، من معادن مختلفة، وجسده موصول هذه المرة بأجهزة ترصد دقات قلبه، وسرعة تنفسه، ونشاط مخه، وإفرازات عرقه...
وكرّر مافعله...
ومرة أخرى، انثنت المعادن....
وفى هذه المرة، سجل العلماء كل التغيرات، التى مرت ب(يورى)، قبل وأثناء، وبعد الثنى...
وجاءت نتائجه كلها مقبولة، بالنسبة لشخص بذل جهداً محدوداً...
فيما عدا نتائج رسّام المخ الكهربى...
لقد بدا من الواضح أن نشاط مخ يورى جيللر قد حقّق قفزة واضحة، عندما بدأ يثنى تلك المعادن، على الرغم من أن جسده لم يبذل جهداً مساوياً، أو حتى قريباً...
يورى يستخدم عقله إذن....
وهذا يحتاج إلى اختبارات أكثر دقة، وأكثر تحديداً؛ لرصد ذلك الجزء من المخ، الذى يصدر كل هذه الطاقة فوق العقلية المدهشة....
ودون الخوض فى تفاصيل سيدركها القارئ مسبقاً، يكفى أن نقول أنهم قد وجدوا أن النقطة الرئيسية، التى تنطلق منها تلك الطاقة المدهشة، على الرغم من اشتراك كافة أجزاء المخ فى الأمر، هى الفص الأمامى....
وكان هذا يعنى وضع أول نقطة، فوق حرف حاروا فى نطقه، أو تحديد هويته طويلاً...
ويعنى أيضاً بداية نظرية جديدة، تحدّد وظيفة الفص الأمامى للمخ....
ومع بداية الثمانينات، راحت مجموعة من الكتب تغمر الأسواق، وكلها تتحدث عن الفص الأمامى للمخ، وكونه منطقة انطلاق الطاقات فوق العقلية...
ولكن إقرار حقيقة كهذه ليس بالأمر السهل، خاصة وأن القوى فوق العقلية نفسها مازالت أمراً ينفيه، ويعرضه، ويهاجمه بمنتهى العنف، عدد كبير من العلماء التجريبيين، الذين يؤكدون أن أمر لا يمكن الجزم به، أو تحديد قواعد ثابتة له؛ لقلة الحالات فى مضماره....
أما العلماء، الذين يؤيدون هذاه القوى، فيرون أن البشر جميعهم يمتلكونها، إلا أن حياة المدنية، التى زوّدت الإنسان بعشرات الوسائل الصناعية الحديثة،

قد أدت إلى ضمور تلك الطاقات الطبيعية فى عقولنا، وفقاً لمبدأ : « القدرة المستخدمة تنمو، والقدرة المهملة تضمر...

والصراع بين الفريقين مازال مستمراً، حتى هذه اللحظة، على الرغم من أن الرافضين لوجود تلك القوى، عاجزون عن تفسير عدة ظواهر فوق عقلية أخرى؛ إذ أن جيللر ليس الحالة الوحيدة...

بل هناك حالات... وحالات... وحالات... و...

ولهذا حديث طويل.

× × ×

فى إحدى ليالى نوفمبر ، فى عام 1966 م ، جلس السوفيتى (نيكولاييف) وحيداً، داخل حجرة من الرصاص ، غير المنفذ للإشعاعات، أو الموجات اللاسلكية، فى العاصمة السوفيتية (موسكو)، وقد اتصلت بعقله أجهزة قياس خاصة جداً، ترصد إشارات مخه، ومعدلات نبضه وتنفسه، وأمامه ورقة صغيرة ، خط عليها أحد العلماء - من وحى اللحظة - كلمات غير مترابطة ، ورسماً لا معنى له ، راح (نيكولاييف) يحدق فيهما طويلاً ، دون أن تسجل أجهزة العلماء أية تغيرات، فى معدلاته الحيوية...

وفى الوقت ذاته، كان زميله (كاتشسكى) يجلس فى ظروف مماثلة فى (لينتجراد) ، على بُعد ألف كيلو متر من (موسكو) ، وقد بدا غارقاً فى حالة من التركيز الشديد، ثم لم يلبث أن التقط القلم أمامه، وراح يخط الكلمات نفسها ، والرسم ذاته على ورقة بيضاء ، ناولها لأحد العلماء المجاورين له ، وهو يقول :

- لست أدرى ماالذى يقصده من هذا العبث، ولكن هذا ما أرسله .

وأُصيب العلماء بالذهول ، فى (موسكو) و (لينتجراد) ، فى نفس اللحظة ، فعبر ألف كيلو متر، استقبل (كاتشسكى) رسالة عقلية من (نيكولاييف)، بمنتهى الدقة ، ونقلها بمنتهى الوضوح، كما لو أن عقله جهاز استقبال لاسلكى فائق التطور ..

وفى البلدتين السوفيتيتين، سجل العلماء نشاطاً زائداً لعقل (نيكولاييف)، ونشاط عادى لعقل (كاتشسكى)...

المرسل إذن أطلق طاقة عقله، والمستقبل استرخى لالتقاطها فحسب...

وعلى مسافة ألف كيلومتر!!..

وغرق العلماء فى حالة فائقة من الدهشة...

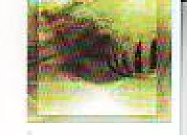
والحيرة..

والغموض...

وانطلق ذلك السؤال، الذى مازال يطرح نفسه، حتى يومنا هذا...

كيف حدث هذا ؟ ..

بل كيف يمكن أن يحدث ؟ ..



لقد أعلن تلك القصة سالفة الذكر، عالم جليل، يتمتع بسمعة علمية لا تشوبها شائبة، وهو العالم السوفيتى (فلاديمير فيدلمان) ، واحد من أشهر علماء ما فوق الطبعيات ، وطرحها فى مؤتمر لبحث الظواهر الخارقة للمألوف ، عام 1968 م دون أن يحاول وضع تفسر علمى للظاهرة ، وإنما اكتفى بأن أطلق عليها اسم التخاطر العقلى عن بعد...

أو (التليباثى) ..

والعجيب أن المصطلح لم يكن جديداً بالنسبة لزمرة علماء الظواهر فوق الطبيعية، الذى حضروا ذلك المؤتمر ، بل كان مصطلحاً قديماً ، لظاهرة مازالت تثير جدلاً علمياً ، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

فمع مطلع عام 1862 م ، وبينما انشغل نصف سكان العالم فى الاحتفال بأعياد رأس السنة الميلادية ، أغلق عالم نصف معروف ، يدعى (ف . مايرز) (F. Mayrs) معمله على نفسه ، وانهمك فى سلسلة من التجارب والدراسات المعقدة ، استغرقت تسعة أشهر من عمره ، قبل أن يخرج إلى العالم بذلك المصطلح الجديد (التليباثى) (Telepathy) ...

ولم يتصور (مايرز) أو يتخيّل، ولو لحظة واحدة، أن مصطلحه هذا سيثير أكبر وأطول جدل علمى فى التاريخ كله...

تاريخ علم الطبيعيات...

وفوق الطبيعيات..

وأنه وبعد مرور أكثر من قرن كامل على إطلاقه هذا المصطلح ، لم ينجح شخص واحد ، أو جهة علمية - صغرت أو عظمت - فى إثبات أو نفى هذه الظاهرة .. وكلمة (تليباثى) ، كما تقول القواميس المتخصصة ، تعنى (التخاطر عن بعد) ، أو انتقال الأفكار ، من شخص إلى آخر - أو آخرين - دون استخدام وسيلة مادية ..

أو هى ببساطة ظاهرة (قراءة الأفكار) ، كما يطلق عليها العامة ..

وعلى الرغم من كل ما أثارته ظاهرة (التخاطر عن بعد) ، من جدل ، وما أطلقته من خيال العلماء والأدباء ، إلا أن التجارب الجادة حولها لم تبدأ إلا فى عام 1921 م ، عندما قام ثلاثة من علماء جامعة (جروننجن) بسلسلة طويلة من التجارب والمشاهدات ، انتهت بإصدار تقرير كبير ، اقتنع به عدد من العلماء ... ورفضته الغالبية العظمى منهم ..

وهذا أمر معتاد، فى دنيا العلم...

ومن العجيب أن تلك الظاهرة تذهب بالعلماء دائماً إلى طرفى نقيض ، فإما أن يؤيدها البعض فى حماس ، أو يرفضها البعض الآخر فى عناد وإصرار، يتجاوز حتى المنطق العلمى أحياناً...

ولعل من أعظم مؤيديها العالم البريطانى (جوزيف سينل) ، الذى قضى القسم الأعظم من حياته ، فى محاولة إثبات وجود هذه الظاهرة المدهشة، التى كانت

ومازالت تخلب الألباب...
وعن لسانه، يصف (سينل) تلك الظاهرة، بقوله: «إنها تشبه عملية الاتصالات اللاسلكية المعروفة ، فالعقل البشرى يموج بالإشارات الكهربية ، التى تنتقل دوماً بين المخ والأعصاب ، وتربطه بأعضاء الجسم ، وعندما تبلغ هذه الإشارات حداً مناسباً ، يمكنها أن تنتقل دون الحاجة إلى الأسلاك (الأعصاب) ، فتسافر من عقل إلى عقل» ..

أما أشهر العلماء فى هذا المجال ، وهو (ج.ب.راين) فيقول : «الأمر عبارة عن نوع من الشفافية الروحانية ، التى تتيح للروح الالتقاء بالأرواح الأخرى ، واستنطاقها عما يدور فى أجساد وعقول أصحابها» ...

ولكن الرأى الأخير يبدو فلسفياً ، أكثر مما يبدو علمياً أو منهجياً ، ولهذا السبب رفضه كل العلماء تقريباً ، على الرغم من أن (راين) هو صاحب أول تجارب مدروسة لفحص الظاهرة ، فلقد ابتكر عام 1934 فى جامعة (ديوك) أسلوباً جديداً ، يعرف باسم (اختبار أوراق اللعب) ، وفيه يحاول الشخص ، المفترض اكتسابه للقدرة على التخاطر العقلى ، استنتاج ترتيب خمس أوراق لعب مختلفة ، يتم ترتيبها عشوائياً ..

وقد يبدو هذا الاختبار هيناً ، ولكنه ليس كذلك فى الواقع ، فاحتمال استنتاج موضع ورقة واحدة ، أو تخمينه ، هو واحد إلى خمسة () أما احتمال استنتاج موضع الأوراق الخمسة هو واحد إلى ثلاثة آلاف ومائة وخمس وعشرين () ، وهذا يجعل التخمين مستحيلاً بالطبع ..

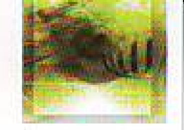
ولعل من أكثر ما يؤيد وجود هذه الظاهرة ، رجل يحفظ كل دارسى الظواهر فوق النفسية اسمه عن ظهر قلب...
رجل هولندى، يدعى (بيتر هيركوس)...
ولهذا قصة أخرى..

× × ×

فى عام 1911 م ، ولد الهولندى (بيتر هيركوس)، وظل يحيا كشاب عادى ، حتى انقلبت حياته رأسه على عقب فجأة فى عام 1941 م .

فى ذلك العام كان (بيتر) يعاون والده فى طلاء بناء من أربعة طوابق ، عندما زلت قدمه ، وسقط من الطابق الرابع ، وتم نقله إلى المستشفى فى سرعة ، فى العاشر من يوليو 1941 م ، حيث تم إسعافه ، وقدر له أن ينجو ، وأن يغادر المستشفى فى الخامس من أغسطس ، من العام نفسه ..

ولكن شتان ما بين الدخول والخروج ..
لقد كشف (بيتر) ، وهو يرقد على فراشه فى المستشفى أنه قد اكتسب خاصية عجيبة وهى أنه ما إن يمس شيئاً .. أى شئ .. حتى تندفع إلى رأسه كل المشاهد



والأصوات والأحداث ، التى عايشها هذا الشئ .. جماداً كان أو حيواناً أو نباتاً ..

وكاد المسكين يُصاب بالجنوب فى البداية ..

بل لقد تصور أنه قد أُصيب به بالفعل ..

ثم اتضحت له حقيقة موهبته الجديدة شيئاً فشيئاً ..

والعجيب فى ظاهرة (هيركوس) أنه ، ولأول مرة فى التاريخ اعترفت إدارة (اسكوتلانديارد) بموهبة شخص يحوز صفة فوق طبيعية ، بل استدعت (بيتر هيركوس) إلى إنجلترا) عام 1951 م ، حيث عاون مفتشيها على حل غموض اختفاء الماسة الشهيرة (سكون) ، وبعدها استعانت به عدة هيئات بوليسية أوربية ، وحقق فى كل مرة انتصاراً مبهراً ..

وعلى الرغم من هذا لم يحظ (بيتر) باعتراف أو تأييد الأوساط العلمية ، ولم يحاول عالم واحد ، ممن أنكروا موهبته ، اختبار وجود هذه الموهبة ، بأية وسيلة ، حتى أن الصحفية (نورما - لى - براونتج) التى كانت من أشد المؤيدين لـ (بيتر) ، قد علقت على هذا بقولها : «لقد خسروا فرصة مثالية لفحص ظاهرة غامضة» ...

وهى على حق فى قولها هذا؛ فربما أدى فحص (بيتر هيركوس) إلى إماطة اللثام عن تلك الظاهرة ..

ولكن يبدو أن البعض يخشى إماطة هذا اللثام . وهذا أيضاً صحيح ..

إن الرافضين لوجود هذه الظاهرة يقولون : إنه لو صح وجودها ، فسيعنى هذا أن الأسوار التى تحيط بالعقل قد تهاوت ، وأنه لم يعد هناك مكان آمن لحفظ أية أسرار ، مهما بلغت خطورتها ، فالقاعدة الأولى ، فى عالم المخابرات مثلاً ، تحظر الاحتفاظ بمعلومات مكتوبة ، وتصر على ضرورة حفظها عن ظهر قلب ، بافتراض أن العقل البشرى هو الحصن الحصين ، الذى يستحيل اختراقه ، أو نسيانه داخل درج مغلق ، أو فوق مائدة القمار ، وعلى الرغم من ذلك ، فمن يمتلك القدرة على قراءة الأفكار سيعبر أسوار العقل فى يسر وسهولة ودون أن يقاتل العمالقة مثل (جيمس بوند) ، أو يحتال ويتخابث مثل (أرسين لوبين) ..

بل قد يتمادى أصحاب هذه المقدرة الفذة ، فيفتتحون مكاتب خاصة ، على غرار مكاتب البوليس الخاص ، يعلقون على أبوابها لافتة تقول : «هنا أسرار للبيع» ..

قد تبدو الصورة خيالية على الورق ، ولكنها ليست كذلك فى نظر العديد من العلماء ، وأجهزة مخابرات الشرق والغرب ، بل إنهم يولونها اهتماماً بالغاً ، وينكبون على دراستها فى سرية ودقة، حتى أننا نجد فى المخابرات الأمريكية والسوفيتية، مايعرف باسم (الاستخبارات فوق النفسية) ..

ولعل القارئ يتصور الآن أننا لو استبعدنا الفريق الرافض من العلماء ، فسيتبقى أمامنا المؤيدون للظاهرة فحسب .

ولكن هذا غير صحيح ..

الواقع أنه ما من عالم - فى الكرة الأرضية كلها - يمكنه أن يجزم أو ينفى وجود هذه الظاهرة ، بصفة قاطعة ، فبعد استبعاد الرافضين لوجودها سينقسم الباقون إلى قسم أعظم ، يقف على الحياد ، غير مؤيد أو معارض ، أو هو ينتظر ما سيتوصل إليه الآخرون ، وقسم صغير ، يميل إلى الإيمان بوجود الظاهرة ، ولكنه يلقى سؤالاً أكثر أهمية ، وهو يقلب بين يديه نموذجاً صغيراً للمخ البشرى .. من أين تنبع هذه الظاهرة ؟ ..

فعلى الرغم من التقدم الطبى والتكنولوجى والتقنى ، الذى توصل إليه العالم ، فى هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، إلا أن أجزاء كبيرة من المخ البشرى ما زالت غامضة تماماً ، وما زال ذلك العضو الرخوى البيضاوى ، الذى يبلغ وزنه التقريبى فى الرجل حوالى رطلين وعشرة أوقيات (أى ما يساوى من وزن الجسم تقريباً) يثير حيرة أعلم العلماء ..

إذ أن المخ يتكون (تشريحياً) من نصفين ، أيمن وأيسر ، يشتركان معاً لصنع الفص الأمامى والفص الخلفى ، ثم يحوز كل منهما فصاً جدارياً ، وآخر صدغياً ، فى حين يلتقيان من الخلف عند المخيخ ، والجسم الصنوبرى الصغير ..

ولقد درس العلماء كل خلية من خلايا هذا المخ ، وعرفوا وظيفة كل جزء فيه ، فيما عدا منطقتين ، توقّف أمامهما الجميع فى حيرة ، وهما الجسم الصنوبرى والفص الأمامى ، فتوصلوا إلى جزء ضئيل من وظائف الأول ، وعجزوا تماماً عن فهم وظيفة الثانى (مع الإيمان التام بأن الله - سبحانه وتعالى - لم يخلق شيئاً عبثاً)..

ومع كشف تلك القدرات فوق العقلية، عاد سؤال خطير يطرح نفسه..

هل الفص الأمامى هو محطة الإرسال والاستقبال التخاطرى ؟ ..

ولم يأت الجواب بعد ..

ولن يأتى ؛ لأن إثبات ظاهرة فوق نفسية ، مثل التخاطر العقلى ، كان وسيظل عسيراً ؛ لأن العلماء سيعجزون دوماً عن إمساكها بأيديهم ، وتقليبها ، ووضعها تحت المجهر وتصويرها ، وتكبيرها ، و ... و ... وغلى أن يأتى ذلك اليوم (المستحيل) ، سنظل نردد قول أحد كبار العلماء ، المؤمنين بوجود الظاهرة :

«ينبغى أن يتوقف العلم عن محاولاته الدائبة ، لإثبات وجود هذه الظواهر ، ويحصر جهوده فى بحث كيفية الإفادة منها ، حتى لا نكون كمن يقضى عمره كله فى محاولة إثبات كونه حياً ، ثم تنقضى حياته ، دون أن يصنع فيها شيئاً واحداً ..»

وإلى أن تحظى ظاهرة (التليباثى) بالاعتراف ، لن يتوقف العلماء عندها طويلاً؛ فمازالت أمامهم ألغاز بلا حدود، تكمن داخل فص المخ، و...

× × ×



المخابرات السوفيتية، كانت أول من أقر بوجود القوى فوق العقلية، سواء أكانت تنبع من الفص الأمامى للمخ، أو من غيره....

كان كل ما يكفيها، هو أن أمخاخ أولئك، الذين يتمتعون بقوى فوق عقلية، تتضاعف إشاراتها، فى حالات التجلى....

ثم أنه لديهم مايعرف باسم، (مشاهدات الأمومة)....

فقبل حتى الخوض فى احتمالية وجود قوى فوق عقلية، لاحظ العلماء وجود رابطة عجيبة، بين الأم وأطفالها؛ فقد تكون غارقة فى نوم عميق، ثم تهب منه فجأة، دون أى مبرّر، وتهرع إلى حجرة طفلها المجاورة، لتجد أنه يكاد يختنق بوسادة مهده، دون أن يصدر عنه أدنى صوت!!..

وفى واحدة من الحالات المسجلة، قطعت أم أمريكية مائة ميل، بعد منتصف الليل، لتتفقد ابنتها، التى تقضى فترتها الجامعية فى ولاية أخرى، ووصلت لتجدها محمومة، مريضة، وبعد أن تعافت، أبدت دهشتها البالغة مما فعلته أمها، مؤكدة أنها، خلال مرضها، تمنت لو أن الأم إلى جوارها!!...

وعبر مائة ميل، أى مايزيد عن مائة وستين كيلومتر، تلقت الأم الرسالة... وأتت...

كانت تلك القصة وغيرها كافية، لتبدأ المخابرات السوفيتية أبحاثاً طويلة مكثفة، حول القدرات فوق العقلية، وإمكانية الاستفادة منها فى أعمال التخابر، مثل قراءة أفكار الخصم، وسبر أغواره، وتحديد قراراته ونواياه مسبقاً...

ومن أجل هذا الغرض، أنشأت المخابرات السوفيتية، فى أواخر الخمسينات فرع خاص، عرف باسم (الاستخبارات فوق النفسية)....

وعلى الرغم من أن السوفيت قد أحاطوا فرع مخابراتهم الجديد هذا بستار حديدى سميك، وبذلوا جهداً هائلاً؛ لإخفاء نتائج أبحاثهم فيه، فقد كشف الأمريكيون أمره، فى منتصف الستينات...

فى البداية، سخروا من الفكرة كلها، واعتبروها مجرد تخاريف سوفيتية سخيفة، حتى أجروا تجربة واحدة، قلبت موازينهم كلها رأساً على عقب...

لقد فصلوا أنثى أرنب عن صغارها، ووضعوهم فى غواصة، على بعد ستين كيلومتر من الشاطئ، وعمق كيلومتر واحد، تحت سطح الماء...

ثم بأوا فى ذبحهم، واحداً بعد الآخر...

وسجل علماؤهم نتائج مذهلة...

ففى كل مرة، يتم فيها ذبح أحد الصغار، كانت الأرنبة تصاب بحالة من التوتر العصبى الشديد، كما لو لأنها تشعر بما يعانيه صغارها، عبر كل تلك المسافة..

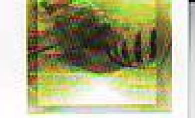
ومع ذهولهم، كرّر العلماء التجربة مرة ثانية، وثالثة.... ورابعة...

وفى كل مرة كانت النتائج واحدة...

هناك اتصال عقلى فائق مؤكد، بين الأم وأبنائها...

وبين بعض البشر وبعضهم أيضاً...
وهكذا، أنشأ الأمريكيون بدورهم فرع المخابرات فوق النفسية، فى مخابراتهم...
واتخذت حرب الجاسوسية مساراً جديداً...
ومدهشاً...
والواقع أن دخول المخابرات إلى المضمار، أدى إلى تسارع تجارب القوى فوق النفسية على نحو ملحوظ، باعتبارها قد أصبحت سلاحاً حربياً جديداً، يسعى كل طرف إلى التفوق فيه، والفوز بسباقه...
وهنا فقط، بدأت تظهر نتائج واضحة ومسجّلة للأمر...
فلأول مرة، يربط العلماء بالفعل، بين نشاط الفص الأمامى للمخ، والقدرات فوق العقلية، بوساطة الدقة البالغة، التى تفتقر إليها الحسابات البشرية، وتتفوق فيها أجهزة الكمبيوتر...
ولأول مرة، يلاحظون أن أصحاب القدرات فوق العقلية، يتميزون بزيادة طفيفة، فى حجم فصوصهم الأمامية...
ولأول مرة أيضاً، توضع قاعدة للاتصالات العقلية الفائقة، التى تعرف باسم (التليباثى)... فكل حالة، من الاتصال العقلى الفائق، تحتاج إلى طرفين مؤهلين، مرسل .. ومستقبل... ولكى ينجح الاتصال الفائق، لابد من وضع المرسل والمستقبل فى الحالة المطلوبة، لتحقيق شرط الاتصال، إذ لابد وأن يكون المرسل فى حالة توتر، أو لهفة لإتمام الاتصال، والمستقبل فى حالة استرخاء تام...
هذا لأن الأمر يعتمد عضوياً، على هرمونين أساسيين، فى الجسم البشرى ... الأدرينالين، وهو هرمون يتم انتاجه فى نخاع الغدة الكظرية، ويفرز فى حالات التوتر والانفعال، ليزيد من ضغط الدم، وسرعة النبض، وقوة انقباض العضلات...
والكولين استيراز، وهو هرمون ذو تأثير معاكس تماماً لتأثير الأدرينالين، يعمل على خفض الضغط، وسرعة النبض، وإرخاء العضلات...
المرسل لابد وأن يكون فى حالة استنفار (أدرينيرجيا)...
والمستقبل فى حالة استرخاء (كولينيرجيا)..
هنا فقط، يحدث الاتصال العقلى الفائق، وهو مايفسر حالات التصال الأمومى، عندما يعانى الأطفال من خطر ما، فيندفع الأدرينالين فى دمائهم، وتكون الأم نائمة أو مسترخية، وهو ما ثبت، فى كل حالات الاتصال الأمومى الفائق...
وبينما يسجل العلماء تجاربهم هذه، ويرصدون مستويات الأدرينالين والكولين فى الدم، قفز أحدهم إلى كشف جديد مدهش ...
كشف وثب بالتجارب العقلية إلى آفاق جديدة...
آفاق بلا حدود.

× × ×



المخ يصدر موجات جاما، عندما يعمل...

العبارة السابقة، على بساطتها، كانت فتحاً كبيراً، في عالم الدراسات فوق العقلية، إذ أنها تشير، ولأوّل مرة، إلى أن المخ البشري يصدر طاقة ما، يمكن قياسها وحسابها...

ومع أجهزة القياس المتوفرة، في زمن الكشف، صار من الممكن أن يرصد العلماء كل تغير، في انبعاث أشعة جاما من المخ، مع نشاطاته المختلفة....

ومع مرور الزمن، تطورت أجهزة القياس، وتطوّرت معها وسائل الفحص والتقييم....

فالمخ يبعث موجات جاما، في حالة الغضب، تختلف عما يبعثه في حالة الفرح، أو الخوف، أوحتى التفكير العميق، وهذا يعني أن قياس موجات جاما، المنبعثة من المخ، يمكنه أن يحدد مشاعر صاحب هذا المخ، حتى ولو لم يفصح عنها....

ولفترة طويلة، تم التعامل مع الأمر من هذا المنظور، حتى كان أحد المؤتمرات، في عام 1988م، عندما قال أحد الخطباء، دون أن يعني سوى التعبير البليغ: إن هذا أشبه بقراءة الأفكار....

والتقط أحد العلماء العبارة، وعاد إلى معمله، وأغلقه خلفه، وراح يدرس العبارة، ويفكر فيها طويلاً...

طويلاً جداً...

فلو أن موجات جاما تتغير بالفعل، مع تغير المشاعر والأحاسيس، فلماذا لا يتم رصدها؛ لقراءة أفكار الآخرين بالفعل....

ومن هنا، ومع أجهزة القياس المحدودة، وضع ذلك العالم فرضية جديدة، تقول: إن عملية قراءة الأفكار، أو الاتصال العقلي الفائق (التليباثي)، ما هي إلا موهبة عند البعض، لرصد موجات جاما، التي تطلقها عقول الآخرين.....

ولكن فرضيته هذه لم تلق رواجاً كبيراً؛ نظراً لأن حالات الاتصال العقلي الفائق، كانت تحدث، في كثير من الأحيان، بين إناس تفصلهم مئات الكيلومترات والأميال...

إلا أنها كانت بداية لعصر جديد، من عصور الدراسات العقلية وفوق العقلية...

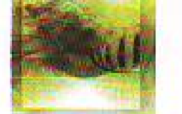
فلعدة سنوات تالية، راح فريق من العلماء يدرس موجات جاما، التي يبثها المخ في حالاته المختلفة، وطرق الاستفادة منها...

في ذلك الحين، كان التطور العسكري يبلغ مراحل كبيرة، وسرعة الطائرات المقاتلة تتزايد...

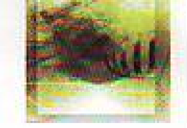
وتتزايد...

وتتزايد...

ومع تضاعف السرعة، التي بلغت سرعة الصوت، (340 سم/ثانية)، أصبحت أكبر مشكلة هي رفع سرعة استجابة الطيارين، بحيث يمكنهم رصد الهدف



والتصويب عليه وإصابته، وهم ينطلقون بهذه السرعة الكبيرة..
وكانت المشكلة تكمن فيما يعرف باسم (المعادلة العصبية)....
وتلك المعادلة العصبية، هى الفترة التى يحتاجها المخ البشرى الطبيعى، لإدراك ما يواجهه، واتخاذ رد الفعل المناسب للتعامل معه، وهى تختلف من شخص إلى آخر، ويمكن تنميتها بالتدريب والمران المستمر...
وإلى حد ما، ومن خلال تريبات شاقة وعنيفة، تمكن الطيارون من ضبط سرعة استجاباتهم؛ لتتوافق مع سرعة طائراتهم....
ولكن الطائرات تطورت أكثر، وتضاعفت سرعتها، فأصبحت ضعف سرعة الصوت، ثم لم تلبث أن فاقت هذه السرعة، إلى حد لم يعد من الممكن أو المنطقى رفع سرعات الاستجابة إليه، مهما بذل الطيارون من جهد...
أو من عمر...
وعندئذ، كان لابد من التفكير فى وسيلة جديدة، تتيح الرصد والتصويب والإصابة، فى هذه السرعة الرهيبة...
وهنا برزت فكرة أشعة جاما، المنبعثة من المخ...
وطوال مايقرب من عام كامل، وباعتمادات مالية ضخمة، وإمكانيات متاحة غير محدودة، تمكن العلماء من تحديد أطوال موجات جاما، التى تنبعث من المخ البشرى، فى حالات الرصد والتسديد والإصابة، وبدقة متناهية، جعلتهم قادرين على صنع أول جهاز توجيه، يختصر المعادلة العصبية إلى أقصى حد ممكن...
خوذة جاما....
خوذة توضع على الرأس، وتسجل انطباعات وردود أفعال الطيار، عندما يرصد هدفاً ما، لتنقل الفكرة، من مخه إلى أجهزة إطلاق النار مباشرة...
بمعنى أكثر وضوحاً، يرى الطيار الهدف، ويقرّر إصابته، ويصدر عقله موجات جاما، التى تتفق مع هذه الرغبة، فتنقلها الخوذة إلأى أجهزة الإطلاق مباشرة، دون المرور بالمسار الطبيعى، الذى كان ينقلها إلى اليد، فتستجيب بالضغط على زر الإطلاق...
ونجحت الفكرة نجاحاً ساحقاً....
سرع الاستجابة العقلية، عبر خوذة ألفا، كانت تفوق سرعة الاستجابة الجسدية بخمس مرات على الأقل..
وهكذا تحوّل العقل، ولأوّل مرة عملياً، إلى سلاح حربى خطير ...
خطير للغاية..
ودفع هذا العلماء إلى إجراء تجارب أكثر وأكثر، على خوذة جاما، باعتبار أن وسائل استغلالها مازالت كثيرة .. كثيرة للغاية...
وعلى الرغم من اعتبارها سلاحاً حربياً سرياً، فوجئ قادة القوات الجوية الأمريكية ذات يوم بإعلان كبير عن بيع خوذة جاما، فى الصفحة الأولى، من أكبر صحفهم، وأوسعها انتشاراً، و...



وكانت كارثة.

× × ×

ذات صباح، فى أواخر الثمانينات، تصدَّر إعلان كبير الصفحة الأولى، لكبرى الصحف الأمريكية، حاملاً اسم شركة ألعاب كمبيوتر شهيرة، تبشِّر زبائنها بابتكار وسيلة توجيه جديدة لألعاب المستقبل..

ومع العبارات الأنيقة، كانت هناك صورة خوذة..

خوذة (جاما)...

لم تكن على نفس الهيئة، التى ابتكرها عليها علماء الجيش والقوات الجوية الأمريكية، إلا أنها كانت تعتمد على النظرية نفسها..

تحديد رد فعل اللاعب، عبر انبعاثات موجات (جاما) من مخه، ونقلها مباشرة إلى أجهزة التصويب..

ومع التطور الجديد، أكَّدت الشركة المنتجة، أن هذا يمنحها فرصة مضاعفة سرعة ألعابها، إلى حد يتجاوز قدرات البشر العاديين، ولكنه يمنح متعة لا حدود لها، لمن يرتدى الخوذة الجديدة..

وفور ظهور الإعلان فى الصحيفة، تم حجز أكثر من عشرة آلاف خوذة من الشركة المنتجة وموزعيها، خلال ساعة واحدة..

وفى الساعة التالية، كان رجال مخابرات الجيش الأمريكى يملئون مقر الشركة، ويحتلون مكاتبها، ويستجوبون رئيس مجلس إدارتها، حول كيفية حصوله على هذا السر الخطير..

ولكن إجابة رئيس مجلس الإدارة كانت أخطر بكثير..

فالرجل أكد، بالأوراق والوثائق والسجلات، أن علماء شركته، هم الذين ابتكروا الفكرة، وصنعوا الخوذة..

وأسقط فى يد خبراء الجيش الأمريكي..

فمن أعظم سمات العلم، أنه ليس حكراً على أحد..

وأن الفكرة الواحدة، يمكن أن تقفز إلى ألف عقل وعقل..

ولأن الشركة سجلت اختراعها، وحصلت على حق إنتاجه وتوزيعه، لم يملك الجيش الأمريكى منعها، وإنما اضطر إلى توقيع عقد احتكار معها، يجعله المشترى الوحيد، لكل ما كانت تتضمنه خطتها، من إنتاج تلك الخوذة العجيبة..

ولأن الخوذة قد انتشرت، بين عشرة آلاف مستهلك، كان لابد من العمل على تطويرها بسرعة، بحيث يمحو الجيل الثانى منها، كل امتياز يمكن أن يمنحه الجيل الأوَّل لمستخدميه..

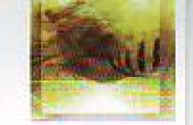
ثم أن سلسلة العلم قد اتصلت، عبر قنوات أخرى عديدة...

ابتكار الكمبيوتر الشخصى مثلاً، وتطوراته السريعة المتلاحقة، والقدرة على

تصغيره ودمجه، ساعدت كلها على تطوير وسائل قياس ورصد موجهات (جاما)؛ للوصول بها إلى أقصى قدر ممكن من الدقة..
وهكذا، أصبح من الممكن رصد أدق التغيرات، فى المشاعر البشرية، عبر رصد موجات (جاما)، التى تنبعث من المخ أثنائها..
وهنا، أصبح الخيال ممكناً..
العلماء يعملون الآن، على قدم وساق، لتحويل الجيل الرابع لخوذة (جاما)، فى القرن الحادى والعشرين، إلى آلة لقراءة الأفكار بالفعل..
والمدهش أنه هناك نموذج أوَّلى بالفعل لهذى..
خوذة (جاما)، يرتديها شخص ما، لتبث كل تغيير، مهما بلغت ضآلته، من مخه إلى جهاز رصد مباشرة..
ولاسلكياً..
وبمعاونة فريق من الخبراء، يمكن رصد تلك التغيرات الموجية، عبر خطوط ومنحنيات، يمكن للمتخصِّص قراءتها، وتحديد معانيها..
باختصار، يمكنه قراءة أفكار مرتديها..
وهذا ليس قمة التطور، فى هذا المضمار، إذ يعمل العلماء الآن على عملية مزدوجة، عبر استخدام خوذتى (جاما)، إحداهما للبث، والأخرى للاستقبال، بحيث ترسل إحداهما أفكار مرتديها إلى عقل الآخر، فيشعر بنفس المشاعر، وكأنه يقرأ أفكار صاحبه..
والأمر لن يقتصر على هذا، فالموجات التى تطلقها عقول أصحاب القدرات فوق العقلية، يجرى الآن رصدها، وبرمجتها فى خوذات (جاما)، من الجيل الخامس، بحيث يمكن أن يرتديها شخص عادى، فيمتلك القدرة على التخاطر (التليباثى)، أو تحريك الأشياء عن بُعد (سيكوكينيزيس)، أو غيرها..
وهكذا تقفز خوذات (جاما) بالبشر، من العقل، إلى ما فوق العقل.. بل وربما تغوص فى أعمق أعماقهم أيضاً..
فمطورو الجيل الخامس، يؤكِّدون أنهم، فى غضون أعوام قليلة، سيمكنهم بوساطتها اختراق عالم الأحلام..
ليس مجازياً، ولكن فعلياً..
و..
ولهذا رواية أخرى..

× × ×

العلماء لم يدركوا أبداً من أين تنبع الأحلام..
ولكنهم سجلوا موجاتها..
سجلوا كل ما يبعثه العقل البشرى من موجات (جاما)، قبل، وأثناء، وبعد



الأحلام..
ولأن الإنسان يستيقظ فى الصباح، وهو لا يذكر أكثر من خمسة فى المائة مما مر بعقله من أحلام طيلة ليله، فقد ابتكر العلماء وسيلة دقيقة، تعمل على إيقاظ النائم، فور الانتهاء من أحد أحلامه، عبر رصد حركة جفنيه، وبهذا يتسنى له أن يذكر حلمه..
أو معظمه على الأقل..
وبهذه الوسيلة، تمكَّن العلماء من تحديد طبيعة الموجات، التى يبثها المخ، مع الأحلام السعيدة، والحزينة..
وحتى الكوابيس..
ومع تطوّر وسائل القياس، وأجهزة الكمبيوتر، أصبح من الممكن رصد وتسجيل كل هذا بدقة..
بل بمنتهى الدقة..
وعلى الجانب الآخر، كان فريق آخر من العلماء قد سجَّل وبرمج كل انبعاثات المخ، الخاصة بمشاعره المختلفة..
وهكذا، وبعد مؤتمر علمى لتبادل الأفكار والمعلومات، نشأت تلك الفكرة الجديدة..
لماذا لا يتم زرع الأحلام؟!...
كانت هناك محاولة سابقة، لزرع الأفكار فى رأس شخص ما، باستخدام خوذة (جاما)، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل؛ بسبب الإرادة البشرية، التى تصدَّت للأفكار الدخيلة..
هذا بالنسبة لشخص متيقظ..
ولكن ماذا عن النائم؟!..
هل يمكن برمجة مخه المسترخى، بحلم خاص جداً..
حلم سعيد، أو حزين..
حلم عن رحلة فى الفضاء مثلاً..
أو عن مغامرة مثيرة..
أو قصة حب ساخنة..
من الناحية النظرية، بدا هذا ممكناً جداً، وقابلاً للحدوث..
بل وللتطوير أيضاً..
ولقد تمادى أحد رجال الأعمال، فافترض أن المستقبل سيكفل زرع كل أنواع الأحلام، فى رأس النائم، ورأى فى هذا مشروعاً استثمارياً ضخماً، فسارع بتسجيل الفكرة..
وهكذا، فى عام 2005م، أصبح هناك بالفعل مشروع لزرع الأحلام..
ومشروع يعنى استثمارات، وتمويل، ومزيد من التجارب؛ للتوصُّل إلى فكرة تتجاوز كل الأحلام..

والواقع أن التجارب الأولية قد حقَّقت نتائج ملحوظة..

صحيح أنها ليست النتائج المنشودة، الكفيلة بإنجاح مشروع كهذا، إلا أنها بداية جيدة..

والعلم دوماً يسعى خلف البداية..

خلف كسر الحاجز..

ولقد كسر العلماء بالفعل حاجز عالم الأحلام السرى، الغامض، والخاص جداً جداً..

وبقى أن يفهموه، ويدرسوه، ويتفوقون عليه، و...

ويزرعونه..

وبقدر ما يبدو عليه هذا من إبهار، فقد رآه العديد من العلماء نوع من العبث، لا طائل من خلفه..

فبم يفيد زرع الأحلام، فى رءوس النائمين؟!..

ماذا يستفيد العالم، من شخص يصحو من حلم مبهج؟!..

وهذا الفريق يحارب الفكرة فى شدة، ويطالب بتطوير خوذة (جاما)؛ لاستخدامها فيما يفيد البشر كافة، وليس المرفهين وحدهم..

ولكن الفريق المعارض كان له رأى آخر..

فزرع الأحلام ليس وسيلة للرفاهية فحسب..

إنه أيضاً علاج..

علاج شاف، من العديد من الأمراض النفسية، وعلى رأسها حالات الخوف المرضى المبالغ، أو ما يطلق عليه العلم اسم (الفوبيا)، و..

ولهذا حديث آخر...

مستقل.

× × ×

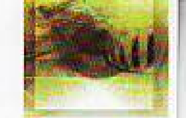
فـــوبيا...

من مِنا يمكن أن يدّعي، ويصدق، أنه شخص بلا مخاوف؟!
علماء النفس يؤكدون أنه، حتى أشجع وأقوى الرجال، لا يمكنه أن يدّعي هذا، ولو فعلها فهو كاذب حتماً، وهم يتحدونه أن يجتاز بقوله هذا إختبار جهاز كشف الكذب بنجاح!!..
هذا لأن ما من مخلوق حي بلا مخاوف..
ففي أعمق أعماق كل منا، هناك حتماً خوف ما، من شيء ما، يحتل مساحة ما، من عقولنا، أو قلوبنا، أو أي مكان آخر من أجسادنا..
خوف سجلته عقولنا الباطنة، في لحظة ما، ربما لا تبتعد كثيراً عن لحظة مولدنا، وإختزنته، وأخفته في بقعة مظلمة، لا تضاء إلا بعامل مساعد، أو فعل شرطي منعكس، وعندئذ فقط تسترجع العقول الخفية ذلك الموقف القديم، وتستعيده، وتطلقه في العقل الواعي، و...
ونخاف..
ومخاوف البشر لا حصر لها؛ إذ أنها ترتبط بأي شيء، وكل شيء، ويمكن في بعض الأحيان أن تكمن في لحظات أو أشياء لا يمكن أن تثير ذرة واحدة من الخوف، في نفس أي مخلوق طبيعي، كملعقة فضية مثلاً، أو نوع بعينه من السجائر، أو دقات الساعة، أو أي أمر آخر..
وهذا هو العامل المساعد، الذي يضيء تلك البقعة المظلمة في أعمق أعماقنا، ليفجّر خوفنا، ورعبنا، وفزعنا، وهلعنا، وكل تلك المشاعر، الذي تطلق عليه القواميس الطبية والعلمية إسم (الفوبيا)..
و(فوبيا) هو مصطلح لاتيني، يعني الخوف من شيء ما، ويمكن ربطه بكل أنواع المخاوف المعتادة، وغير المعتادة أيضاً، وعندما يحدث هذا، فنحن نشير إلى نوع خاص من الخوف..
النوع المرضي.. جداً..
فالخوف من الأماكن المظلمة أو المغلقة، هو أمر طبيعي، عند الكثير من الناس، ولكنه عند البعض الآخر يتحوّل إلى (فوبيا)، أو خوف مرضي، عندما يواجه هؤلاء البعض الموقف بإرتعاشات عنيفة، وعرق غزير، وأعراض قد تبلغ حد التخشّب، أو الغيبوبة التامة، أو حتى الموت، في حالات نادرة ومحدودة..
ومن أشهر تلك المخاوف، التي يعرفها ملايين البشر، الخوف من رؤية الدم، ذلك السائل الحيوي، الذي يجري في عروقنا، وتخفق به قلوبنا، وينقّي الهواء في رئتينا، مع عشرات الوظائف الأخرى..
وإرتباط الإنسان بالدم إرتباط عجيب للغاية، فهو يعشقه عندما يجري في عروقه، ويورّد وجنيته، ويملأ قلبه، ويعلن حيويته وقوته ونشاطه، بل ويسعى دوماً إلى أية أطعمة أو مشروبات، يقال عنها أنها قادرة على تقويته، وتنشيطه، ودفعه



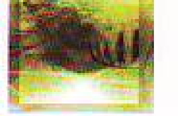
الأديب البريطاني برام ستوكر مؤلف رواية دراكيولا الخالدة

أكثر وأكثر في أوعيته الدموية، وخلاياه الحية، وحتى نصف الحية..
أما لو تدفَّق هذا الدم خارج جسده، أو حتى خارج أجساد الآخرين، فالطامة الكبرى، والكارثة، والمصيبة، ومصدر الرعب والهلع، و...
و(الفوبيا) أيضاً في بعض الأحيان..
فالعديد من البشر لا يمكنهم رؤية الدم البشري، أو حتى الحيواني، دون أن ترتجف أجسادهم، وترتعد خلاياهم، وتسري في كيانهم قشعريرة باردة كالثلج، وتتسع عيونهم في هلع..
وبعض البشر قد يصرخ لمرأى الدم، أو يفقد الوعي، أو تنتابه الكوابيس لأسابيع طويلة، وكأنما رأي وحشاً كاسراً..
هذا لأن الدم يرتبط في أذهاننا جميعاً بالحياة، وفقدانه يعني دوماً الموت والفناء، وعندما يرى المصابون بهذه (الفوبيا) الدماء، تقفز أذهانهم فوراً إلى تصوّر الموت..
موتهم هم بالطبع..
ولأن كل المخلوقات الحية تخشى الموت، فإن عقولهم الباطنة تدفع في عقولهم الواعية كل المخاوف المختزنة فيها، فيبلغ رعبهم ذلك الحد المرضي العنيف للغاية..
ولابد وأن نستثني هنا الجراحين، والجزارين، وعمال وموظفي بنوك الدم، وكل من يحتم عليه عمله رؤية الدم طوال الوقت..
ولكن حتى هؤلاء، تبقى في أعماقهم لمحة من خوف الدم..
وهذا ما أدركه كتاب الرعب، ومخرجو السينما الغربية، عندما أغرقونا بسلسلة من الأفلام حول مصاصي الدماء، الذين ينشطون ليلاً، ويرقدون في أعمق أعماق توابيتهم نهاراً، وينقضون دوماً على الأوردة العنقية لضحاياهم، ليغرزوا فيها أنيابهم، بإعتبارها من أكبر وأغزر موارد الدم، ويمتصون الدماء في شراهة ونهم، حتى تموت الضحية، التي لا تلبث أن تعود إلى الحياة بعدها، في هيئة



مصاص دماء جديد، وهكذا..
والطريف أن كل هذه الأفلام السينمائية قد بنيت على أحداث تلك الرواية الشهيرة (دراكيولا) للروائي البريطاني (برام ستوكر)، والتي إستوحاها بدوره من سيرة الأمير الروماني (فلاد يتبيس)، والذي سفك دماء آلاف من المحتلين، وعرف بإسم (مصاص الدماء)، وذلك خلال فترة حكمه، ما بين عامي 1456، و1462م..
وعندما كتب (ستوكر) روايته، عام 1897م، لم يكن علم النفس قد تطوَّر، إلى الحد الذي يكفي لتحديد مخاوف الناس بشكل علمي، إلا أنه كان يدرك، على نحو فطري تماماً، أن ذكر الدم يثير الرعب في النفوس..
كل النفوس..
ولكن الذي ينبغي أن يثير مخاوفنا أكثر، هو أن الحالة التي تحدَّث عنها (ستوكر)، والتى أصبحت شهيرة ومعروفة، فى الأدب والسينما، لم تعد مجرَّد خيال محض، وإنما كشف العلم أن مصاصي الدماء حقيقة..
حقيقة طبية معروفة، ومسجَّلة في عدد كبير من المراجع والكتب!!..
فمن بين عناصر الدم، توجد مادة إسمها (البروفيرين)، وهي ضرورية لتكوين وتثبيت مادة (الهيموجلوبين)، اللازمة لصلاحية الدم، كمادة لنقل الغذاء والأكسجين إلى خلايا الجسم، وفي بعض الحالات النادرة، يحدث نقص شديد في هذه المادة، مما يؤدي إلى الإصابة بمرض غاية في الندرة، من أمراض الدم، يسمى (البروفيريا)..
والمدهش أن المصابين بهذا المرض لهم وجوه شاحبة، أشبه بوجوه الموتى، وتطول أنيابهم على نحو واضح، كما تكون لديهم حساسية مفرطة لضوء الشمس، ولديهم إحتياج دائم للدم، لتعويض النقص الشديد في (الهيموجلوبين) في أجسادهم..
وفي عام 1985م، كشف طبيب أمريكي ثلاث حالات مصابة بمرض (البروفيريا)، في عائلة واحدة، فأعلن عن المرض، وعن أن مصاصي الدماء قد يكونون حقيقة وليس خيالاً..
ومن الطبيعي أن يثير هذا رعب الناس أكثر وأكثر، وخوفهم الغريزي من رؤية الدماء، وبالذات دمائهم هم، إذا ما نزفت من أجسادهم، لسبب أو لآخر..
وحالات (الفوبيا) المرضية من الدم لا تعتبر الأعلى، بين حالات (الفوبيا) الأخرى، ولكنها أوسع إنتشاراً وتواجداً، في معظم الشعوب والجنسيات، والديانات..
هذا لأننا جميعاً بشر، تجري الدماء في عروقنا..
أو خارجها..
و(فوبيا) الدم هذه ليست كلها من طراز واحد، فبعضها يرتبط بالدماء البشرية وحدها، عندما تسيل بغزارة أكثر من المعتاد، والبعض الآخر يرتبط بأية دماء

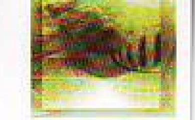




نازفة، من أي مخلوق حي، لذا فأصحابها لا يحتملون رؤية حيوان يذبح أو طائر ينحر..
وفي حالات أخرى، لا يحتمل المريض رؤية قطرة واحدة من الدم، سواء من بشر، أو حيوان، أو طير، أو حتى حشرة..
ومع حالات أكثر ندرة، يصاب المرضى بهلع عنيف، إذا ما وقعت أبصارهم على أي شيء بلون الدم، حتى ولو كان قطعة من القماش، أو بقعة فوق لوحة تجريدية..
ورد الفعل، إزاء تلك (الفوبيا) يختلف في كل حالة عن أخرى، ومع كل مريض عن آخر، ففي واحدة من الحالات النادرة، أصيب المريض بصدمة عصبية عنيفة، مع رؤية بركة من الدم، سالت من مصاب في حادثة سير، وإنتهى به الأمر إلى أن عقله قد إستبعد اللون القرمزي الدموي تماماً، من كل شئ في الوجود..
حتى الألوان، التي يدخل في تركيبها اللون القرمزي، أصبح ذلك المريض يراها خالية منه، فاللون البرتقالي تحوّل إلى الأصفر، والبنفسجي إلى الأزرق، أما الوردي والقرمزي، فقد تحوَّلا إلى اللون الأبيض أو الرمادي..
ولقد إحتاج ذلك المريض إلى علاج نفسي طويل، قبل أن يتجاوز هذه (الفوبيا)، ويعود لرؤية لون الدم مرة أخرى، ولكنه لم يتخلص من (فوبيا) الدم أبداً، على الرغم من المحاولات المتصلة..
ولقد أجريت دراسات عديدة حول (فوبيا) الدم، إلا أنها لم تلق اهتماماً على المستوى العام، فقد حجبتها تماماً (فوبيا) أخرى، يشترك فيها تسعون في المائة من البشر على الأقل..
(فوبيا) أكثر إنتشاراً..
بكثير.

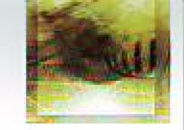
× × ×

تخيَّل نفسك في مكان ما، لا تألفه جيِّداً، ثم إنقطعت الأضواء كلها فجأة، ووجدت نفسك في قلب الظلام..
ظلام دامس رهيب، يحيط بك من كل جانب، ويرسم في خيالك عشرات الصور، والأوهام، والمخاوف، ويرهف حواسك حتى لتبدو أية حركة بسيطة أشبه بزحف ثعبان سام، أو إنقضاضة خفاش قاتل، أو فحيح عفريت من الجن، أو... أو..
كل هذا سيصنعه عقلك في قلب الظلام، الذي سيجعلك ترتجف، وترتجف، وربما إلى درجة الرعب..
وهنا تكمن (الفوبيا)..
(فوبيا) الظلام..
و(فوبيا) الظلام هذه هي أكثر أنواع المخاوف المرضية إنتشاراً، وتعود أسبابها،



في نظر معظم علماء النفس الأمريكيين، إلى خوف الإنسان الغريزي من المجهول...
أي مجهول..
فمنذ عصور ما قبل التاريخ، كان الإنسان يدرك أنه محاط بمخاوف لا حصر لها..
مخاوف من الأعداء، والوحوش، والحيوانات، والحشرات السامة، وحتى من الطبيعة نفسها..
ولأنه لم يدر أبداً من أين تأتيه الضربة، أصبح يخشى كل من حوله..
وكل ما حوله..
ولأن الظلام غامض ومجهول، ووسائله لا تسمح له بكشف ما يحدث داخله، فقد إعتاد الإنسان القديم أن يخشى الظلام، ويخافه، ويتحاشاه بكل الوسائل الممكنة..
وربما لهذا، إخترع الإنسان النار، لكي يبدِّد بوهجها ما يحيط به من ظلام، ويخيف أعداءه، ويرى طريقه طوال الوقت..
وعلى الرغم من تطوّر العلم ووسائل الإنارة، إحتفظ الإنسان بخوفه المرضي الموروث من الظلام، والمجهول، وكل ما يستغلق عليه معرفته أو فهمه..
بل ويقول البعض أن تطوّر وسائل الإنارة قد ضاعف من خوف الإنسان الحديث من الظلام، فقد إعتاد مع الوقت أن يحيا في أضواء مبهرة، تحيط به في كل لحظة، وأن يطوّعها ويطوِّرها بضغطة زر واحدة، فيغيِّر من شدتها، وتوهّجها، وإنتشارها..
ولأنه قد إعتاد هذا، فما أن يحيط به الظلام، حتى ينتابه خوف مرضي عنيف، فيضطرب ويتخبَّط، ويدور حول نفسه، وربما يبلغ مرحلة الرعب العنيف أيضاً..
والواقع أن الحداثة قد أضافت إلى البشر عشرات المخاوف، التي ترتبط كلها بالظلام، وخاصة مع موجة أفلام الرعب، والأشباح، والعفاريت، التي ساعدت خياله على أن يتصوَّر عشرات الأعداء الوهميين، الذين يتحفزون للإنقضاض عليه، من كل ركن مظلم..
ونحن نساهم كثيراً فى زرع (فوبيا) الظلام، في نفوس أبنائنا وبناتنا، عندما نروي لهم قصص الجن والعفاريت وغيرها..
الأمر الطريف، أن بعض أنواع الحيوانات أيضاً تخشى الظلام، وتسعى دوماً للتواجد في أية بقعة من الضوء، مما يوحي بأن هذا الخوف بالذات له أصول في خلايانا وأدمغتنا، ونفوسنا كذلك..
والخوف المرضي من الظلام يتشارك مع خوف آخر، على نحو متلازم في كثير من الأحياء، ومنفصل في أحيان أخرى، وهو الخوف من الأماكن المغلقة..
وتلازم الخوف من الظلام مع (فوبيا) الأماكن المغلقة يعود أيضاً إلى خشية الإنسان الشديدة من الموت، إذ تبدو له الأماكن المغلقة أشبه بالقبر، فإذا ما

أضيف إليها الظلام، تضاعفت الصورة، وتضخَّمت، وبلغت حد الإنهيار..
وفي حالات عديدة، أصيب أمثال هؤلاء المرضى بجنون مطبق، بعد بقائهم لخمس ساعات فقط، في أماكن مظلمة مغلقة، و97% منهم أصابهم هذا داخل مصاعد معطلة، أثناء حالات إنقطاع التيار العرضية..
وهلع المصاعد هو الصورة المثلى، والأكثر إنتشاراً، لمرضى (فوبيا) الأماكن المغلقة، فبالنسبة لهذه الفئة، يعتبر المصعد مجرَّد قبر متحرِّك، حتى أنه هناك حالة مسُجلة لمواطن أمريكي، ظل طيلة عمره يقيم في أدوار منخفضة، أو في منازل مستقلة، من طابق أو طابقين على الأكثر، وكان يرفض العديد من الوظائف الممتازة، على الرغم من كفاءته الشديدة؛ لمجرَّد أن الشركات التي تلقى عروضها، تحتل بعض الطوابق العليا، في ناطحات سحاب شاهقة، وعندما قبل أخيراً عرضاً لشركة (ميكروسوفت)، في فرع لها، في الطابق الخامس من بناية كبيرة، ظل طوال فترة عمله فيها يصعد إلى مكتبه عبر درجات السلم، ولم يستقل المصعد مرة واحدة..
وهناك حالة مسجلة أخرى لمريضة شابة، لم تصعد منفردة في أي مصعد قط، حتى أنها كانت تقف إلى جوار أي مصعد لساعات، حتى يظهر راكب آخر، لتشعر أنها ليست وحدها داخل مصعد مغلق..
وحتى في وجود ركاب آخرين، كانت تصاب بحالة عجيبة من التخشُّب طوال الوقت، أثناء صعود أو هبوط المصعد، وتتسع عيناها في رعب هائل، على نحو يوحي بأنها تخوض أشد لحظاتها صعوبة..
وعلى عكس تلك الحالة تماماً، كانت هناك حالة أخرى، لامرأة في منتصف العمر، ترفض تماماً أن تستقل المصعد، في وجود آخرين، على الرغم من خوفها الشديد من الأماكن المغلقة، ولكنها كانت مصابة بخوف أكثر مرضية، من الغرباء..
أي غرباء..
والخوف من الظلام والأماكن المغلقة، يقود إلى خوف آخر، مشابه أو متلازم، أو ينتمي إلى المجموعة نفسها..
الخوف من البحر..
أو من أعماق البحر..
والخوف من البحر، وأعماق البحر، ينتمي إلى (فوبيا) ذات مجموعة ضخمة للغاية، ألا وهي (فوبيا) المجهول..
أي مجهول..
فالبحر يمثل لأصحاب هذا المرض مساحة ممتدة إلى مدى البصر، وأعماق غامضة مريبة، لا يمكنهم رؤيتها، أو معرفتها، أو إستنباط ما يدور فيها، أو ينتشر عبرها..
وككل مجهول، يعطي البحر للمرضى بهذه (الفوبيا) شعور غامض بالخوف



وعدم الأمان، خاصة وأن خيالهم يضخم دوماً كل ما يتلقونه من معلومات عن أعماق البحر، ويمزج كل هذه المعلومات بمخاوفهم، بحيث يتصورون طوال الوقت أن وحشاً سينقض عليهم، أو كائناً مفترساً سيلتهمهم، أو حتى دوَّامة مفاجئة ستبتلعهم، أو تيار قوي سيسحبهم إلى أعمق الأعماق، حيث يموتون مختنقين، على نحو يثير رعبهم، حتى في أحلامهم وكوابيسهم..

والمصابون بهذه (الفوبيا) لا يمارسون رياضة السباحة أو الغوص أبداً، بل إن بعضهم قد يتحاشى رؤية أية أفلام سينمائية، تتحدَّث عن البحر وأعماقه، أو قراءة أية رواية من روايات البحر..

وبعض الحالات الخفيفة، من (فوبيا) الأعماق، يتمكن أصحابها من السباحة والغوص، ولكن في أحواض السباحة فقط، حيث يمكنهم رؤية القاع في وضوح، وتحديد كل تفاصيله أو تضاريسه، قبل المجازفة بالغوص في أعماقه..

وفي واحدة من الحالات المسجَّلة، كانت المريضة ترفض وضع قدميها في أي مساحة من المياه، حتى في حوض الإستحمام المنزلي، بل أنها كانت ترتجف إرتجافة عنيفة، لرؤية أي حوض إستحمام، ولو كان فارغاً تماماً..

وفي حالة أكثر عنفاً، كان المريض يرفض تناول ماء الشرب نفسه، ما لم يكن داخل وعاء شفاف، يمكنه من رؤية قاعه في وضوح..

وهناك حالة نادرة للغاية، لشاب ولد في أسرة من الصيادين، ظل طيلة عمره يخشى مجرَّد لمس مياه البحر لقدميه، وعندما حاول أفراد أسرته تخليصه من هذا الخوف المرضي، بأسلوبهم البسيط المباشر، حملوه عنوة، وألقوه وسط الماء، على مسافة متر واحد من الشاطئ، وعلى الرغم من أن عمق المياه هناك، لم يكن يتجاوز السنتيمترات العشرة، إلا أن الشاب أصيب بفزع شديد، وراح يضرب الماء بذراعيه بكل رعب الدنيا، في نفس الوقت الذي دفن فيه رأسه في شبر من الماء، دون سبب معروف، على الرغم من محاولة الكل إنتشاله، حتى لقي مصرعه غرقاً، أمام عيون الجميع!!..

ولقد أصيب الكل بالذهول، وهم يخرجون جثته، ويضعونها على الشاطئ، دون أدنى تفسير لما فعله بنفسه، والذي يتجاوز حدود كل عقل أو منطق..

ولكن أي عقل، وأي منطق، مع (فوبيا) مرضية؟!..

لقد فعلها الشاب، أياً كانت الأسباب، وقتل نفسه في شبر من المياه، بسبب رعب هائل بلا حدود، ملك جوارحه، وألغى عقله تماماً، مع كل حواسه الأخرى..

رعب (فوبيا) الأعماق..

وهذا الرعب يرتبط بنوع آخر من (الفوبيا)..

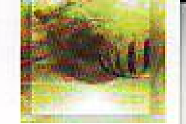
نوع حيواني..

جداً.



× × ×

(الفوبيا) هذه المرة من نوع متميِّز، ومختلف، وخاص..
خاص جداً..
(فوبيا) لها أنياب.. ومخالب..
(فوبيا) الحيوانات..
وربما يتبادر إلى ذهنك، للوهلة الأولى، أن هذا النوع من (الفوبيا)، أو الخوف المرضي، من الحيوانات، يقتصر على الحيوانات المفترسة وحدها دون سواها، حيث ترتبط في أذهان الناس دوماً بالوحشية، والعنف، والدم، والألم، والموت أيضاً..
ولكن الحقيقة تختلف كثيراً..
فالمصابون بهذا النوع من (الفوبيا) يصابون بالخوف المرضي، والفزع، والرعب، والهلع، وكل المشاعر المشابهة الأخرى، من كل أنواع الحيوانات، المفترسة، والأليفة، وحتى الوديعة منها..
ومن المؤكَّد أنك قد إلتقيت في حياتك حتماً بأحد المصابين بهذه الحالة العجيبة، وأنك قد رأيت من يصاب برعب بلا حدود، عند رؤية قط، أو كلب منزلي، أو أرنب، أو حتى حمار..
وربما ترتبط بعض الحالات بذكرى مؤلمة، في فترات الطفولة أو الصبا، كأن يداعب طفلاً هرته مثلاً، فتخدشه بعنف، مما يولِّد لديه خوفاً مرضياً من القطط طوال العمر، أو حتى يشاهد كلباً يعقر شخصاً آخر، ويرى الآلام الرهيبة التي يعانيها هذا الآخر، فيخشى الكلاب حتى آخر لحظة في عمره..
ولكن هناك حالات أخرى، لم يجد الأطباء النفسيون في تاريخها كله، وحتى تحت تأثير التنويم المغناطيسي، أي موقف أو حادث، يمكن أن يكون السبب في إصابتها بهذا الخوف المرضي من الحيوانات..
كل الحيوانات..
وحالات الخوف من الحيوانات تختلف من مريض إلى آخر، ككل أنواع (الفوبيا)، فهناك مريض يصيبه الفزع، عند رؤية حيوان يجري هنا أو هناك، أياً كانت نوعيته، أو كان حجمه..
وفي حالات أخرى، لا يرتبط الخوف المرضي إلا بالحيوانات الحية، ويتلاشى تماماً أمام أي حيوان ميت، بإعتبار أن موته يعني إنتهاء شروره، أو ما يمكن أن يسببه من أذى للآخرين..
وهناك حالة مسجلة عن مريض، لم يكن بإستطاعته أبداً التطلُّع إلى عيني أي حيوان، ويتصوَّر دوماً أنه إذا ما إلتقت عيناه بحيوان ما، فإن هذا الحيوان سيتحداه، ويستفزه، وسينتهز أية فرصة سانحة للإنقضاض عليه، وإفتراسه بلا رحمة..
وهناك حالة أخرى لمريضة، كان يمكنها أن تتعامل مع الحيوانات بكل أنواعها، لو



أنها حبيسة الأقفاص، أو بعيدة عن متناول يدها، أما لو لمسها أي حيوان، فهي تصرخ، وتولول، وتبكي، وتنهار، وتقضي ساعات وساعات في غسل ذلك الموضع، الذي لامسه الحيوان، حتى أنها ذات مرة أزالت جلد ساعدها وألهبته، من فرط محاولتها تنظيفه..

والخوف المرضي من الحيوانات لا يرتبط بقوة المرء أو شجاعته العامة، في مواجهة أية مواقف أخرى، بل هو نوع منفصل تماماً من المخاوف، ينمو في ظروف خاصة، تختلف دوماً عن الظروف الطبيعية..

وأكبر مثال لهذا هو حالة (دي لوكا)..

و(دى لوكا) هذا كان رجلاً ضخم الجثة، عريض المنكبين، طويل القامة، له ملامح غليظة صارمة، وأطراف كبيرة على نحو مفرط، بحيث يبدو في معطفه الداكن أشبه بصورة حية لمسخ (فرانكنشتاين) الشهير..

أما وظيفته، فكانت القتل!!..

نعم.. كان (دي لوكا) قاتلاً محترفاً، يعمل لحساب (المافيا) الإيطالية في الثلاثينات، ويلازم زعماءها ملازمة الظل، وينفذ أوامرهم بلا مناقشة، وبلا تردُّد أيضاً، فيكفي أن يشير أحدهم إلى شخص ما، حتى يعتبر (دي لوكا) هذا أمراً بالقتل، لابد وأن يعمل على تنفيذه بأي ثمن..

وعلى الرغم من أن ذكاء (دي لوكا) كان محدوداً للغاية، في النواحي الحسابية والإجتماعية، والعلمية بالطبع، إلا أنه كان يمتلك ذكاءً وحشياً عجيباً، فيما يختص بعمليات القتل، إذ كان يدبرها، ويخطط لها، وينفذها في براعة مدهشة، حتى أن كل وسيلة لحماية الضحية، لم تكن لتحول بينه وبينها قط..

ومن الناحية العملية، كان (دي لوكا) قاتلاً بلا قلب أو مشاعر، يمكنه أن يكمل مذبحة بشعة، تسيل لها دماء الأطفال والنساء والشيوخ قبل الرجال، دون أن يطرف له جفن، أو تهتز في جسده شعرة..

بإختصار، كان كتلة من الغلظة، والقسوة، والوحشية، والقوة إلا لو وقع بصره على ثعبان!..

أي ثعبان!..

فما أن يرى (دي لوكا) ثعباناً يزحف أمامه، حتى ولو داخل قفص من زجاج سميكاً، ومضاد للرصاص، حتى تتسع عيناه عن آخرهما، ويرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ويغرقه العرق وكأنما خرج من بحر، وتتخشب أطرافه كالموتى، ويخفق قلبه بمنتهى العنف، حتى يكاد يثب من قفصه الصدري بكل قوته..

ولقد تم كشف نقطة ضعف (دي لوكا) هذه بالمصادفة البحتة، عندما خرج لتنفيذ واحدة من عمليات القتل الإحترافية، ثم فوجئ بأن الهدف يهوي تربية بعض الثعابين، في أقفاص زجاجية، في حجرة مكتبه..

يومها فشل (دي لوكا) تماماً من المضي ولو خطوة واحدة، داخل حجرة المكتب،

وتراجع بكل رعب الدنيا، بل وإنطلق يعدو عبر شوارع (شيكاغو)، حتى بلغ منزله، فوثب تحت أغطية فراشه، وراح يرتجف حتى صباح اليوم التالي، وذهنه عاجز عن محو صورة الثعابين، وهي تزحف في تعومة داخل أقفاصها الكبيرة..

وإنتبه الضحية إلى ما حدث..

إنتبه إلى أنه الهدف التالي للمحترف (دي لوكا)، وإلى أن شيطان (المافيا)، كما كانوا يطلقون عليه، مصاب بهلع مرضي من الثعابين؛ بكل أنواعها..

وفي اليوم التالي مباشرة، تسلّل بعضهم إلى حجرة (دي لوكا)، وأودعوا في فراشه وعاءً يحوي عدداً من الأفاعي الصغيرة..

وعاد (دي لوكا) إلى منزله، وأوى إلى فراشه، ورقد بين الثعابين، ثم إنتبه إلى وجودها، و...

وفي الصباح التالي، عثروا على قاتل (المافيا) القاسي المحترف، ميتاً في فراشه، وعلى وجهه نظرة رعب هائل، قضى عليه تماماً، على الرغم من أن الثعابين كلها كانت من النوع البسيط غير السام..

(دي لوكا) المرعب لم يمت بسم الثعابين إذن، وإنما بسبب خوفه المرضي الرهيب منها فحسب!!..

وهناك حالة أخرى لامرأة وحيدة، تعيش في مزرعة صغيرة، في جنوب (فرنسا)، مصابة بهلع مرضي من الفئران، حتى أنها كانت تنفق نصف دخلها السنوي على الشركات المتخصصة، في إبادتهم وطردهم، ومنعهم من التسلّل إلى منزلها الصغير..

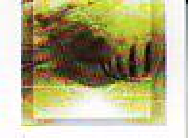
وعلى الرغم من أن المنزل كان يخلو من أجهزة الإنذار، ونظم الأمن والتأمين المعتادة، فإنه كان يحوي عشرات من أجهزة الموجات فوق الصوتية، التي تدّعي بعض الشركات قدرتها على طرد الفئران وأبعادها..

في كل حجرة، وضعت المرأة جهازين على الأقل من هذه الأجهزة، حتى تشعر بالأمان، وتبعد عنها الفئران تماماً..

ولكن من عجائب القدر، أن هناك مثل قديم يقول : «إن من يخشى العفريت يراه»، ولقد تحقّق هذا المثل بحذافيره، في حالة هذه المرأة بالذات..

فذات يوم، أصابتها أزمة قلبية مفاجئة، أعقبتها حالة شلل رباعي، كما أكّد تقرير الطب الشرعي فيما بعد، ومع سقوطها أرضاً، وعجزها عن الإتصال بأي شخص لمعاونتها، نفذ وقود المولدات، التي تمد منزلها بالطاقة، فحل الظلام، وتوقّفت أجهزة طرد الفئران عن العمل، فإنطلقت بالعشرات نحو المزرعة، وكأنما تنتقم من فترة الإبعاد الطويلة، وهاجمت العجوز العاجزة في حجرة نومها،وإلتهمتها حية، وصراخها يملأ الجو، دون أن يسمعها أحد!!.. الصورة تبدو مفزعة للغاية، وستزعج خيالك طويلاً، إلا أنها لن تصيبك بالخوف المرضي من الفئران..

أو ربما تفعل!!..

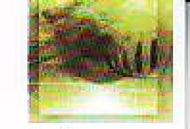


ولكنها في كل الأحوال واقعة حقيقية، على الرغم من بشاعتها..
واقعة إرتبطت بالخوف المرضي من أنواع بعينها من الحيوانات، مثل الخوف من أسماك القرش، أو الأخطبوط، أو السحالي، أو الثعابين..
والخوف من الحيوانات شديد وواسع الإنتشار، وتصاب به النساء بأكثر مما يصاب به الرجال، وهو يشترك في مواصفاته وطبيعته مع نوع آخر من (الفوبيا) المرضية..
نوع أقل شيوعاً، ولكنه أكثر إثارة للإهتمام والحيرة.
والدهشة أيضاً..
الدهشة الكبيرة.

× × ×

في دقة وحسم، وتنسيق وتنظيم ما لهم من مثيل، وفي إتجاه واضح معروف، يزحف دوماً ذلك الجيش الصغير..
جيش الحشرات..
وأياً كانت نوعية تلك الحشرات، فهي لا تتواجد منفردة أبداً، حتى ولو بدا كل منها وحيداً، يسعى إلى رزقه في إتجاه يخصه..
فالحشرات تتواجد في مجموعات، وبأعداد غزيرة، في مجتمعات بعينها، أو في بيئات تناسب نموها تماماً..
وعلى الرغم من أنه لا توجد إلا أنواع نادرة للغاية، في الحشرات المفترسة للإنسان، ومن أن حجم أضخم حشرة، لا يمكن أن يقارن بحجم أصغر إنسان، إلا أن هناك حالات عديدة للخوف المرضي من الحشرات..
صحيح أنها ليست الأكثر شيوعاً، بين حالات (الفوبيا) الأخرى، إلا أنها ليست نادرة أو منعدمة..
وقبل أن نتحدَّث عن هذه (الفوبيا)، لابد وأن نفرِّق بين أمرين مختلفين تماماً، وهما الإشمئزاز أو (القرف) من الحشرات بأنواعها، والخوف منها..
فالعديدون منا قد يصيبهم الإشمئزاز من رؤية حشرات بعينها! ربما لأنها ترتبط في الأذهان بالقاذورات، أو الموت والجيفة وغيرها، بدليل أننا لا نشعر بالإشمئزاز نفسه تجاه الفراشات مثلاً، نظراً لألوانها الزاهية الجميلة..
أما الخوف المرضي، فهو أمر مختلف تماماً..
فكما أوضحنا، في حالات (الفوبيا) السابقة؛ يصاب المريض بالهلع والرعب والفزع، إذا ما وقع بصره على سرب من الحشرات، وبخاصة إذا ما كانت هذه الحشرات بأعداد كبيرة!!..
وربما يعود هذا إلى ثقة الإنسان في أن الحشرات، على الرغم من صغر وضآلة أحجامها، يمكنها أن تصبح قوة ضاربة، إذا ما إتحدت، وتآزرت، وإنقضت على

نحو مثابر ومنظم..
وهذا صحيح تماماً، فالنمل مثلاً يمكن أن يهاجم حشرات أخرى، تفوقه حجماً بمائة ضعف في بعض الأحيان، ويتآزر للدغها في مواضع شتى، حتى تنهار، وتموت، ويجعل منها مخزوناً غذائياً له..
وهناك عشرات التنبؤات العلمية، وروايات الخيال العلمي، التي حاولت تخيل ما يمكن أن يحدث، إذا ما إنقلبت الحشرات على البشر، وجعلت منه خصماً، تقاتله، وتحاربه، وتسعى لدحره وهزيمته..
وفي كل الخيالات والتنبؤات العلمية، كانت الغلبة دوماً للحشرات، بأعدادها الهائلة، وإنتشارها في كل أرجاء الأرض، وتنوعاتها التي تبلغ مئات الفصائل، وآلاف الأنواع..
ومعظمنا لم يقرأ هذه الدراسات العلمية أبداً، إلا أن بعضنا يحمل خوفاً مرضياً من الحشرات..
ومن حسن الحظ، أن (فوبيا) كل أنواع الحشرات حالة شديدة الندرة، حتى تكاد تكون منعدمة، إذ أن صاحبها لن يمكنه تفادي كافة أنواعها، حتى ولو حبس نفسه في وعاء معقّم كما يقولون..
ولكن هناك (فوبيا) تجاه أنواع بعينها من الحشرات، وعلى رأسها (فوبيا) العناكب..
فلسبب ما، ترتبط العناكب في أذهان البعض بالرعب والموت والفزع، فهي تصنع شبكاتها، وتترقب الفريسة، التي تلتصق بالشبكة، لتنقض عليها بلا رحمة، وتمتص حياتها بلا هوادة..
وربما يتصور المرضى بهذا النوع من (فوبيا) العناكب، أنهم مجرد حشرات صغيرة، قد تقع يوماً في شباك العناكب، التي تنقض عليها أيضاً، بلا رحمة أو هوادة..
أو أنهم ضحايا بعض الأفلام القديمة، التي تحدَّثت عن عناكب عملاقة، تهاجم البشر، وتوقعها في شبكاتها، ثم تلتهما في مشاهد مرعبة، تفنَّن في تقديمها وتصويرها مبدعو (هوليود) ومخرجوها..
أو أنه خوف غريزي، يرتبط بالموت، وكل ما يمكن أن يسببه للبشر، أو حتى للحشرات الأخرى..
و(فوبيا) العناكب هذه لا ترتبط بأنواع بعينها منها، أو حتى بالأحجام الكبيرة دون الصغيرة، بل هي (فوبيا) شاملة، تتعلق بكل أنواع وأصناف وأحجام العناكب.. الكبير منها والصغير، والوديع والمفترس، وكل ما يجري على أقدام ثمان..
والعناكب في حد ذاتها فصيلة خاصة جداً من الحشرات، لها ثمانية أرجل، وليس ستة كسائر الحشرات، وهي ضرورية تماماً لإتمام دورة الحياة الطبيعية، شأنها شأن باقي الفصائل، إذ أنها تفتك بعدد من الأنواع الضارة، وسمها كاف

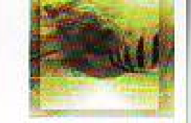


لتخدير الفريسة، وقليل منها يفرز أنواعاً من السموم، يمكنها قتل البشر!..
ومن أسفل مؤخرة الكتلة الخلفية للعناكب، تبرز المغازل، وهي مراكز تكوين مادة حريرية، تصنع منها العناكب شباكها، ومنازلها، وشراكها، وأكياس بيضها أيضاً، كما تستعمل خيوط العناكب هذه، في صناعة بعض الآلات البصرية الدقيقة..
وفي بعض الدراسات، يقول فريق من العلماء أن العناكب تتميَّز بحاسة سادسة عجيبة، وقدرة مدهشة على التنبؤ المستقبلي، تتمثَّل في فرارها المبكِّر، من أية محاولة لإقتناصها أو السيطرة عليها..
ويقول الهنود أن عقل الإنسان يرتبط أحياناً بعقول العناكب، عبر هذه الحاسة السادسة الخاصة، وأن هذا قد يكون السبب الرئيسي لما يعرف بإسم (فوبيا) العناكب..
ولكن هذه مجرَّد أقوال بدائية، لا توجد أية دراسات علمية يمكن أن تؤيدها؛ لأن الحاسة السادسة في حد ذاتها، سواء لدى الإنسان أو العناكب، لم تجد من يمكنه إثباتها أو تأييدها بعد، في أية مراجع علمية أو طبية..
ولقد بحث العديد من العلماء عن تاريخ واضح، يمنحنا سبباً باطنياً مقبولاً ومعقولاً لهذا النوع من (الفوبيا)، إلا أن معظم المصابين بها ليست لديهم أية أسباب في طفولتهم أو حداثتهم، تدفعهم إلى خوف مرضي من العناكب، بل أن بعضهم يصاب بهذا الخوف أو الهلع الفائق في فترات الطفولة والصبا، وبعضهم يمتد به الخوف إلى كل ما يتحرَّك بأسلوب مشابه للعناكب، حتى لو كان ينتمي لفصائل أخرى أو متباعدة، كسرطان البحر مثلاً، بل وحتى لو كان في صورة آلية أو هيكلية..
وهذا يعني أن السبب ما زال مجهولاً تماماً، تحت أية مقاييس، وأنه ينشأ من أعمق أعماق المخ البشري، أو أغوار عقلنا الباطن، أو يكمن في مكان غامض مجهول من جيناتنا الوراثية..
وعدد المصابين بالخوف المرضي من العناكب عديدون وكثيرون، ومنتشرون في أركان الأرض الأربعة، وفي كل قارات الدنيا، حتى في أدغال (أفريقيا)، التي تحوي عشرات الأنواع من العناكب، التي تتراوح بين الميكروسكوبيات والشعريات، وذات الأحجام الضخمة الرهيبة..
وبالنسبة لأنواع (فوبيا) الحشرات، تحتل (فوبيا) العناكب المركز الأوَّل بلا منازع، ولا تنافسها سوى (فوبيا) النحل والدبابير..
وهذه (الفوبيا) الأخيرة تبدو منطقية ومفهومة إلى حد كبير، فعلى الرغم من إحترامنا وتقديرنا الشديدين للنحل، بإعتباره مصدراً للعسل، الذي يحوى شفاءً، إلا أننا نعلم جيِّداً كم تؤلم لدغة النحل، وكم تؤلم أكثر لدغة الدبابير، مما يفسِّر الخوف المرضي لبعض الناس منهما..
وعلى عكس (فوبا) العناكب، يرى العلماء أن (فوبيا) النحل والدبابير مكتسبة وليست أساسية، فالطفل قد يخاف النحلة أو الدبور، عندما يحومان حوله،

بأزيزهما المتصل، وقد يبكي وينكمش على نفسه، ولكنه إذا ما رآهما ساكنين، فقد تمتد يده للعب بأيهما، مما يعرِّضه للدغة مؤلمة، تتكوَّن بعدها هذه (الفوبيا)..
وإلى الأبد..
و(فوبيا) النحل والدبابير قد تكون غريزية أيضاً، لدى بعض الناس، الذين يعانون من حساسية مفرطة، تجاه لدغات النوعين، والذين تكفي لدغة واحدة، لتنتفخ أجسادهم وتتورَّم، ويقضون نحبهم أيضاً، لو لم يتم علاجهم في الوقت المناسب، وبالسرعة الكافية..
والسؤال الحائر هنا هو كيف يدرك هؤلاء أنهم مصابون بالحساسية المفرطة بسم النحل والدبابير، بحيث يصيبهم هذا النوع من (الفوبيا)؟!..
أهي غريزة، أم نوع من الإتصال العقلي الفائق، أم هو إستبصار خارق للمستقبل؟!..
والجملة الأخيرة قد تدهشك، إلا أنها تحمل لمحة من الحقيقة، على نحو فجَّر حيرة العلماء، على نحو كبير، وهم يدرسون بعض الأنواع الأخرى من هذه (الفوبيا) العجيبة..
أنواع مدهشة..
للغاية.

× × ×

من أشهر أنواع (الفوبيا)، التي يعرفها العامة، من كثرة الحديث عنها، في الروايات وأفلام السينما، (فوبيا) المرتفعات..
ومن الطبيعي للغاية أن يخشى الإنسان المرتفعات، وأن يشعر بالقلق وعدم الأمان، إذا ما وقف في منطقة مرتفعة، بحيث تبدو الأشياء ويبدو الأشخاص تحته في أحجام صغيرة دقيقة..
ومن الطبيعي أيضاً أن ينتابه الخوف، إذا ما وقف على حافة مرتفعة، أو طرف بناية شاهقة..
ولكن ماذا لو أنه يصاب بهلع رهيب، إذا أطل من شرفة مرتفعة مؤمَّنة، أو حتى عبر زجاج سميك قوي ومصفَّح؟!..
هنا يصبح الخوف من المرتفعات مرضياً، ومتجاوزاً لكل الحدود الطبيعية والمألوفة، والمعروفة..
والمصابون بمرض (فوبيا) المرتفعات، يشعرون بدوار عنيف، وفقدان تام للإتزان، وترتجف أطرافهم، وتتيبَّس، وقد تعجز سيقانهم عن حملهم أيضاً، إذا ما تواجدوا في مكان مرتفع، أو حتى شاهدوا صورة تم إلتقاطها من مكان مرتفع..
وفي واحدة من الإختبارات النفسية، تم وضع المريض في حجرة خاصة، في



الطابق الأرضي، وتم عرض صورة كبيرة، على أرضية الحجرة، تم إلتقاطها من أعلى ناطحة سحاب، وعلى الرغم من أن المريض يدرك جيّداً موقعه، وأن ما يراه مجرَّد صورة، فقد إنتابته المشاعر نفسها، التي تنتابه في البنايات المرتفعة، وإرتجف إلى حد الهلع، وإنهار تماماً، وهو يصرخ صرخات رهيبة، إنخلعت لها قلوب من حوله..

المسألة ليست مرتفعات ومنخفضات إذن، وإنما هي مشكلة نفسية عويصة، ترتبط بالشعور، أو بالعلاقة البصرية، بين المخ والجسد..

ولقد أجرى العلماء تجاربهم على حالات من المصابين بهذا الخوف الرهيب من كل المرتفعات، بأن عصبوا أعينهم، وجعلوهم يسيرون فوق سطح شديد الإرتفاع، فلم يعان سبع وثمانون في المائة منهم أية مشكلات، إلا بعد رفع العصابة، وإدراكهم أنهم فوق قمة مرتفعة..

ولقد دعت هذه التجربة إلى دراسة العصب البصري، والأذن الداخلية للمصابين بمرض (فوبيا) المرتفعات، لبحث ما إذا كانت له علاقة بأيهما، وجاءت النتيجة تشير إلى هذا الإحتمال، بنسبة سبعة وخمسين في المائة، مما جعل من العسير الجزم بصحته من عدمها!!..

وهناك حالة خاصة جداً، توقف عندها الباحثون طويلاً، من حالات (فوبيا) المرتفعات الفائقة، وهي حالة ظل صاحبها يصاب بذلك الهلع الفائق طوال الوقت، دون أن يفلح أى علاج في تخليصه منه، وهو يصر دوماً على أنه سيلقى حتفه سقوطاً من إرتفاع عال يوماً ما..

وطوال حياته، حرص ذلك المريض دوماً على تجنب المرتفعات، فلم يسافر يوماً بطائرة، ولم يقم أو يعمل في أي مكان مرتفع إطلاقاً..

وعلى الرغم من هذا، فقد سقط هذا المريض فجأة، في حفرة أرضية، بلغ عمقها ثمانية عشر متراً، فلقى مصرعه في الحال!..

لقد سقط إذن من إرتفاع كبير، في أعماق الأرض!..

ويا لها من مفارقة!!..

والمفارقة هنا تقودنا إلى نوع آخر من أنواع (الفوبيا)، يعتبر عكس (فوبيا) المرتفعات تماماً، وإن كان بعض العلماء يعتبرونه مجرَّد إشتقاق من هذه (الفوبيا) نفسها، على نحو آخر..

إنه (فوبيا) الأعماق..

وفي هذه (الفوبيا)، يرتجف المريض ويرتعد، عند مواجهة حفرة عميقة، أو بئر سحيقة، ولا يجرؤ حتى على النظر إليها، وينتابه شعور دائم بأنه لو تطلّع إليها، فسيقسط فيها حتماً..

والفريق الذي يتصوَّر أن هذا مجرَّد إشتقاق من (فوبيا) المرتفعات يرى أن المريض هنا يخشى المسافات البعيدة، سواء أكانت من مكان مرتفع أو منخفض، أو أنه لا يستطيع التطلّع إلى أية مسافات رأسية طويلة، بأى حال من الأحوال..

ولكن التجارب العملية ترفض هذا المنطق، في كثير من الأحيان، إذ أن معظم الحالات المصابة بالخوف المرضي من الأعماق، لم تعان من الأمر نفسه مع المرتفعات، وفي حالات أخرى، تلازم هذا مع ذلك، ولكن الأعراض إختلفت في الحالتين، فكانت أكثر عنفاً في الأعماق، منها في المرتفعات..

والفريق المؤمن بإنفرادية (فوبيا) الأعماق، يرى أن سببها يعود إلى ربطها دوماً بالموت والقبور، ورؤيتها تسبّب الهلع للمريض، لأنه يتصوّر أنه يرى قبره بعينه، وأن جثمانه سيرقد يوماً ما في حفرة كهذه، ويهال عليه التراب!!..

ولأن البشر يخشون الموت بطبيعتهم، ويكرهون فقدان كل متع الحياة، فإن عقولهم الباطنة تبغض القبور، وتعكس هذا البغض على العقل الواعي، في شكل (فوبيا) الأعماق!..

و(فوبيا) الأعماق مثلها مثل (فوبيا) المرتفعات، ذات منشأ نفسي بحت، بحيث لا يشترط تواجد الشخص في حفرة عميقة بالفعل، وإنما يكفي الإيحاء له بهذا، أو حتى إخباره بضرورة أن يفترض هذا، حتى يصاب بكل الأعراض، دون أي إختلاف..

وككل أنواع (الفوبيا)، يختلف الأمر من مريض إلى آخر، فبعض المرضى يصاب بالهلع من الأماكن شديدة العمق، والبعض الآخر لا يمكنه حتى التواجد في قبو منزل، أو في أي طابق تحت مستوى الأرض..

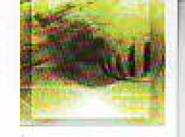
وبعض المرضى يمكنه أن ينتبه، حتى وهو مغمض العينين، إلى أنه قد تجاوز مستوى الأرض، والبعض الآخر لا يمكن أن يدرك هذا، إلا لو تم إبلاغه به، والنوع الأوّل هو الذي يثير إنتباه وإهتمام العلماء أكثر، لأنه يمتلك حاسة نادرة، لابد من دراستها، والبحث عن أسبابها، ونتائجها، ووسائل توجيهها والاستفادة منها..

تماماً كحاسة تحديد الإتجاهات، والتي يملكها بعض البشر، دون البعض الآخر، وتتفاوت قوتها بين من يملكونها، على نحو يستحق الإهتمام والدراسة بالفعل، فبعض الناس يمكنهم تحديد الإتجاهات بدقة، حتى لو أغمضت عينيه، وسرت به عبر غابة شاسعة، في مسار شديد التعرُّج والتعقيد، بل ويمكنهم الإشارة بأصابعهم نحو نقاط بعينها، في دقة مدهشة، لو طلب منهم هذا.. والبعض الآخر يمكنه الإتجاه نحو الشمال المغناطيسي بدقة مدهشة، تفوق دقة البوصلة نفسها، دون أية معرفة سابقة بمكان تواجدهم!!..

ولكن هذه قصة أخرى..

دعنا هنا نركز أبحاثنا حول (الفوبيا) بأنواعها المختلفة، وتفرعاتها العجيبة، وتعقيداتها وأعراضها اللانهائية..

وما تحدَّثنا عنه يعتبر الأنواع الشهيرة فقط من (الفوبيا)، والتي يمكن أن تتواجد في البشر، على نحو غريزي أو مكتسب، والتي تتشارك فيها أعداد كبيرة من الناس، ولكن هناك أنواع أخرى من (الفوبيا) لا حصر لها، وكلها أنواع مكتسبة،



نشأت بسبب واقعة بعينها، أو موقف أثار رعب الإنسان وفزعه، في مرحلة أوَّلية من حياته، وتبدو غامضة ومحيِّرة، بالنسبة لعلماء النفس والدارسين، وخاصة عندما ترتبط بأشياء عادية أو مألوفة، أو يمكن تواجدها في كل مكان، كالسجائر مثلاً، أو القدَّاحات، أو الأقداح الزجاجية، أو أنواع سيارات بعينها، أو حتى الملاعق والأشواك الفضية..

وهناك إمرأة، ظلت طيلة عمرها تصاب بهلع مرضي من عبور أي طريق تعبره السيارات، وعندما تم تحليلها نفسياً، ودفعها إلى العودة بذاكرتها إلى سنوات طفولتها الأولى، تبيَّن أنها قد شاهدت، وهي في الثالثة من عمرها حادثة سير، لسيارة مسرعة، أصابت طفلاً في العاشرة من عمره، وقذفت به إلى حديقة منزل بعيد، لينزف حتى الموت..

وعندما تقدَّمت هي في العمر، طرح عقلها الواعي الموقف كله في بقعة مظلمة من مخها، ولكنه لم ينجح في محوه من عقلها الباطن، الذي يستعيد المشهد سراً، كلما حاولت عبور الطريق، فتصاب بالفزع والهلع، وتتصوَّر أن سيارة ما ستصدمها، كما فعلت بذلك الطفل من قبل، وستلقى مصرعها مثله..

وعندما تم التوصُّل إلى السبب الحقيقي لمشكلتها، والتعامل معه بالحرفية اللازمة، إنتهت القضية، وتصالح عقلها الواعي مع عقلها الباطن، ولم تعد تخشى عبور الطرقات..

وهذا الحديث يقودنا إلى الجولة الأخيرة والفصل الختامي، من هذه الدراسة، الخاصة بمختلف أنواع (الفوبيا)..

الفصل الذي لا يتحدَّث عن المشكلة، وإنما عن الحل..

عن مواجهة (الفوبيا)، ووسائل التعامل معها، وعلاجها، و...

ولهذا حديث آخر.

× × ×

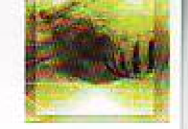
تؤكِّد كل النظريات الجديدة، في العلم الحديث، أن إصابة المرء بأي مرض في الوجود يحتاج إلى عاملين أساسيين، وهما عامل الوراثة، وعامل البيئة..

وبمعنى أدق، لابد وأن تحوي الضفيرة الجينية للمرء العامل الوراثي الخاص بالمرض، وأن تحيط به ظروف بيئية، مناسبة لظهور المرض وصعوده إلى الجسم..

ولقد أكَّدت الأبحاث صحة هذه النظريات، وحتمية تشارك العاملين معاً، بحيث لا يكفي أحدهما وحده لظهور المرض، أياً كانت نوعيته، عضوية أو حتى نفسية..

النظريات والأبحاث الجديدة إذن تؤكِّد أنه حتى (الفوبيا) بأنواعها تحتاج إلى عامل وراثي، في جينات الجسم، وإلى ظروف بيئية مناسبة، تضغط على هذا العامل الوراثي، وتظهره، ليصاب الإنسان بحالة من حالات (الفوبيا)، أياً كان

نوعها..
ولتوضيح الأمر أكثر، دعونا نفترض وجود طفلين، تعرَّضا لواقعة واحدة، ولتكن لدغة النحل مثلاً، في عامهما الأوَّل، الأوَّل يحمل الجينات المناسبة، والآخر لا يحملها..
كلاهما سيصاب عندئذ بالألم، والذعر، والفزع، وسيبكي كثيراً وطويلاً، ثم تمضي الواقعة، مع بعض التورّمات والكريمات المرطبة، ومضادات الحساسية المفرطة، وينتهي الأمر بأحدهما، وهو الذي يحمل الجينات بالإصابة بحالة (فوبيا) النحل طيلة عمره، في حين ينسى الآخر الأمر تماماً، وربما تزداد مخاوفه المستقبلية من النحل، إلا أنها لن تتحوَّل أبداً إلى خوف مرضي، أو هلع مفرط..
التوصُّل إلى هذا قلب كل موازين العلاج، التي كان يستخدمها الأطباء والمعالجون النفسيون قديماً، للتعامل مع أنواع (الفوبيا) الجينية..
وهذا لا ينطبق على (الفوبيا) البسيطة أو المكتسبة، والتي ما زالت أساليب مواجهتها وعلاجها متشابهة، مع ما كان يحدث قديماً..
فالخطوة الأولى دوماً، هي معرفة تاريخ (الفوبيا)، ومتى ظهرت أو نشأت، وهل تتطوَّر إلى الأسوأ أم إلى الأفضل، مع مرور الزمن..
وبعدها لابد من الغوص في أعماق المريض، للوصول إلى منشأ المشكلة..
وهناك عدة وسائل للقيام بهذا الغوص النفسي الخاص جداً، لبلوغ قاع حالات (الفوبيا)، إذ أن هذا يمكن أن يتم عن طريق التحدُّث المنظم والهادئ مع المريض، على فترات منتظمة، متباعدة أو متقاربة، وفقاً لنوع وشدة الحالة، حتى يصل المعالج إلى النقطة، التي تفجَّرت عندها (الفوبيا)، وإيضاحها للمريض، على نحو مباشر وهادئ أيضاً..
وفي معظم الحالات المكتسبة، يمكن أن ينهي هذا المشكلة، إذ ما أن يزيل المعالج الحاجز، بين العقل الواعي والباطن، حتى تتضح الصورة للمريض، وتبدأ في إتخاذ حجمها الحقيقي، بحيث تتحوَّل من عقدة كبيرة إلى مشكلة محدودة، يسهل التعامل معها ومواجهتها، ببعض العقاقير الطبية، أو الجلسات النفسية المكثفة..
وفي حالات أخرى، يعجز المريض نفسه عن تحديد بداية المشكلة، على الرغم من المحاولات والمحاورات، لذا يصبح من الضروري الإنتقال إلى مرحلة أكثر حرفية..
إلى التنويم المغناطيسي..
والتنويم المغناطيسي ليس نوعاً من الدجل أو الشعوذة، بل هو أمر علمي تماماً، ويرتبط بالعديد من العوامل، أهمها الشخص نفسه؛ فوفقاً للدراسات، ليس كل إنسان قابل للخضوع للتنويم المغناطيسي، فهناك عقول مقاومة بشدة لهذا الأمر، ولا يمكن تنويمها أبداً..

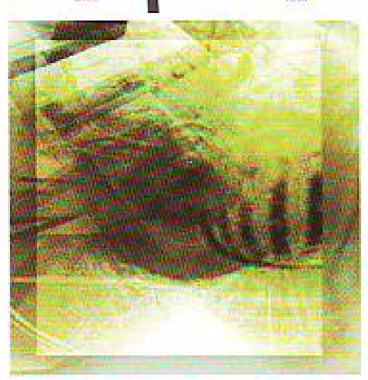


لابد إذن وأن يوافق المريض على الخضوع للتنويم المغناطيسي، وأن يستسلم لمعالجه تماماً، رغبة منه في كشف طبيعة مرضه، والقضاء عليه تماماً..
والمزية الرئيسية للتنويم المغناطيسي هي أنه يشحذ كل حواس الإنسان وذاكرته، ويساعده على إسترجاع تفاصيل دقيقة، من أعمق أعماق عقله الباطن، على نحو يعجز عن فعله على نحو إرادي، مهما بذل من جهد..
ولكن هذا يحتم أن يكون المعالج نفسه شديد البراعة، في تعامله مع المنوَّم مغناطيسياً، فمنذ سنوات قليلة، كشف أحد العلماء أن المعالج قد يقود المريض، الخاضع للتنويم المغناطيسي، إلى أمور لم تحدث في عالم الواقع، ولكنه هو أوحى له بحدوثها، دون أن يدري..
إذن فالأمر يحتاج إلى دقة شديدة..
دقة تترك المريض حراً، وتسمح بتداعي أفكاره وذكرياته في إنسيابية هادئة، حتى يتوصَّل المعالج إلى قلب المشكلة، ويفجِّر الحقائق كلها في وضوح، دون أن يزرع أية أوهام في عقل مريضه..
وهناك حالات عديدة من (الفوبيا)، تم علاجها تماماً، عن طريق التنويم المغناطيسي، إما بتوضيح المشكلة وعلاجها، أو بدفع المريض إلى محوها تماماً من عقله..
والأسلوب الأوَّل هو الأكثر دقة وضماناً بالتأكيد، إذ أن محو المشكلة من العقل أمر مستحيل، كما يؤكِّد بعض العلماء، مما يعني أنها قد تعود إلى البروز بغتة، ودون سابق إنذار، بعد فترة تطول أو تقصر، ولكن عودتها ستعيد (الفوبيا) مرة أخرى..
وربما على نحو أكثر عنفاً..
وكل هذا، كما سبق أن قلنا، يرتبط بحالات (الفوبيا) المكتسبة وحدها دون سواها..
أما حالات (الفوبيا) الجينية، فعلاجها يستلزم ما يعرف بإسم العلاج الجيني، وهذا النوع من العلاج لم يتطوَّر إلى الحد الكافي بعد، إلا أن الحالات القليلة، التي عولجت به، أعطت نتائج مدهشة، في حالات مرض السكر، والهيموفيليا، ونقص المناعة الوراثي وغيرها..
والمجال ليس مفتوحاً هنا للحديث بالتفصيل، عن العلاج الجيني، ولكنه وسيلة لإحلال ضفيرة جينية محل أخرى، في مناطق الإحلال والتجديد، مثل نخاع العظام، بحيث تنمو، وتتضاعف، وتخلص الجسم من تأثيرات جينية بعينها، بعد فترة محدودة من الوقت..
ونجاح العلاج الجيني في الأمراض العضوية، لا يعني نجاحه في الأمراض النفسية أيضاً، أو أنه ليست هناك أية تجارب واضحة في هذا الشأن، على الأقل حتى لحظة كتابة هذه السطور، ولكنه وسيلة مستقبلية، تنبأ لها العلماء والأطباء بالنجاح الفائق، وبقدرتها على تغيير وجه العالم طبياً ونفسياً، مع مطلع

العقد الثاني من القرن الحالي..
والأمر الذي يستحق الإنتباه، في هذا الشأن، هو أن معظم حالات (الفوبيا)، التي خضعت للعلاج المكثف، وأقر الأطباء بنجاحها، وبأنها قد عولجت تماماً، لم يمكن الجزم بأن علاجها سيستمر إلى الأبد..
ففي وجود العامل الوراثي، قد تتوارى (الفوبيا)، أو تنكمش، وتهادن العقل الواعي لبعض الوقت، بعد كشف الصدمة البيئية، التي سببت ظهورها، ولكنها تظل دوماً متأهبة للظهور ثانية، مع أية صدمة بيئية جديدة..
ففي إثنين وثلاثين في المائة من الحالات، إرتدت (الفوبيا) مرة أخرى، بعد ثلاث إلى خمس سنوات من الشفاء، بسبب واقعة واحدة، وقد تقل كثيراً عن الواقعة الأصلية، التي كانت السبب في ظهورها، في مرحلة الإصابة الأولى..
وإذا ما عادت (الفوبيا)، فإن علاجها يستلزم عندئذ وقتاً أطول، وجهداً أكبر، تماماً مثلما يحدث في لعبة (اليويو)، التي يدفعها الأطفال إلى أسفل، ثم يجذبونها إلى أعلى، فتدور حول خيطها لترتفع، ثم تعاود الإنخفاض، وهكذا..
ولو أنك تابعت (اليويو)، لوجدت أنه يلتهم في المرة الأولى مساحة كبيرة في الخيط، في سرعة مدهشة، ثم يلتهم مساحة أقل، في سرعة أقل، في دورته الثانية، وكذلك في الثالثة، وما بعدها..
ومن هنا، أطلق العلماء على عملية عودة (الفوبيا)، وعلاجها لأكثر من مرة، إسم (مبدأ اليويو)..
ومؤخراً، لجأ العلماء إلى خوذة جاما، التي يبثون من خلالها موجات خاصة، تتعادل مع موجات خوفه، وتخمدها...
وهذا يعطي نتائج مدهشة...
ولكنها مؤقتة للأسف...
ربما لأن المخ سرعان مايستعيد موجاته الأولى، ويعود إلى مخاوفه الدفينة...
وهذا لا يعني أن (الفوبيا) غير قابلة للشفاء، ولكن يعني حتمية الحرص الشديد في التعامل مع مريضها بعد العلاج، بحيث يبتعد تماماً عن كل المؤثرات، التي يمكن أن تصيبه بصدمة بيئية أخرى..
وقبل أن نختم حديثنا، لابد وأن نشير هنا إلى أن أحد الأسباب القوية، التي تمنع علاج مرض (الفوبيا)، هو نوع من (الفوبيا) أيضاً..
(فوبيا) الأطباء..
فالمرضى هنا لا يخشون في الدنيا كلها قدر الأطباء، والمستشفيات، وحجرات العلاج، والعناية المركزة، و...
وسيطول الحديث إلى ما لا نهاية؛ لأننا نتحدث عن حالة يمكن أن نضعها في ألف صورة وصورة..
حالة (فوبيا).

× × ×

المستقبل
حقيقة أم خيال..





منذ بداية القرن العشرين، ومع الثورة الصناعية الكبرى، التي أعلنت عن وجودها، عبر الآلات الضخمة، والمصانع العملاقة، تفتحت شهية الإنسان إلى العلم، وإلى المزيد والمزيد من التقدُّم العلمي، الذي إرتبط في الأذهان. كل الأذهان، بالرخاء، والتطوّر، والإنتعاش الإقتصادي المرتقب..

ثم جاء (ألبرت أينشتاين)، في عام 1905م، لينشر نظريته عن النسبية الخاصة، التي أدهشت العلماء بعض الوقت، ثم لم تلبث أن فجّرت فيهم، وفي العامة من بعدهم، حالة من الشغف والإنبهار، التي ضاعفت من شعور البشر بالأمل، ومن طموحاتهم الهائلة في المستقبل..

وعلى الرغم من إندلاع الحرب العالمية الأولى، لم يفقد الإنسان أبداً أمله في المستقبل، وإنما عاش سنوات الحرب يحلم بالسلام، وبما يمكن أن يجلبه من إستقرار وإسترخاء..

وإنتهت الحرب، وعاد السلام، وتصوَّر الكل أن حلم الرقي والحضارة سيتواصل، وأن سنوات الدمار والخراب قد ولّت وإنتهت، وأن المستقبل سيحمل حتماً الكثير من الأمل، على الرغم من الأزمات الإقتصادية، والمنغصات التجارية، والمشكلات الإجتماعية، و..

وإندلعت الحرب العالمية الثانية..

إندلعت على نحو يختلف تمام الإختلاف، عن الحرب الأولى..

ففي هذه المرة، كانت المصانع قد أخرجت أسلحة رهيبة، ذات قدرات تدميرية عالية، وطوَّرت أسلحة قديمة، بحيث صارت أكثر عنفاً وقسوة، وقدرة على نشر الخراب والدمار..

وفي الحرب العالمية الثانية، ساد شعور مختلف تماماً..

شعور بأن الثورة الصناعية، التي كانت تحمل الأمل في مستقبل أفضل، هي نفسها التي حملت الخراب والدمار والعنف..

وهنا بدأ الخوف..

بدأ، وراح يتصاعد، ويتصاعد، ويتصاعد، حتى بلغ ذروته، في السادس من أغسطس، عام 1945م، عندما أسقطت (أمريكا) قنبلتها الذرية الأولى، على مدينة (هيروشيما) اليابانية..

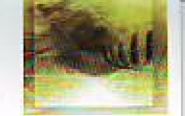
إنفجار هائل رهيب، أشبه بفطر عش الغراب العملاق، مع نار، ودمار، وخراب، ودماء، ورعب لم يشهد العالم لها مثيل، منذ بدء الخليقة، ومنذ مولد الحضارة، التي نعرفها الآن..

ومنذ ذلك الحين، تلاشى الحلم..

وربما إلى الأبد..

لم يعد المستقبل يحمل الأمل والطموح واللهفة، بل صار مرادفاً للخوف والرعب،

والخراب والدمار..
الكل بات يخشى حرباً نووية جديدة، وخراباً مفاجئاً، مثل ذلك الذي محا مدينتي (هيروشيما) و(ناجازاكي) من الوجود..
ولقد تضاعف الخوف والرعب ألف مرة، عندما حصل السوفيت على سر القنبلة النووية، في ذروة حربهم الباردة مع الغرب، وأصبح على ذلك الغرب أن يحيا الفزع نفسه، الذي عاش فيه الآخرون طويلاً..
وبدأ سر القنبلة النووية ينتشر، وينتشر، وأدرك الكل، بعد ثلاثة عقود من الزمن، أن إستخدامها عسكرياً أشبه بالإنتحار، وأن أحداً لن يحاول اللجوء إليها أبداً، إلا كوسيلة للردع النووي فحسب..
ومع مولد التسعينات، وسقوط الإتحاد السوفيتي، عاد الأمل يراود الكل في المستقبل، وعاد الحلم يطل في العقود والأذهان، ويداعب الطموحات والآمال..
وبدأ العلم يتطوَّر بعجلة تصاعدية مدهشة، حتى أننا أصبحنا نقرأ عن كشوف جديدة ومدهشة كل يوم، ولعل أهمها إبتكار أجهزة الكمبيوتر المنزلية، وشبكات الكمبيوتر الصناعية، وشبكة الإتصالات والإنترنت، التي إنضمت إلى شبكات الأقمار الصناعية، لتجعل من العالم قرية صغيرة، لا يمكن أن يحدث أمر ما في طرفها، دون أن يعلم به الكل، في كل الأطراف، وفي القلب أيضاً..
والبعض يقول : إن هذا التطور السريع والمدهش، قد أفقد الناس قدرتها على الإندهاش والإنبهار، وأنهم أصبحوا يتوقعون إختراع أي شيء، حتى تلك الأشياء، التي كانت قاصرة فيما مضى، على روايات الخيال العلمي وحدها..
بل إن ما يحيط بنا الآن، يبدو بالفعل أشبه بتلك الصورة، التي كنا نراها في أفلام الخيال العلمي، في الستينات والسبعينات، وربما في الثمانينات أيضاً، عندما كنا نتصوَّر أن القرن الحادي والعشرين لن يأتي، إلا وهو يحمل ذروة التقدُّم والتطوّر، والرخاء..
والسلام أيضاً..
ولكن القرن الحادي والعشرين أتى، وهو يحمل تطورات علمية شبه خرافية، تكاد تنافس الخيال، ولكنه لم يحمل لنا أي رخاء، أو حتى سلام.. ولو تجاهلنا ما حدث سياسياً وعسكرياً، فسنجد أن القرن الحادي والعشرين قد حقق بالفعل تلك الأحلام، التي كانت تراود أبناء القرن العشرين، والذين ولدوا في بداياته، أو بعد نصفه الأوَّل بالتحديد..
فوسائل الإنتقال أصبحت أقوى، وأسرع، وأكثر متعة وفخامة، وأصبحت السيارة الشخصية تحوي من المعدات الرقمية، أو الشاشات الإلكترونية، ما لم تكن تحظى به طائرات القرن العشرين، أو حتى تحلم به..
ووسائل الحفظ والتخزين بلغت مبلغاً مدهشاً، لم يتخيَّله حتى أبناء السنوات العشرين الأخيرة، من القرن السابق..
أما وسائل الإتصال، فقد فاقت حتى أحلام الماضي القريب جداً..



تقنية الإستنساخ وحدها، وكشف خريطة الجينوم البشري، حققت حلم العلماء الألمان، في أواخر النصف الأوَّل من القرن العشرين، عندما فكروا في إستنساخ الفوهلر (أدولف هتلر)، وحفظ بعض النسخ منه للمستقبل (ومن حسن حظ العالم، أنه لم تكن لديهم أيامها التقنية الكافية لتحقيق هذا)..

وهناك تطور مدهش آخر، في آلات الصناعة، وسبل التقييم، ووسائل الإنتاج، و...، و...، و...

ولكن ماذا عن المستقبل؟!..

ما الذي يمكن أن يحمله لنا، من تطورات جديدة أو مدهشة؟!..

ما الذي يمكن أن نحلم به بشأنه؟!..

الواقع أن العلم لا يتوقَّف قط، والتطوّر لا يبلغ أبداً خط النهاية، مهما تصوَّر الإنسان، ومهما خُيِّل إليه..

ففي كل عصر، وكل أوان وزمان، تصوَّر الإنسان أنه قد بلغ ذروة العلم والتقدُّم، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان..

فعند إكتشاف الكهرباء مثلاً، إنبهر بها العالم كله، وقال أحد العلماء حينذاك: «لست أدري أي أمر يمكن أن يبلغه العلم، بعد هذا الإكتشاف الرهيب»..

وفجَّرت الكهرباء أيامها أحلام العلماء، ورجال الصناعة، وقريحة كتاب الخيال العلمي أيضاً، الذي تصوَّروا أن هذه الطاقة الجديدة قادرة على صنع المستحيلات..

بل إن بعضهم قد تمادى، إلى حد كتابة بعض الروايات الخيالية، حول قدرة الكهرباء على إحياء الموتى!!..

ثم جاءت الطاقة النووية..

وعاد الكل ينبهر، ويحلم، ويتخيَّل، ويتصوَّر..

ويخاف..

والآن، وبعد أن أحاط بنا العلم من كل صوب، وسيطر على كل لمحة من حياتنا، منذ نفتح أعيننا في الصباح، على رنين المنبه الرقمي، وحتى نغلقهما مرة أخرى في المساء، وقد أرهقت متابعة الفضائيات عيوننا، يتصوَّر البعض نفس التصوّر القديم، بأننا قد بلغنا الذروة، وأنه لم يعد في الإمكان أبدع مما كان، و...

ولكن المستقبل ما زال أمامنا، وما زال يحمل لنا الكثير، والكثير...

والكثير أيضاً..

وحتى لا يتهمنا أحد بالإغراق في التفاؤل والخيال، فسنتحدَّث عن المستقبل من وجهة نظر علمية بحتة.. ومن خلال أبحاث علمية، ومصادر علمية، ومراجع علمية أيضاً.. وعلى الرغم من هذا، فسيحمل لنا الحديث عن المستقبل مفاجآت.. مفاجآت عديدة.. ومثيرة، و...

ومذهلة..

× × ×

ملابسنا كلها ألوان.. ألوان زاهية، أو هادئة، متألقة، أو خافتة، متداخلة أو منفردة..

ولكن المشكلة أن كل هذه الألوان عبارة عن أصباغ، تختلف في تركيباتها، وأنواعها، ودرجات وضوحها، وثباتها، ولكنها كلها مواد كيماوية، تلامس أجسادنا طوال الوقت، شئنا أم أبينا وتتعامل مع جلودنا على نحو مباشر، أو عبر حواجز رقيقة.. وقديماً في العصور البدائية، كان البشر يرتدون ثياباً من جلود الحيوانات.. ثيابا طبيعية..

من مواد طبيعية..

ولهذا لم يكن الإنسان الأول يصاب بإلتهاب الجلد..

أو أمراضه..

أو حساسياته..

لم يكن يعاني من إلتهاب الجيوب الأنفية، التي تشم ما لا ندركه من روائح الأصباغ والكيماويات..

ولم يكن يعالج من حساسيات الصدر التي إنتشرت في العصور الحديثة، على نحو لم يسبق له مثير..

بل ولم يصب بها قط..

وهذا ما أدركه العلماء..

وما إنتبهوا إليه مؤخراً..

وما أصبح بالنسبة لهم ولنا مشكلة صحية كبرى..

ففي كل شيء في حياتنا تقريباً إنتشرت الألوان الصناعية..

في ملابسنا..

وطعامنا..

وشرابنا..

وحتى في حلوى أطفالنا..

الخطورة تتضاعف وتتزايد، حتى أن العلماء قد بدءوا منذ مطلع ثمانينيات القرن العشرين حرباً طاحنة على الألوان..

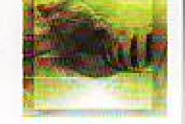
كل الألوان الصناعية..

في البداية، كانت حربهم ضد الألوان الصناعية، في الحلوى والمشروبات..

وعبر حملة دعائية كبرى، نجحت الجهات الصحية في تحجيم إستخدام الألوان الصناعية في الأطعمة، وتم إستبدالها كلها بمجموعة من الألوان الطبيعية، المستخلصة من مصادر حيوية، مثل الفواكه، والخضراوات، والأشجار، والألياف وكان هذا إنتصاراً صحياً..

ولكن بقيت ألوان وأصباغ الملابس..

فالألوان الطبيعية، التي تمنح الحلوى والمشروبات زهاءها، لا تصلح لصباغة الملابس، ولا للحفاظ على ثباتها، إذ أن معظمها إما يذوب في الماء، أو يفسد



بسرعة، مع الإستخدام المتكرر..
لذا فقد راح العلماء يبحثون عن وسيلة أخرى لصباغة الملابس..
حاولوا أولاً إستنباط مواد صبغية ثابتة، من مستخلصات طبيعية..
وربما حققوا نجاحات محدودة، في هذا الشأن..
ولكنها لم تكن كافية..
أبداً..
ثم فجأة، ومع تطور هندسة الوراثة، توصل أحد العلماء إلى نتيجة مدهشة، لم تخطر ببال أحد منذ البداية..
لقد بدأ سلسلة من الأبحاث والتجارب، منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين، حول زراعة القطن، وبذرة القطن..
في البداية، كان عمله كله يختصر في تزويد القطن بصفات وراثية جديدة، تتيح له مقاومة الدودة، ودفعها إلى الإنصراف عنه، إلى نبات آخر..
ثم ظهرت في القطن بعض بقع ملونة..
وتحول مسار الأبحاث كلها..
وبعد عشر سنوات في العمل الشاق، ومئات التجارب والإختبارات والنتائج، بدأ الأمر يؤتي ثماره..
بدأ القطن ينمو في الحقوق ملوناً..
نعم.. لم تعد هناك حاجة إلى أصباغ كيميائية، أو ألوان صناعية..
فالقطن سينمو بالألوان التي نريدها..
ووفقاً لمتغيرات الموضة..
ففي هذا العام سيزرع الفلاحون قطناً أزرق..
وفي العام التالي برتقالي..
وفيما يليه بنفسجي..
وستصبح حقول القطن نفسها متعة للناظرين، مع إختلاف الألوان من حقل إلى آخر..
وكل هذا بالعلم..
وبالعلم وحده..
وقبل أن يدهشك هذا، دعني أحدثك عن سيارة المستقبل، التي ستقودها دون وقود أو كهرباء، وإنما بطاقة مستمدة منك أنت..
من مخك ...
وحده..

× × ×

هل سألت نفسك يوماً كم تبلغ طاقة مخك بالضبط؟!.. وكم فولت يمكن أن

يخرج منه؟!
قديماً كان العلماء يدرسون المخ، بإعتباره جهازاً عصبياً مركزياً، يتلقى الإشارة من كل أجزاء الجسم، ويبرمجها، وينسقها، ثم يبث إستجاباته لها مرة أخرى، إلى كل أجزاء الجسم أيضاً، عبر النخاع الشوكي وما يتصل به من أعصاب..
وهذا تعريف سليم..
فالمخ ليس مجرد سنترال مركزي مرتبط بخيوط حسية، توصله بأجزاء الجسم..
إنه أكبر من هذا بكثير..
فمع قيامه بعمله الذي لا يتوقف ثانية، ولا حتى «فمتو» ثانية، منذ تكون، وحتى بعد الوفاة الرسمية والعلمية بقليل، يستهلك المخ طاقة كبيرة..
طاقة يستمدها من شبكة الشرايين، والأوردة، والأوعية الدموية الدقيقة، التي تنتشر فيه، والتي تساعده على القيام بعمله بالغ الحساسية والدقة..
ولأنه يستمد طاقة ما، ولأن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، فمن الضروري أن يبث المخ تلك الطاقة مرة أخرى على هيئة موجات كهرومغناطيسية محدودة..
تلك الموجات التي يمكننا تسجيلها، عبر رسام المخ الكهربي لترسم لنا تلك المنحنيات العلمية الطبية، التي يستعين بها الأطباء، لتحديد حالة المخ وأمراضه، ومشكلاته المزمنة والمؤقتة..
وتلك الموجات أيضاً هي سبب النظرية التي تتحدث عن تأثير أجهزة الهواتف المحمولة في المخ، فهي تفترض أن الموجات الكهرومغناطيسية التي تبثها تلك الأجهزة، تؤدي إلى شوشرة موجات المخ، والتعارض مع خلاياه، مما يؤدي إلى خلل لم يتم تحديده طبياً بعد..
والواقع أن هذه النقطة محيرة للغاية، مع تعارض آراء العلماء حولها، ففي الوقت الذي يؤكد فيه الأستاذ الدكتور «أحمد صبري» رئيس قسم جراحات المخ والأعصاب في مستشفى الملك فهد أن هذا لم يثبت بعد علمياً، نجد أن الأستاذ الدكتور «محمد علي أحمد» رئيس قسم الفيزياء التجريبية بكلية علوم القاهرة والحاصل على أعلى درجة علمية في العلوم، يؤكد ويصر على حدوث هذا الضرر وإن طال الزمن..
وبغض النظر عن حدوث الضرر من عدمه، فقد تعامل العلماء مع الطاقة الكهرومغناطيسية الصادرة من المخ، بإعتبارها طاقة يمكن إستغلالها بشيء من الحكمة..
وشيء من العلم أيضاً..
في البداية، إستخدموا طاقة المخ لإضاءة مصباح صغير للغاية..
وأضاء المصباح..
نجح العلماء في تحويل الطاقة الكهرومغناطيسية إلى طاقة ضوئية..
وسال لعاب العلماء..

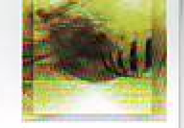


وأرادوا المزيد..
والمزيد..
والمزيد..
ومع تطور الإليكترونيات، وإبتكار مضخات الإشارات، داعبت العلماء فكرة إستغلال طاقة المخ في أمور أكثر أهمية..
وأكثر حيوية..
وأصبحت القضية كلها هي تطوير مضخات الإشارة، بحيث تلتقط إشارة كهرومغناطيسية صغيرة، وتحولها إلى طاقة كبيرة كفيلة بتحريك لعبة أطفال إليكترونية..
ولقد تحقق لهم هذا بالفعل..
ففي ملجأ للأطفال المعاقين في ألمانيا، إستخدم العلماء أجهزة خاصة يرتديها الأطفال كالخوذات على رءوسهم، لتعمل على تكثيف الطاقة الكهرومغناطيسية المنبعثة من أمخاخهم، وإستخدامها كطاقة محركة للألعاب التي يلهون بها..
ونجحت التجربة تماماً..
ولكن المشكلة أن العلماء لا يكتفون، ولا يتوقفون عند أحلامهم قط، وإنما ينتقلون من حلم إلى آخر، ومن طموح إلى طموح..
لذا فقد كان نجاحهم في تشغيل لعب الأطفال مجرد بداية لحلم جديد..
وكبير..
وفي «ديترويت» في الولايات المتحدة الأمريكية، تمت تجربة أول سيارة تسير بالطاقة الكهرومغناطيسية للمخ وحده..
كل ما عليك هو أن تركبها، وتضع على رأسك خوذة، تتصل بلوحة القيادة، وتفكر..
نعم تفكر في وجهتك، والخوذة تأخذ الطاقة الكهرومغناطيسية التي تبعثها أفكارك، وتضخها أو تستخدمها لتسير السيارة بسرعة خمسين كيلو متر في الساعة..
دون وقود..
أو بطارية..
فقط بالمخ..

× × ×

في (تركيا) عام 1400، تم كشف حجر طبيعي، لديه القدرة على جذب بعض أنواع المعادن إليه، على نحو سلب لب مكتشفيه، ودفعهم إلى تسميته بإسم المغناطيس، ولخمسة قرون تالية، تم التعامل مع المغناطيسية، بإعتبارها ظاهرة طبيعية، يتميَّز بها حجر طبيعي، حتى تم التوصُّل إلى الكهرباء، وإلى قدرة أي

ملف كهربي منتظم، على تحويل الحديد الطبيعي إلى مغناطيس..
وهنا، إتخذت المغناطيسية مساراً آخر، وراحت ترتبط بأمور، لم تخطر قط على بال ذلك الذي كشف الحجر المغناطيسي الأوَّل..
وبسرعة، كما يحدث دوماً، في تيار العلم، راح التعامل مع المغناطيسية يتطوَّر، ويتطوَّر، ويتطوَّر..
ودون أية مبررات علمية، إرتبط إسمها بأمور لا تمت لها بصلة، مثل التنويم المغناطيسي، والمغناطيسية الأرضية، وغيرها..
ثم كان الكشف الأعظم..
فكل شيء - علمياً - له طبيعة مغناطيسية، أو كهربية، وبالذات الجسم البشري، الذي يحيط به طوال الوقت، مجال كهرومغناطيسي، لا يمكن رصده فحسب، ولكن رؤيته أيضاً، بوسائل وأجهزة وتقنية حديثة ومتطوّرة..
ومع كشف المجال المغناطيسى للجسم البشري، بدأ العلماء دراسة جديدة تماماً، منذ أكثر من ثلاثين عاماً..
دراسة التغيرات المغناطيسية للمجال الحيوي البشري، مع الإنفعالات والمشاعر المختلفة..
وبدا الأمر مثيراً..
وإلى أقصى حد..
فكل لمحة يواجهها العقل البشري، تؤثّر في مجاله المغناطيسى الحيوي..
كل إنفعال..
كل غضب..
أو فرح..
أو ثورة..
وحتى مع الموت، يتلاشى المجال الحيوي تدريجياً، بحيث يمكن بوساطته تحديد زمن الوفاة، تقريباً..
ومع تطوّر الدراسات، والنتائج، نشأ علم جديد..
علم المغناطيسية.. الحيوية..
ولأن العسكريين ورجال الأمن، في الدول المتقدّمة، هم أوّل من يفيد من التطوّر العلمي في المعتاد، فقد تحوّلت المغناطيسية الحيوية بسرعة، إلى أحد أهم وسائل كشف الكذب..
فالجهاز القديم، المعروف بإسم (جهاز كشف الكذب)، أو (البوليجراف) أصبح موضة قديمة، ووسيلة يمكن التعامل معها..
وخداعها أيضاً..
لذا ظهر جهاز كشف الكذب الحيوي..
ثم جهاز فحص الإنفعالات البشرية..
والرصد الحراري..



وتطوّرت المجالات المغناطيسية أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
ومع بدايات التسعينات، طرح لأوّل مرة، ذلك السؤال، الذي قلب علم المغناطيسية الحيوية رأساً على عقب..
فلو أننا نستطيع رصد الإنفعالات البشرية، عبر المجال الكهرومغناطيسي الحيوي..
فهل يمكننا التأثير فيه أيضاً؟!..
العلماء، الذين طرحوا السؤال، توصلوا عبر مجموعة هائلة من التجارب، إلى حقائق جديدة تماماً..
فكل ما حولنا، يؤثر في مجالاتنا الحيوية..
الثلاجات..
الغسالات الكهربائية..
أجهزة التليفزيون..
والراديو..
ومصابيح النيون..
وحتى الجاذبية الأرضية..
والمغناطيسية الأرضية أيضاً..
كل ما حولنا يربك مجالاتنا المغناطيسية الحيوية..
ويفسدها..
ويغيِّر طبيعة عملها..
وتأثيرها..
وبالذات إتجاه المغناطيسية الأرضية، الذي تتفاعل معه البوصلة العادية، لتحديد الشمال المغناطيسي..
فلو أن الجسم البشري ينام ليلاً، ورأسه في إتجاه الشمال المغناطيسي، تتحسَّن وظائفه، ويهدأ نومه، وتطيب أحلامه، و...
وكان لابد من الإنتقال إلى النقطة التالية..
نقطة العلاج..
وأيضاً بالمغناطيس.
ولهذا حديث آخر..

× × ×

كل جسد بشري له مجال مغناطيسي حيوي، يتميَّز به عن أي جسد آخر..
وذلك المجال يتغيَّر كثيراً، في حالات المرض..

رصده أثبت أنه يضطرب، ويتغيَّر، ويتبدَّل، كلما عانى الجسد من أية إضطرابات، في مساره الطبيعي..
عمقه..
وألوانه..
وشدته..
كل عوامله تختلف، بإختلاف نوع المرض، وطبيعته، وشدته..
ومنذ منتصف التسعينات، غرق العلماء في دراسة كل ما يتعلَّق بإرتباط المجال المغناطيسي الحيوي بالأمراض..
ثم بدأوا في التعامل مع الموقف..
عبر العلم..
ففي الفلزات، يمكن ضبط المجال المغناطيسي المضطرب، بواسطة مجال مغناطيس آخر، يتم إستحداثه بدقة؛ لتحقيق التوازن المنشود..
لماذا لا يحدث هذا مع الجسد البشري أيضاً..
ومنذ الوهلة الأولى، أثبتت التجارب إمكانية حدوث هذا..
إمكانية إضافة مجال مغناطيسي ما، إلى الجسم البشري، لضبط مجاله الحيوي الأساسي..
ولعلاج إضطراباته..
وأمراضه أيضاً..
وجاءت النتائج مدهشة بكل المقاييس..
فالمجال الحيوي الإضافي، ضبط بالفعل المجال الحيوي الرئيسي، وساعد في معادلة وهزيمة بعض الأمراض، المؤدية إلى، أو الناشئة بسبب إضطرابه..
وعلى رأس تلك الأمراض، جاءت الإضطرابات النفسية..
والذهنية..
والعصبية..
كل حالات التوتر الإنفعالي، والإكتئاب الذهان، تم تحسينها، أو حتى علاجها تماماً، عبر تعديل المجال المغناطيسي الحيوي المضطرب..
وكذلك إضطرابات المعدة..
والقولون العصبي..
وعدم إنتظام ضربات القلب..
والآلام الروماتيزمية..
وإضطرابات النوم..
والعجز الجنسي في بعض الأحيان..
وعلى الرغم مما ستجده، من عشرات الدراسات العلمية الجادة، حول العلاج بالمغناطيسية، إلا أن التعامل مع الأمر تجارياً، أصبح مثاراً للضحك والسخرية، على كل المستويات..



فمن المستحيل علمياً، أن تنجح قطعة مغناطيسية، في علاج كل أمراض أو أوجاع أي شخص، إذ أن الأمر دقيق إلى درجة لا يصلح معها العبث؛ فلابد أولاً من دراسة المجال المغناطيسي الحيوي للشخص، وتحديد نوع وطبيعة إضطرابه بالضبط..

وبعدها تأتي مرحلة تحديد العلاج..

فالمجال المغناطيسي الإضافي، لابد وأن يتوافق تماماً مع إحتياجات المجال المغناطيسي لكل شخص، بصورة خاصة جداً..

أو بمعنى أدق، لابد من تفصيل مجال كهرومغناطيسي إضافي، لكل حالة مرضية، بحيث يتناسب معها دون سواها..

هذا ما قاله العلم..

وما إستخدمه..

وما أثبته..

أما العشوائية، أو إستخدام قطعة مغناطيسية غير مدروسة، فهو لن يؤدي إلى ضعف إحتمالات الشفاء فحسب، بل وربما يكون سبباً في منشأ إضطرابات جسدية جديدة أيضاً..

أو أعراض جانبية، أسوأ من المرض الأصلي نفسه..

وهنا سنحتاج إلى علاج جديد..

ومغناطيسي جديد..

ودراسات جديدة..

والعلاج بالمغناطيسية بدأ ينتشر بالفعل، في دول العالم المتقدّمة، حتى أن أوروبا تضم أول مستشفى متخصص بالكامل في العلاج بالمغناطيسية..

أما العلماء، فقد إنتقلوا - كالمعتاد - إلى المرحلة التالية..

إلى التوسُّع في إستخدام التأثيرات المغناطيسية أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وسيدهشك أنهم قد وضعوا أول تخطيط، لمدن المستقبل المغناطيسية، و..

ولننتقل إليها...

× × ×

عالم الغد كله يسير بالمغناطيس..

هذه المقولة ستجدها في مواضع شتى، على شبكة الإنترنت، وبالذات في المواقع العلمية..

فمع الكشوف المدهشة، التي توصَّل إليها العلماء، أمكنهم بناء عالم كامل، يعتمد مباشرة على المغناطيسية..

عالم تسير فيه القطارات بسرعة الرصاصة، فوق قضيب معلق واحد، يحمل شحنة مغناطيسية، تتساوى مع الشحنة التي يحملها تجويف ملائم، أسفل القطار نفسه..

فلأن الأقطاب المختلفة تتجاذب، والمتشابهة تتنافر، فالقضيب سيتنافر بشدة مع التجويف..

وينطلق القطار بطاقة التنافر المغناطيسية..

وهذا النوع من القطارات موجود حالياً في (اليابان) بالفعل، وكذلك في عالم (ديزني) في (فلوريدا)، بالولايات المتحدة الأمريكية..

ولكن الجديد هو أن السيارات أيضاً ستخضع للمنطق نفسه..

ففي عالم المستقبل، ستجد في الشوارع كلها ألواحاً مغناطيسية، أشبه بقضبان قطارات منفردة، أو بشرائح قوية عريضة، وستنطلق فوقها السيارات بسرعات هائلة، وفقاً للنظرية نفسها..

وعلى الرغم من تلك السرعة الفائقة، سينخفض معدَّل الحوادث إلى حد مدهش..

وهذا أيضاً بسبب المغناطيسية..

فكل سيارة، من سيارات المستقبل، ستكون لها طرقها، أو ستحمل رقم الطريق، الذي تسير عليه، أو تحدِّد مسارها مسبقاً، ليقوم كمبيوتر دقيق بتوجيهها، وتسييرها، وضمان عدم تعارض مسارها، مع مسار أية سيارة أخرى..

أما عند إشارات المرور، وتقاطعات الطرق، فستجد أية سيارة مستقبلية ستتحوَّل تدريجياً، من التنافر إلى التجاذب..

أما طرق المستقبل، فلن تتكوَّن من الأسفلت التقليدي الذي نعرفه، وإنما سيتم صنعها من مادة خاصة، لها قدرة على تحمل تلك السرعات الكبيرة، وصالحة أيضاً لزرع تلك الشرائح المغناطيسية الطولية، التي تحرِّك السيارات، و..

وكل ما سبق يبدو لكم بالطبع مجرد فكرة مجنونة، أو خيال علمي بحت..

ولكن الواقع أنه ليس هذا أو ذاك..

فمدينة المستقبل أصبحت حقيقة علمية، من خلال منطقة تجريبية، أنشأتها وكالة الطاقة الأمريكية، في صحراء (أريزونا)..

هناك ستجد كل ما تحدثنا عنه..

وأكثر قليلاً..

فالطاقة الرئيسية، التي تمد المدينة، مولَّدة من سواقي مغناطيسية كبيرة، تدور أيضاً بنظرية التنافر المغناطيسي..

أنوار الشوارع..

والمنازل..

والمتاجر..

وحتى محطات تنقية المياه، كلها بالمغناطيس..

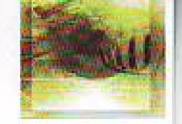


بتكلفة أقل..
وطاقة أكبر..
والعلماء هناك - ككل العلماء - شرهون، طماعون، لا يكتفون قط بما توصَّلوا إليه، لذا فهم يسعون إلى المزيد..
والمزيد..
والمزيد..
ولأن قدرات المغناطيس محدودة في النهاية، فقد بدأوا في التفكير في المواد التي تولد الطاقة المغناطيسية..
وفي الصفات الفيزيائية لها..
وفي قفزة علمية مدهشة، إتخذوا أخطر قرار، في تاريخ العلم..
السعي لتغيير خواص المواد..
نفس الفكرة، التي حلم بها الكيميائيين قديماً، بتحويل التراب إلى ذهب..
ولكن هذه المرة، من أجل المغناطيسية..
ومن أجل العلم..
وفي أفران خاصة، تبلغ درجات حرارتها ما يزيد عن خمسة آلاف درجة مئوية، وضعوا تلك المواد لساعات..
وأيام..
وأسابيع..
وجاءت النتائج مذهلة..

× × ×

منذ حداثتنا، درسنا العناصر الفلزية والكيمائية، وحفظنا عن ظهر قلب، الخواص التي تميز كل عنصر عن الآخر..
نحن فعلنا..
وقبلنا وبعدنا فعل العلماء..
والباحثون..
والمبتكرون..
وبينما إكتفينا نحن بالحفظ، تجاوزوا هم هذا، إلى دراسة المزيد من خواص المواد، ومحاولة العثور على مميزات جديدة بها..
ولعقود من الزمان، راحوا يدرسون..
ويدرسون..
ويدرسون..
وفي المكتبات، ظهرت عشرات النظريات، وآلاف الكتب، التي فندت خواص المواد، حتى تصوَّرنا أننا قد بلغنا ذروة العلم..

ولكن العلماء - بطبيعتهم - لا يعترفون بالذروة، في أي فرع من فروع العلم..
حتى المسلمات، يرون أنها ما زالت تحتمل المزيد..
والمزيد..
والمزيد..
لذا، فقد أخذوا تلك المواد، ذات الخواص المعروفة، ووضعوها في أفران خاصة جداً، وسط درجة حرارة تبلغ خمسة آلاف درجة مئوية، على نحو متصل لساعات..
وأيام..
وأسابيع..
وفي البداية ذابت تلك المواد..
وذابت..
وذابت..
ثم، ومع تواصل الحرارة، أخذت تتكثف..
وتتكثف..
وتتكثف..
ومع تكثيفها، تغيَّرت خواصها الفيزيائية، وتحوَّلت إلى عناصر مختلفة..
عناصر يمكن للعلم أن يقفز بوساطتها قفزات هائلة..
فمع المواد المعالجة حرارياً، أمكن خفض سرعة التوصيل عبرها إلى درجة مقبولة، ساعدت على إنتاج المعالجات الكمبيوترية المتفوقة..
ربما لم تبلغ نسبة الخفض العشرين في المائة، حتى هذه اللحظة، إلا أن هذا بالنسبة للعلماء مجرد بداية..
بداية تعني أن الإنخفاض سيزيد مع الوقت..
ومع تطوّر العلوم الأخرى..
والمواد الجديدة، وبالذات (الفرَّات)، أثبتت فاعلية مدهشة، في التعامل مع الأنسجة السرطانية، إذ أن تلك الأخيرة تتبخَّر تقريباً، عند حقنا بالأولى..
وهناك مواد جديدة، مضادة للمغنطة..
وأخرى معتادة لموجات الرادار..
وثالثة تضاعف من متانة ما تطلى به..
ورابعة تتغيَّر ألوانها، مع تغير إنفعالات الجسم البشري، تأثراً بمجاله الحيوي المغناطيسي..
وخامسة..
وسادسة..
وسابعة..
كل هذا قرأت عنه، وتابعته في الدوريات العلمية، وعبر شبكة الإنترنت، ومن خلال الكتب حديثة الإصدار..



ولكنه لا يقارن أبداً بما رأيته بعينيَّ..
ففي تجربة (مصرية) مدهشة، تم طلاء الهواء بالدوكو (وهو نوع من الطلاء)..
وهذه مقولة علمية حقيقية، وليست مجازية أو عبثية..
ففي طفرة مدهشة، وبوساطة التعرض الحراري الطويل، أمكن إنتاج مادة لها نفس كثافة الهواء..
ومن تلك المادة، تم صنع طلاء..
ولأن ذلك الطلاء له نفس كثافة الهواء، فهو يتعلَّق به، ولا يسقط عنه..
وهذا يعني أن المصريين قد دهنوا الهواء بالدوكو..
فعلياً..
ليس هذا فحسب، بل إنهم إستخدموا المواد نفسها، في إنتاج طلاء له تأثير مذهل..
للغاية..

× × ×

في الميثولوجيا النرويجية القديمة، توجد أسطورة عن فارس شجاع، بلغت جرأته حد مواجهة سيد العالم السفلي، وهو قزم بشع، يمتلك أسلحة رهيبة، مكنته من السيطرة على العالم أجمع..
ومن بين تلك الأسلحة، كان رداء الإخفاء..
ورداء الإخفاء هذا، كما تقول الأسطورة، هو رداء خاص، عندما يضعه أي مخلوق على جسده، يختفي تماماً عن الأبصار..
كان هذا أول ذكر لفكرة الإخفاء، في التاريخ المعروف، وأول مرة يرتبط فيها الإختفاء بالقوة، والقدرة على السيطرة على الآخرين..
بعدها جاءت الأساطير الإغريقية الأخيرة، لتروي لنا قصة (بيرسيوس)، ذلك الشاب نصف الإله، الذي واجه وحش (الميدوزا)، صاحب رأس الأفاعي، والذي يحوِّل كل من ينظر إليه إلى تمثال من الحجر، مسلحاً بعدد من الأسلحة، بينها خوذة الإخفاء..
ومن الأسطورة ووحيها، كتب (هـ.ج. ويلز) رائعته (الرجل الخفي)، التي كانت بداية لسلسلة من الأفلام، التي تتناول حلم الإنسان في الإختفاء، والقوة، وحماية

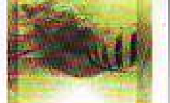
Invisible man
الرجل الخفي كما تخيلة هـ ج ويلز في روايته الشهيرة التي تحمل ذات الاسم

نفسه من مهاجميه وأعدائه..
وفي روايته، تحدَّث (ويلز) عن أحد العلماء، الذي إبتكر وسيلة مدهشة، لإلغاء معاملي الإنكسار والإنعكاس عن جسده تماماً، بحيث يتحوَّل إلى حالة الشفافية المطلقة، التي يستحيل معها رصده، أو تحديد موقعه، في حين يمكنه هو رؤية من حوله، والتعامل معه، مما يمنحه قوة خارقة بالنسبة لهم..
ولكن العلماء لا يكتفون بالأحلام، وإنما يعشقون السعي، لتحويلها إلى حقائق علمية وواقعية، مهما بدت خيالية وهمية..
ومن المؤكَّد أن رواية (ويلز) كانت وما زالت تحفة أدبية رائعة، تعبِّر عن خيال عبقري، بالنسبة للزمن الذي ظهرت فيه، حتى أن بعضهم يؤكِّد أنه لم يحظ كاتب من كتاب الخيال العلمي، على الرغم من كثرتهم في القرن العشرين، بخيال يفوق هذا..
ولكن العلماء إعترضوا بشدة على نظرية (ويلز)..
فمن وجهة نظرهم - العلمية طبعاً - سيكون الرجل الخفي، الذي ينشأ بهذا الأسلوب، شخصاً عاجزاً، بائساً، يحتاج إلى من يرشده، ويمد له يد العون والمساعدة، ولن يصبح أبداً شخصاً حارقاً، كما جاء في رواية (ويلز)..
هذا لأن وصول الجسد إلى درجة الصفر المطلق، بالنسبة لإنكسار أو إنعكاس الضوء، يعنى أن الضوء لن يجد وسيلة للسقوط على شبكية العين، مما يعنى أن رجل (ويلز) الخفى لن يتمكَّن من الرؤية أبداً، وأنه سيصبح مجرَّد رجل أعمى..
ولكن هذا الإعتراض لم يمنع التأثير، الذي تركته رواية (ويلز) في الأذهان..
ولأن فكرة الإخفاء ليست معجزة علمية، فقد درسها العلماء في جدية تامة، وتوصلوا، في منتصف الأربعينات، إلى فكرة مدهشة، ألا وهي إحاطة أى جسم بمجال كهرومغناطيسي، يؤدى إلى منع إنكسار الضوء أو إنعكاسه، مما يجعل الجسم الذي أحيط به خفياً، بالنسبة للعين البشرية..
وفي (فيلادلفيا)، بالولايات المتحدة الأمريكية، جرت أول تجربة إخفاء عام 1943م..
ففي بدايات أربعينات القرن العشرين، قام بعض العلماء بمحاولة عملية، للتوصُّل إلى حالة الإختفاء التام، وإستخدموا في هذا الموجات الكهرومغناطيسية القوية، التي أحاطوا بها مدمرة حربية، لإخفائها تماماً عن عيون العدو، أثناء المواقع البحرية..
ولكن التجربة باءت بفشل ذريع..
ليس لأن المدمرة لم تختف، ولكن لأن البشر على متنها، لم يمكنهم إحتمال هذا المجال الكهرومغناطيسي الرهيب، الذي أحاط بهم..
لقد أصابهم رعب بلا حدود، بلغ ببعضهم درجة الجنون، وبلغ بالبعض الآخر مرحلة الإنهيار، وبالبعض الثالث مرحلة الأمراض النفسية العنيفة..
بعضهم شاهد مخلوقات عجيبة، والبعض الآخر التقى بأقاربه الراحلين، والبعض

الثالث شاهد عوالم أخرى مجهولة..
هذا ما قاله الشهود، عن تلك التجربة الرهيبة، التي أطلق عليها إسم تجربة (فيلادلفيا)..
ومع فشل التجربة، توقفت مؤقتاً محاولات العلماء، لإخفاء الأسلحة الحربية..
توقَّفت حتى بدايات السبعينات، عندما قرَّر أحد العلماء خوض التجربة من جديد، مع تفادي كل أخطاء تجربة الأربعينات الفاشلة..
وفي أبحاثه الجديدة، أدرك الرجل أن المخلوقات الحية لا يمكنها أن تحتمل المجالات الكهرومغناطيسية القوية، وكذلك الآلات الإلكترونية، أو التي تدار بالكهرباء، إذ أن المجال المحيط بها يفسدها تماماً، ويوقف عملها، أو يصيبها بالخلل..
وهذا ينطبق على كل ما يستخدم المغناطيسيات أيضاً..
وهنا، بدأ الرجل تجاربه، حول أجسام صلبة وجامدة فحسب..
ونجحت التجارب تماماً..
كل الأجسام الجامدة، أمكن إخفاؤها تماماً، عن طريق إحاطتها بمجال كهرومغناطيسي قوي..
نجحت التجارب، ولكنها لم تحظ بالإهتمام، على الرغم من هذا؛ لأن ما إرتبط بها، من محاذير آدمية وتكنولوجية، جعلها غير صالحة كسلاح حربي، بأي حال من الأحوال..
فقط أصبحت صالحة كمعامل إبهار، أو كوسيلة لجذب إنتباه العامة، وهذا ما حدث بالفعل، عندما إستخدمها الساحر العالمي (دافيد كوبر فيلد)، لإخفاء بعض الأجسام، أمام عيون المشاهدين، حتى أنه قد قام بإخفاء تمثال الحرية نفسه، على نحو إتسعت له عيون الكل، في معظم أنحاء العالم، دون أن يدرك مخلوق واحد أن ما يراه أمامه هو علم..
مجرَّد علم محض..
وهكذا نجحت فكرة الإخفاء، ولكنها فشلت في تحقيق أية فائدة علمية..
كل ما أفادت به، هو ألعاب الحواة والسحرة، الذين إعتادوا إخفاء أشياء كبيرة، بإستخدام المجالات الكهرومغناطيسية، وإبهار المشاهدين العاديين، غير

David copperfild
الساحر الشهير دافيد كوبر فيلد أشهر ساحر في القرن العشرين على الإطلاق و الذي تظل بعض خدعه الغازاً غير قابلة للتفسير حتى يومنا هذا .

العلميين..
وظل العلماء، طوال نصف قرن من الزمان، يبحثون عن وسيلة أكثر عملية للإخفاء..
وعبر وسائل معقدة، منها المرايات العاكسة من كل الإتجاهات، والأزياء المزوَّدة بكاميرات، تنقل أمامها ما يدور خلفها، والعكس بالعكس، أمكنهم تزييف حالة إختفاء وهمية.. وباستثناء (دافيد كوبر فيلد)، ومن تبعه من السحرة المحترفين، والهواة أيضاً، لم يحاول أحد الإنتفاع بنظرية الموجات الكهرومغناطيسية هذه، والتي خف الإهتمام بها، وبفكرة الإخفاء نفسها، حتى أواخر تسعينات القرن العشرين، عندما عاد الأمر إلى الأذهان فجأة..
وبمنتهى القوة..
ثم تطوَّرت الأساليب..
والعلوم..
والأفكار..
ومع فكرة تطويع المواد، وتغيير كثافتها، وسماتها الفيزيائية، من خلال تعريضها لحرارة متصلة، تبلغ ما يزيد عن خمسة آلاف درجة مئوية، ولفترات قد تبلغ عدة شهور، عاد الأمل يبرز من جديد..
وفي هذه المرة على يد عالم مصري، وأستاذ للفيزياء، في واحدة من كليات العلوم المصرية..
ولأن هذا العالم المصري متخصص في الجوامد الفيزيائية، والفيزياء التجريبية، والمواد ذات التأثيرات المغناطيسية، فقد عمل على تغيير الخواص الطبيعية لبعض المواد، عن طريق التسخين لدرجات حرارة عالية جداً، ولفترات طويلة نسبياً، بحيث حصل على مواد ذات خواص جديدة تماماً، وقدرات مغناطيسية مختلفة..
ومن هذه المواد، وبالإشتراك مع أحد أساتذة كلية الفنون التطبيقية، صنع الإثنان طلاءً خاصاً، لا يمتص أية درجة من درجات الضوء أبداً..
وبدون الدخول في تفاصيل علمية، يكفي أن نعرف أن هذا الطلاء الجديد، الذي يشبه أي طلاء عادي، يمتلك قدرة مذهلة على إخفاء أي جسم، يتم طلاؤه به..
إخفاؤه تماماً..
يكفي إذن أن نحضر قطعة قماش كبيرة، ونرشها بذلك الطلاء، ثم يرتديها جندي ما، ليصبح خفياً تماماً..
وقبل أن تندهشوا أو تستنكروا، ينبغي أن تعلموا أن هذا قد حدث بالفعل، وأن النتائج تفوق كل تصوُّر..
وهذا يعني أن أصبح بإستطاعتنا أن نمتلك جيشاً خفياً، يعجز أي عدو عن رصده، في الأماكن المفتوحة، كالصحاري والجبال..
وكل هذا بوساطة طلاء ....



ورداء...
بواسطة العلم، بدأت رحلة تحقيق ما جاء في الأسطورة النرويجية القديمة..
أصبح هناك بالفعل رواد إخفاء..
رداء من قماش بسيط، يطلى بمادة خاصة، فيخفي من يرتديه عن الأبصار إلى حد كبير..
التجارب، حتى هذه اللحظة، تخفي الأجسام بنسبة خمسين في المائة تقريباً، أو ما يزيد قليلاً..
وهذه مجرد بداية..
وحتى تلك البداية، تبدو كافية تماماً، إذا ما إستخدمناها لإخفاء أسلحة كبيرة، في قلب صحراء شاسعة، إذ أنه سيصبح من العسير أن تلتقطها العيون الفاحصة..
أو حتى عدسات الأقمار الصناعية..
والعلماء لن يكتفوا طبعاً بنسبة الإخفاء تلك..
سيعملون حتماً على تطويرها أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
ويوماً ما، سيخفي الرداء من يرتديه تماماً..
وتتحوّل الأسطورة إلى حقيقة..
xxx
علم تغيير خواص المواد وحده، يمنح المستقبل صورة عجيبة، لا يمكننا حتى أن نتصورّها الآن، إذ أنه باب جديد، قادر على تغيير وجه العالم كله، وقلب مقاييسه ومعاييره العلمية كلها رأسها على عقب..
يكفي أن تعلم أن بعض المواد يتم تغيير خواصها الآن، لتبلغ مقاومتها الصفر، في درجة حرارة الحجرة، وهذا يعني إنتاج جيل جديد من المواصلات الخارقة، التي ستضاعف قدرات وإمكانيات وسائل الإتصال، وأجهزة الكمبيوتر، أكثر من ألف مرة!!..
هل يمكنك أن تتخيَّل هذا؟!..
لو أن هذا بإمكانك، وأنك تمتلك بالفعل خيالاً خصباً، فدعني أفاجئك بما يعجز خيالك الجامح هذا عن تصديقه..
أو حتى تصوّره..
في ستينات القرن العشرين، بلغ التنافس الصناعي، بين الصين والإتحاد السوفيتي ذروته، وراحت كل منهما تحاول إثبات تفوق تقنياتها على الأخرى، بوسائل شتى..
وفي وقت واحد تقريباً، أقامت كل منهما معرضاً للمنمنمات الفنية، بهرنا جميعاً؛ إذ قدم الصينيون في معرضهم حبة أرز، مرسوم عليها خريطة العالم

بكل تفاصيلها، حتى خطوط الطول والعرض، فرد عليها الإتحاد السوفيتي بشطرنج كامل، على رأس دبوس!!..

وحتى يثبت الروس تفوقهم الصناعي، أهدوا إلى الصين، في أحد أهم أعيادها السنوية، شعرة من الصلب، طولها متر كامل؛ كدليل على مدى ما وصول إليه، في تكنولوجيا الطرق والسحب..

وتقبَّل الصينيون الهدية السوفيتية بصدر رحب، ثم أرسلوا إلى الروس شعرة مماثلة، مثقوبة من منتصفها بكامل طولها!..

وتابعنا نحن ما أطلقنا عليه إسم حرب المنمنمات، ورحنا نضحك، ونتندَّر، و..

ولكن العلماء لم يضحكهم هذا أبداً..

لقد إستفزهم..

إستفزَّ طبيعتهم العلمية، وتحدَّى علمهم وعقلهم، ودفعهم إلى إبداع فرع جديد من العلم والتكنولوجيا، تحت إسم (تكنولوجيا المنمنمات).. (نانو تكنولوجي)..

ولأن الهدف الرئيسي لتكنولوجيا المنمنمات، هو تصغير الأشياء، إلى أقصى درجة ممكنة، فقد حصل العلماء على تمويل ضخم لمشروعهم هذا، من كل الهيئات الصناعية، والعلمية، والعسكرية..

وبالذات العسكرية..

ومنذ السبعينات، بدأت تكنولوجيا المنمنمات تؤتي ثمارها، من خلال ظهور أجهزة جديدة، أصغر حجماً وأكثر كفاءة، في الأدوات المنزلية بالتحديد، مثل أجهزة الصوت، والتلفاز، والتليفون، وغيرها..

أما في مجال الفضاء، فقد ساعدت تلك التكنولوجيا، على تصغير حجم الأقمار الصناعية، ووزنها بالتالي، من طنين، إلى طن واحد، مع مضاعفة الإمكانيات ثلاث مرات على الأقل..

ثم بدأت عجلة التطوير تدور، بسرعتها التصاعدية، كالمألوف، وبسرعة، فوجئنا في الثمانينات والتسعينات بأجهزة تلفاز في حجم الكف، وأجهزة تسجيل أقل حجماً، وإنخفض وزن القمر الصناعي إلى نصف الطن، مع مضاعفة كفاءته وإمكانياته عشرين مرة..

وفي ذلك المضمار، ظهرت الدوائر السليكونية المطبوعة، وأجهزة اللاسلكي الصغيرة، ثم التكنولوجيا الرقمية، والأشياء تصغر..

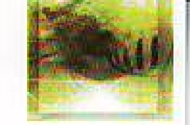
وتصغر..

وتصغر..

وجاء علماء آخرون، وإخترعوا أجهزة قياس أكثر دقة، ووسائل تصنيع أكثر حيوية، وأصغر حجماً، وأصبح التلفاز في حجم ساعة اليد، وظهرت أجهزة الكمبيوتر اليدوية، وأجهزة التليفون الخلوية، التي راحت بدورها تتطوَّر..

وتتطوَّر..

وتتطوَّر..



وفي القرن الحادي والعشرين، بلغت تكنولوجيا المنمنمات حداً مدهشاً، ساعد على أن يصبح حجم القمر الصناعي مثل قبضة اليد، ووزنه لا يتجاوز المائة جرام، وقدراته تزيد ألف مرة، عن قدرات القمر الصناعي الأوَّل، الذي بلغ وزنه الطنين..

ومع هذا الحد من تكنولوجيا المنمنمات، أصبح من الممكن أن تحمل في يدك جهاز تليفون خلوي صغير الحجم، يحوي بنك معلومات، وآلة تصوير رقمية، ومسجل رقمي، وعشرات الأشياء الأخرى..

أما ساعة اليد، فقد وضعت فيها شركة يابانية شهيرة كل هذه المميزات، دون أن تغير حجمها، أو الكثير من شكلها الخارجي..

وبالنسبة لعقد واحد مضى، يعتبر هذا التطوّر مذهلاً بكل المقاييس..

إلا أنه ليس كافياً..

من وجهة نظر العلماء على الأقل..

فمن أهم مميزات كل عالم، أنه طماع..

ربما يسعده التوصُّل إلى كشف علمي خطير..

ولكنه دوماً يسعى إلى المزيد..

والمزيد..

والمزيد..

لذا فقد أدار العلماء عيونهم إلى ما أطلقوا عليه إسم القطب الأحادي، أو (مونوبول)..

ووفقاً لأبحاثهم، التي حققت الكثير من النتائج، حتى لحظة كتابة هذه السطور، يبدو أن المنمنمات ستصل إلى مستوى جديد..

مستوى يفوق كل خيالك..

ألف مرة.

× × ×

فمن الناحية العلمية، وبناءً على تجارب فعلية، ونتائج إيجابية، أصبح العلم قادراً على تصغير كل شيء، لأكثر من أربعمائة مرة!!

بمعنى أدق، يمكن أن يتحوَّل الإنسان، بالفعل، إلى عقلة إصبع..

بل إلى ما هو أصغر من هذا..

العلم إستطاع أن يجعل مبنى إرتفاعه أربعمائة متر، ينكمش إلى متر واحد، دون أن يفقد بناءه الخلوي الداخلي..

ليس البناء وحده، وإنما الإنسان..

والحيوان..

والأشياء..

وحتى الأسلحة والمعدات..
لا تستنكر هذا أو تنكره، أو تبادر بإعتباره مجرَّد هزل، وتذكَّر أننا لو حاولنا التنبؤ بالهواتف الخلوية، التي يمكنها نقل الصور الملوَّنة، منذ عشر سنوات فحسب، لاتهمنا الكل بالخبل والكذب، وإختلاق الأمور..
فالعلم اليوم يدرس ما يعرف بإسم (التوحيد القطبي) أو (Mono pole)، أو (القطب الأحادي) لو شئنا الدقة، وفكرة هذا الأمر، بإختصار شديد، هي إزالة الفراغات الخلوية والذرية، من الكائنات الحية والآلات، بحيث يتم إختصار حجمها بأكمله..
ولو علمنا أن الفراغات الخلوية والذرية، هي التي تحتل المساحة الأعظم، من أي جسم، لأدركنا أن إزالتها تعني إنخفاض حجم الجسم، إلى درجة يصعب تصوّرها..
بإختصار، يمكن للعلم، في غضون عامين أو ثلاثة، أن يقوم بتصغير جيش كامل، بكل أفراده ومعداته، إلى ما يكفي لوضعه في حقيبة شخصية بسيطة، ونقله إلى منطقة الهدف، ثم إعادته هناك إلى حجمه الأصلي، ليشن حربه من داخل الهدف، وليس من خارجه!..
أيضاً سيتمكَّن العلم في تصغير الطيور والحيوانات، بحيث تحتاج إلى قدر ضئيل من الطعام..
وعندما يكتمل نموها، وتبلغ الحد المطلوب، يتم إعادتها إلى حجمها الأصلي، بعد أن إنخفضت مصروفات تربيتها وتسمينها إلى أدنى حد ممكن..
تكلفة النقل والشحن أيضاً ستبلغ حداً لم يحلم به أكبر عقل إقتصادي في التاريخ، فالآلات والمعدات الضخمة يمكن تصغيرها، لتصبح في حجم لعب الأطفال، ونقلها في حقائب يد صغيرة، ثم إعادة تكبيرها في مواقع العمل..
وحتى مشكلة الإسكان، وتزايد أعداد المواليد، ستصبح عديمة القيمة، في وجود تكنولوجيا مذهلة، قادرة على إستيعاب كل سكان (الصين) مثلاً، في فدان واحد من الأرض، في أية منطقة بسيطة..
مشكلة مياه الشرب أيضاً ستنتهي تماماً، إذ أن قطرة ماء واحدة ستكفي أسرة، لعدد ساعات طويلة..
عشرات المشكلات ستنتهي وتتلاشى، فقط عندما تبلغ تكنولوجيا التصغير والقطب الأحادي مبلغها..
والمدهش أننا لن ننتظر عشرات السنين، حتى يصبح هذا الخيال واقعاً..
كل ما نحتاجه هو أعوام خمسة، على أكثر تقدير..
المهم أن تتاح لنا تلك التكنولوجيا، عندما تكتمل..
فكما إعتدنا، يصرّ العسكريون دوماً على الإحتفاظ لأنفسهم بأى تطوّر تكنولوجي، يصلح كسلاح فريد، في الحاضر أو في المستقبل القريب، أو حتى البعيد، بإعتبار أن مقتضيات الأمن لها الأولوية دوماً، قبل أي أمر آخر..

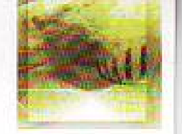


حتى لو كان هذا الأمر هو رفاهية الدنيا كلها..
عزاؤنا الوحيد هو أن هذا سيحدث لفترة محدودة فحسب، كما حدث لكل الإبتكارات الهامة من قبل، فأفضل وأروع ما في التطوّر العلمي، هو أنك لا تستطيع أن تخفيه طويلاً..
ولا تستطيع أن تحتكره أبداً..
فالقواعد العلمية واحدة، والعقول العلمية متشابهة، والمبدأ العلمي يقول: إن البدايات المتشابهة تصنع نتائج متشابهة..
وكل الأبحاث تبدأ على نحو علني..
وكلها، في زمننا هذا، يتم نشرها عبر شبكة الإنترنت..
وهذا يجعلها متاحة للجميع..
لكل متصفحي شبكة الإنترنت..
وكل عالم في الدنيا كلها..
وما دامت البداية معروفة، فهناك عالم آخر سيلتقط طرف الخيط، ويبدأ أبحاثه بدوره، في نفس الوقت الذي سيفعلها فيه عالم ثان، وثالث، ورابع..
وخلال عام واحد على الأكثر، ستصبح هناك قاعدة علمية ضخمة، تبحث الأمر نفسه، وتتصل ببعضها البعض، وتعاون لتطوير الفكرة، وتحسينها، وتقويتها..
والجهات العسكرية، مهما بلغت قوتها، لا يمكنها أن تحجب العلم، أو تحتكره، أو توقف تطوّره..
لذا فالعلم سيتطوّر، ويتقدّم، ويمنحنا في كل عام.. بل وفي كل أسبوع فكرة جديدة، أو كشفاً جديداً، قادراً على قلب حياتنا كلها رأساً على عقب..
بمعنى أدق، لو أنك حاولت أن تتخيَّل ما سيكون عليه العالم، بعد عشر سنوات فحسب من الآن، على ضوء المعلومات المتاحة، والتطورات العلمية المحتملة، لوجدت أن هذا أمر عسير للغاية..
فالعالم سيكون مختلفاً تمام الإختلاف، عن عالم اليوم حتماً..
ولكن هذا لن يعني أن العلم قد بلغ مبلغه، أو وصل إلى أفضل ما يمكن الوصول إليه..
ستكون هناك دوماً نظرة إلى المستقبل..
وسيظل التساؤل المثار حوله قائماً..
التساؤل عما إذا كان ما يحمله لنا المستقبل حقيقة أم..
أم خيال!

× × ×

ويأتي الغد..





والمقصود بالعبارة أنه، في كل مرحلة، من مراحل التطور العلمي، يتصوّر الإنسان أنه قد توصّل إلى كشف سر من أسرار الكون، ويبنى كل تطوره وقناعاته على ما توصل إليه، ويبدو له أنه بهذا قد فك العديد من الألغاز، وأجاب العديد من التساؤلات، التي حيرته طويلاً...

ثم يمضى الزمن....

ويأتي الغد....

وتتطوّر العلوم والمعارف..

كل العلوم...

وكل المعارف..

ومع التطوّر، يتوصّل الإنسان إلى نظريات وحقائق جديدة، تحل جزءاً استغلق عليه من قبل، وتجيب تساؤلاً، حار طويلاً فى البحث عن جوابه...

ولكن المشكلة أن تلك الحقائق نفسها تهدم الثوابت، التي بني عليها معارفه كلها...

وهكذا تتغير الثوابت، وتختلف القناعات، ويضع الإنسان قواعد جديدة...

ولأنه لا يتعلم الدرس، فهو يثق تماماً فى قناعاته الجديدة، ويبنى عليها كل حقائقه وأبجدياته، و...

ويأتى غد جديد...

وتطور جديد...

وتدور الدائرة مرة أخرى...

والمشكلة هنا لا تكمن في العلم، ولا في الإنسان نفسه، ولكنها تأتى فى إطار الحقيقة الأزلية، التي تؤكد أننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً...

فمادامت الحيات تمضى، فالعلم معها سيأتي...

ويتطور...

ويتغير...

ففي القرن الثامن عشر مثلاً، وضع أستاذ الفيزياء الانجليزي سير (إسحق نيوتن)، نظريته الشهيرة عن الحركة والجاذبية، و التي تعرف حتى الآن باسم قوانين نيوتن...

وهلّل العالم كله للعبقري، واعتبره فلتة من فلتات الزمان، وأصبحت قوانينه هي الثابت الأساسي، فى كل الدراسات الفيزيائية والكونية...

ثم تطوّر الزمن، وأتى الغد...

ومع الغد، وفى بداية القرن العشرين، أتى (ألبرت أينشتين)، ليضع نظرية النسبية الخاصة...

والواقع أن نظرية أينشتين هذه كانت تحفة رائعة، وخاصة عندما فسرت العديد من ألغاز الكون، وبخاصة ما يتعلق بنظرية الانفجار الكبير...

ونظرية الانفجار الكبير هذه، لمن لا يعرفها، هي نظرية خاصة بمنشأ الكون،

وتفترض أن الكون كله كان كتلة واحدة ملتهبة، ذات طاقة عالية، ثم تفجرت تلك الكتلة، وتناثرت بفعل الانفجار، لتصنع الكون كبه، بمجراته ونجومه وكواكبه وتوابعه...

والنظرية ليست بهذه البساطة، إذ تحوى العشرات من التفاصيل العلمية الدقيقة، الخاصة بالجاذبية، والطرد المركزي، والأفق الكوني، وغيرها، مما يحتاج إلى مجلد كامل لشرحه، ولكن كل ما يهمنا منها، هي أنها كانت تفسر منشأ الكون، منذ الثانية بعد الأولى، وحتى الآن....

أما الثانية الأولى، فلم يجد لها العلماء أي تعليل علمي حتى الآن،،،

وسيجيب المعظم بالطبع أن هذا أمر طبيعي؛ لأن ما حدث، في تلك اللحظة الأولى، هو الخلق الإلهي نفسه، وهذا أمر لا تفسير علمي له...

ولكن هذا يوقعنا في الخطأ نفسه، الذي وقع فيه أينشتين، على الرغم من عبقريته الفذة...

لقد حشر قناعاته الدينية في علمه...

وقبل أن يستنكر أحدكم هذا، دعونا ننظر إلى أنفسنا...

كان من الممكن أن يخلقنا الله سبحانه وتعالى كما خلق آدم، من طين مباشرة، إلا أنه (سبحانه)، جعلنا نأتي عبر منظومة، ون نطفة فعلقة وهكذا...

وأرادنا أن ننتبه إلى هذا، وندركه، وندرسه؛ لأن في دراسته طريق إلى الإيمان به وبعظمته (عزّ وجلّ)...

المهم أن أينشتين جاء، ووضع قوانين جديدة، لتفسير منشأ الكون، وفى نظريته هذه، كان يحتاج إلى ثابت ما، لقياس كل ما حوله...

وفى أي علم أو تقييم، لابد من وجود ثابت ما، فنحن لا نستطيع أن نقول إن هذا الرجل طويل أو قصير مثلاً، ما لم يكن لدينا ثابت طولي، نحدّد معه الأطول والأقصر..

وفى نظريته، وضع أينشتين الضوء كثابت قياسي، باعتبار أن نتائج من سبقوه كانت تؤكد أن سرعة الضوء لا تتغير، سواء كنا نبتعد عن مصدره، أو نقترب منه...

وهكذا، ولأوّل مرة في علم الفيزياء، وفى نظرية أينشتين، أصبحت سرعة الضوء هي الثابت الكوني، الذي يقاس عليه كل شيء...

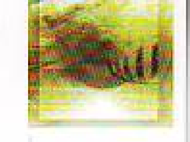
ومنذ ذلك الحين، تعامل كل العلماء والباحثين مع سرعة الضوء، باعتبارها ثابت أساسي، وبنوا كل قناعاتهم وأبحاثهم على هذا، لما يقرب من قرن من الزمان...

ولابد وأن نعترف هنا، أن هذا قد قفز بالعلم قفزة كبيرة جداً، وحل عشرات الألغاز... ولكن ليس كلها...

هذا لأن أينشتين، وهو يضع نظريته، حشر فيها قناعاته الشخصية والدينية..

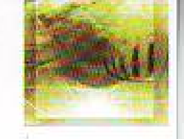
ولهذا قصة..

× × ×



عندما وضع أينشتين نظريته، كان الإيمان السائد هو أن الكون أيدي سرمدي، بلا بداية أو نهاية...
وهذه القناعة تحتم أن يكون الكون ثابتاً، لايتمدّد أو ينكمش...
ووفقاً لنظرية الانفجار الكبير، ومع غياب المقاومة وعوامل الاحتكاك، يكون من الطبيعة أن يتمدّد الكون باستمرار، مع موجة التضاغط، الناشئة من الانفجار، والتي لا يمكن أن تتلاشى، قبل مليارات السنين...
ولكن التمدّد هذا يضع أينشتين في مأزق كبير...
فالتمدّد، أي تمدّد، لا يمكن أن يستمر إلى أبد الآبدين...
فكل تمدّد، ينتهي حتماً برد فعل انكماشي...
تماماً مثل الخيط المطاطي، يمكنك أن تجذبه، فيتمدّد إلى مسافة طويلة، إلا أن هذا يحتم ارتداده مرة أخرى، بنفس قوة الشد...
وهذا بالضبط ما سيحدث للكون، لو أنه يتمدّد....
ولكن هذا يتعارض تماماً مع قناعات أينشتين الدينية...
لذا، فقد لوى العبقري الألماني بعض معادلاته، وأوجد علاقة بين قوة الطرد المركزي، وقوة تجاذب الأجسام، ليصل إلى نتيجة تقول: إن الكون ثابت، إلا أنه فى حالة حركة مستمرة...
العبارة السابقة ستبدو غريبة، محيرة ومتناقضة للوهلة الأولى، ولكنك تستطيع فهم معناها، بأن تضع جسماً ثقيلاً في راحة يدك، وتم يدك أمامك فى ثبات... في هذه الحالة، ومع تجاهل حركة تدفق الدماء في عروقك، واختلاجة أنفاسك، ستجد أن يدك في حالة ثبات، على الرغم من الجهد الذي تبذله؛ للمحافظة على فرد يدك، والقوة التي يضغط بها الجسم الثقيل على راحتك....
وخرجت نظرية أينشتين، وبهرت العلماء كلهم، وأقنعتهم...
إلا عالم واحد ....
أليكسندر فريدمان، الروسى المولد، والدارس في جامعة كامبريدج انتبه إلى هذا الخطأ الحسابي، في نظرية أينشتين، ونشر مقالاً يصحّح فيه بعض معدلاته، ليصل إلى النتيجة العلمية الواضحة، وهى أن الكون سيتوقف عن التمدّد فى يوم ما، ثم يبدأ مرحلة الارتداد، بعد مليار سنة أخرى...
وفور نشر المقال، غضب أينشتين بشدة، وكتب، لأوّل مرة فى حياته، مقالاً غاضباً، فيه من الثورة، أكثر مما فيه من العلم...
وارتبك فريدمان، الذي تصوّر أن أستاذه سيشكره، على أنه قد كشف الخطأ، ففوجئ به يثور عليه بمنتهى الشدة والعنف...
وبكل ألمه ومرارته، أرسل فريدمان رسالة عتاب رقيقة إلى أينشتين، يوضح فيها وجهة نظره...
ولأن أينشتين عالم فذ، فقد خضع للأمر هذه المرة، واعترف في مقال تال، بأن معادلات فريدمان صحيحة، وأنه هو قد وقع فى خطأ حسابي، لم ينتبه إليه...

وهكذا تعدّلت الثوابت، وتغيرت...
ونشأ تفسير جديد...
وبعد قرن كامل من الزمان، وبينما كان الدارس (جواو ماكيويجو) يراجع نظريات فيزياء الكون، خطرت بباله فكرة عجيبة...
لقد تم حساب كل المعادلات الكونية، باعتبار أن الضوء هو الثابت الكوني الأساسي، وعلى الرغم من هذا، فمازالت هناك نقاط غامضة عديدة، فى نظريات الكون، وأمور لم يمكن تفسيرها، فماذا لو أن الثابت ليس ثابتاً؟!...
كان افتراضاً جريئاً إلى حد الجنون، إلا أن ملك عقل (ماكيويجو) بشدة، فقضى عمره كله، لدراسة الفكرة المجنونة...
وفى كل لقاء علمي، كان العالم يشير إلى نظريته الجديدة، الخاصة بتغير سرعة الضوء، و التي أطلق عليها VSL أو Variable Speed of Light ...
ولقد استنكر العلماء كلهم فكرته، وسخروا منها، ووصفوا مصطلح بأنه Very Silly ، باعتبار نفس الحروف...
وكان هذا الرفض أمراً طبيعياً للغاية...
فالناس دوماً أعداء ما يجعلون، وما يتعارض مع قناعاتهم....ونظرية (ماكيويجو) تهدم أهم ثابت في قناعاتهم....
الثابت الكوني....
ولكن (ماكيويجو) لم يستسلم، وإنما واصل أبحاثه، مع زميل شاركه أفكاره وجنوح الجامح، وهو (آندى ألبريخت)، وراح الاثنان يجاهدان لإثبات صحة نظريتهما، التي تتعارض مع كل الثوابت الفيزيائية الأساسية...
ولم يكن الصراع هيناً أو بسيطاً...
إلا أنه لم يضع هباء...
فمع الأفكار، والمعادلات، والحلول، كان لابد وأن يدخل الأمر دائرة الضوء، وأن ينتقل من المعارضة التامة، إلاى الانقسام، بين التفكير، وإعادة الحسابات، والمعارضة المتخاذلة...
والعنيفة أيضاً...
ثم بدأت النظرية الجديدة تجد مستمعين، ومفكرين، ومناقشين...
ومؤيدين أيضاً...
وهكذا انقلبت الأمور كلها رأساً على عقب...
وبدأ عصر علمي جديد...
وثابت علمي آخر...
ولكنها حتماً ليست آخر المطاف...
فمن الممكن أن تحل النظرية الجديدة عشرات الألغاز...
وتخلق عشرات أخرى ..
وأخرى...



وأخرى...

عشرات من ألغاز ستحير العلماء، وتخلق تحديات جديدة، وربما تقود إلى نظرية أخرى، أقوى، وأدق وأبسط...

نظرية توجد حلولا جديدة...

وتحديات جديدة ...

عندما يأتي الغد.

د. نبيل فاروق

الفهرس

صدر عن دار موند بوك

1 - على حافة العلم

كتاب يبحث في ظواهر لم تذكر في أي كتاب عربي

2 - خلف أسوار العلم

أول موسوعة عربية متخصصة في ظواهر ماوراء الطبيعة

3 - خطوة الزمن

رواية من أدب الخيال العلمي

4 - و تحدث العلم !

كتاب يكشف بالأدلة أكاذيب أعتقد البشر أنها حقائق

5 - موسوعة الظلام

أول موسوعة عربية متخصصة في عالم الرعب

6 - هادم الأساطير

نحو موسوعة تكشف الحقائق

7 - الآن نفتح الصندوق

مجموعة قصصية من أدب الرعب

8 - حدث في الكويت

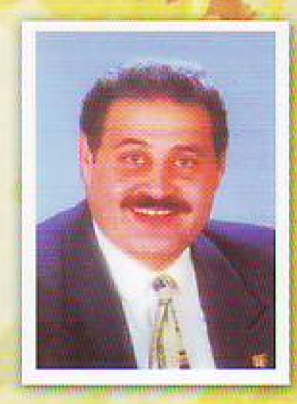
أول كتاب يبحث في ظواهر غامضة و غريبة حدثت في الكويت

9 - الحافة

أحداث علمية تقع علي الحافة

10 - قصتي مع اللوفر

دليل ساخر يشرح لك كيف تقضي 4 أيام في باريس



د. نبيل فاروق

أجمل ما قرأت، في حياتي كلها، عن التطور العلمي، عبارة تصفه بأنه: "إهانة مستمرة للذكاء البشرى"....

والمقصود بالعبارة أنه، في كل مرحلة، من مراحل التطور العلمي، يتصوّر الإنسان أنه قد توصّل إلى كشف سر من أسرار الكون، ويبنى كل تطوره وقناعاته على ما توصل إليه، ويبدو له أنه بهذا قد فك العديد من الألغاز، وأجاب العديد من التساؤلات، التي حيرته طويلًا...

ثم يمضى الزمن.... و يأتي الغد.... وتتطوّر العلوم والمعارف..

كل العلوم... وكل المعارف..

